ياسمين

إيميسا

رواية

هلا أحمد علي

EMESSA

هلا أحمد علي

أنا أعلم كم أنت قويةٌ ومتماسكةٌ ومنتصرة أيتها الجنيّة الجميلة، لكنّي أعلم أيضاً كم أنت وحيدة! لا أريدك وحيدةً يا ابنة قلبي، الوحدة ليست خياراً جيداً، اسأليني أنا عن الوحدة! اسألي معلمتك! أتعلمين أنك ستشيخين؟! ستتعبين وتمرضين بعد سنوات، سيغادرك الجمال والشباب والصحة، ستمرين في الأحياء ولن يغازلك الشبّان، ولا المسنّون، ولن يلتفت إليك أحد، ولن يساعدك الموظفون في الدوائر الحكومية لأنك لم تعودي الفتيّة الفاتنة، ستمر الأعياد وتجتمع الناس عائلات مع بعضها البعض وأنت وحيدة، سيدعونك إلى حفلات عشاء وأعراس لن تذهبي ولن تشاركي، ستعتذرين وتتذرعين بعشرة حجج، لأنك بلا شريك، ستدعوك صديقاتك إلى منازلهن ولن تلبي دعواتهن خوفا من عداوة مبطنة ستعلمين أنهن يخشين منك على أزواجهن، سيكون نصيبك صالات النساء في مجالس العزاء فقط، سيأتي الشتاء القارس ولا أريد أن يتفوق شتاء قلبك وصقيع روحك عليه، اهزميه بدفء ممكن يا حبيبتي، افتتحي معه فصلاً جديداً من فرح ورضا ولا تؤجلي قرارك فكلّ يوم يمضي، يصعب علينا القرار، ليتني أخيط لك فستان زفافك بيديّ، وبالخيط والإبرة وبلا ماكينات، هكذا كانوا يخيطون فساتين الأميرات، ابدئي حياة جديدة تليق بك يا أميرة، يا ابنة قلبي وحبة عيني، آه صحيح أوصيك أن تضمّي أمّك كثيراً كثيراً إلى صدرك، عانقيها يا حبيبتي، الجسدُ يحتاج الجسدَ، سأدعو لك أينما كنت لا يهم أي عالم أنا فيه الآن، وأنا واثقة أنّ أمك الأولى ستفرح لما كتبته لك أمك الثانية، قبلاتي لك ولها ... أحبّك يا شيطانة!".

9 789933 615130

إيميسا

t.me/yasmeenbook

هلا أحمد علي

إيميسا

رواية

ياسمين
قصص
روايات

التكوين

t.me/yasmeenbook

هلا أحمد علي؛ مواليد دمشق، تخرجت من قسم الفلسفة بجامعة دمشق 2000، حصلت على دبلوم الدراسات العليا بالفلسفة من جامعة دمشق عام 2001، حصلت على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة فريدرك ألكسندر إيرلانغن نورنبرغ/ جمهورية ألمانيا الاتحادية عام 2009، استاذ مساعد وعضو هيئة تدريسية بقسم الفلسفة في جامعة تشرين.

t.me/yasmeenbook

الطبعة الأولى 2019

© حقوق النشر والترجمة والاقتباس محفوظة
لـِ دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر

هاتـــف: 112236468 00963
فاكـــس: 112257677 00963
ص. ب: 11418، دمشق ـ سوريا
taakwen@yahoo.com

t.me/yasmeenbook

إلى شهدائنا...

وإلى أحمد وسعاد..

إلى سامر... وإلى بشر وغدي..

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

عن الحرب وويلاتها..

عن أبطالها رجالاً ونساءً..

عن الحب ومفارقاته..

عن الإنسان...

خارطة الشخوص

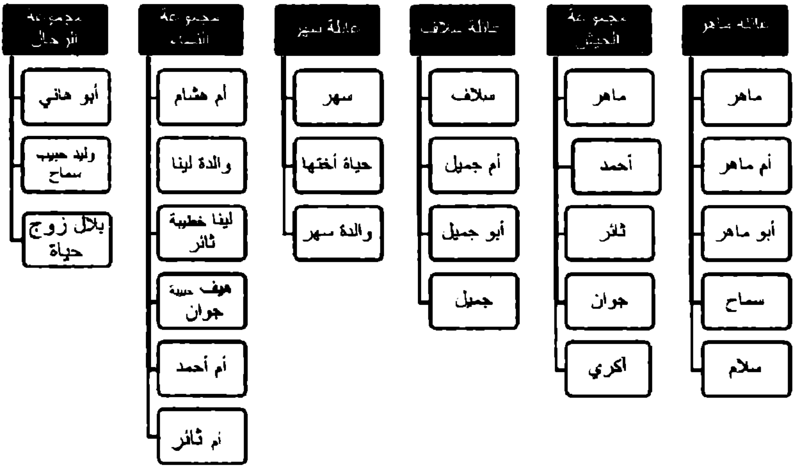

t.me/yasmeenbook

الاشتباك في المعركة يعني الحرب،

وفي الحب يعني الاستسلام.

أنيس منصور

t.me/yasmeenbook

أم ماهر

حمص[1]، شتاء 2018

شهقت أم ماهر حين رأته يقف بباب المطبخ، سقط غطاء الإناء المعدني من يدها فأحدث صوتاً قوياً عند ارتطامه بالأرض، لكنّ سلام لم يبدِ أية ردة فعل، وقف تماماً كما اعتاد أن يفعل لسنوات، ذراعاه مكتوفتان على صدره، يتكئ بكتفه على حافة الباب، يميل برأسه قليلاً وعيناه تلاحقان أم ماهر التي تعدّ الطعام بينما يحدّثها عن يومه وجديده، لكنّه اليوم لم يخبرها أي شيء، كان صامتاً، لاحظ اندهاشها حين رأته فبدا مستغرباً لكنه لم يسأل عن السبب وكأنه لم يغبْ عن البيت وعن الوجود وعن حياتهم يوماً!

(1) حمص هي مدينة سوريّة، تعتبر ثالث أكبر مدن البلاد من حيث عدد السكان، بعد دمشق وحلب، تقع على نهر العاصي في سهل الغاب، متوسطة البلاد وواصلة المحافظات والمدن الجنوبية بالمحافظات والمدن الساحليّة والشماليّة والشرقية، على بعد حوالي 162 كم من شمال العاصمة دمشق وهي العقدة الأكبر للمواصلات في سوريا بحكم موقعها، وهو ما أكسبها موقعًا تجاريًا فريدًا، وأغناها بالعديد من المرافق الحيوية والصناعية والتجاريّة؛ فضلاً عن ذلك فإن المدينة هي المركز الإداري لمحافظة حمص. مناخها معتدل غنية بالآثار. أما أصل التسمية، فهو مستمد من اليونانية إيميسا وتعني إلهة الشمس. يبلغ عدد سكانها حوالي مليون ونصف المليون نسمة.

t.me/yasmeenbook

"كيف؟ متى أأأأ أتيت؟ أنتَ هنا؟ عدتَ يا عيون أمّك؟!" تلعثمت وانعقد لسانها، لم يُجبْها، كان يرمقها بدهشةٍ وكأنّه لا يعلم عمّا تتحدث، بدا الأمر بالنسبة إليه وكأنه كان يغطّ في نومٍ عميقٍ وصحا للتو ليتفقّد والدته في المطبخ، موجودًا وغائبًا بآنٍ معاً، صاحياً وغير صاحٍ، واعياً وغير واعٍ، كانت تتحدث إليه وتناديه فينظر إليها دون أن يجيب، ثم يرفع عينيه عنها وينظر إلى أفق بعيد، سألته عن أحواله وأين أخذوه وما الذي فعلوه به، اكتفى بهزّ رأسه دون أن ينبسَ ببنت شفة. أدار ظهره وهمّ بالمشي، نادته: "هل ستنتظر الطعام في غرفة الجلوس؟ يا ابني قلْ كلمةً واحدةً فقط يا ماما، والله اشتاقت أذني لسماع صوتك يا روحي!" لم يجبْ وكأنه لا يسمع أبدا، أدمى صمتُه قلبَها، وكانت روحها تسيل على كلمة "يا بني"، بكتْ، هرولت إليه تعثرتْ حين علق طرف جلابيتها بأحد كراسي المطبخ حتى كادت تسقط، لكنّها تداركت نفسها في اللحظة الأخيرة وعيناها معلقتان بسلام الذي يدير ظهره لها، كانت تراه ولا يفصل بينهما سوى مترين أو ثلاثة فقط، لكنها لا تصل إليه، ولا تدركه، هرولت وهرولت فبدا المطبخ وكأنه ملعبٌ لا تنتهي مساحته، تهرول دون أن تصل ولا تقطع شبرا إضافياً، فتلهث وتلهث فلا يرحمها الزمن ولا المسافة، قدماها مثقلتان لا تتحركان، شعرت أنها تراوح في مكانها بل وأنها تهرول بالاتجاه المعاكس، فكان يبتعد ويبتعد، وصورته تبهت وتبهت تدريجيا وكأنها على وشك الاختفاء، والأم على وشك الاختناق، خافت، ذعرت، وشهقت شهقت كثيراً أرادت أن تصرخ بأعلى صوتها: "لا لا لا تغب ثانية أرجوك لا تغبْ"، لكنّ صوتها كان مكتوماً.. مكتوماً لا يخرج من حنجرتها التي تختنق رافضةً غيابه والخيبة القاتلة هذه المرة، صرختْ صرخةً ملؤها الألم والقهر

t.me/yasmeenbook

والاحتجاج والتمرد هذه المرة استطاعت أن تسمع صراخها قويا مدوّيا وكأن المدينة كلّها تسمعها. يدٌ مسحت على جبينها وخديها بقوة، ضمّها إلى صدره: " هيا ..هيا ..هوّني عليكِ!، كل شيء على مايرام! كل شيء على مايرام!"

لم تكن المرة الأولى التي زار سلام أحلامها، لكنّها كانت الأقسى، ولم تكن المرة الأولى التي يقتلها حضوره والغياب، لكنّ شيئاً ما أخبرها أن الأمر ليس أضغاث أحلام. لم تكن كذلك المرة الأولى التي يصحو فيها أبو ماهر على صرخاتها ويهدئ من روعها، لقد اعتاد ذلك حتى أنّ الليالي التي مرّت دون كوابيس كانت تعتبر استثناءً يثير تساؤله واستغرابه.

بقدر ما كانت لحظات عصيبةً على كليهما إلا أنها كانت لا تخلو من غبطةٍ مغلفة بالأسى، كان يسعد كثيراً حين يخاطب لا شعورُها شعورَه، بعيداً عن كل الأعباء والمشكلات اليومية والهموم التي تحيق بهما، حين تستنجد به وتنادي: "مراد!" كان يشعر أنها ما زالت، يسرا، الأنثى التي يحبها وتحتاج إليه بقربها، لمسةٌ حانيةٌ، منه وعبارات بسيطة جداً كانت تكفيها لترتاح، أما هو فقد كانت تكفيه الحالة الوحيدة التي تبقت له كي يشعر من خلالها أن الحرب لم تسلبه كل شيء وأن دوراً ما زال يمارسه كرجل.

كان لأبي ماهر جسدٌ ضخمٌ متناسقٌ جميل، حين يستلقي يكاد يملأ السرير كلّه، ومن الصعب أن يظهر لأحد أنه مصابٌ بالشلل، فإصابته أولى سني الحرب لم تؤثر إلا على طرفيه السفليين فقط، فظلت معالم رجولته كما كانت وما زالت، كانت ترى في كتفيه المليئتين العريضتين شفاءً لرأسها المثقل بالهواجس، وفي ذراعيه

t.me/yasmeenbook

القويتين اللتين يضمها بهما على صدره كانت ترى أماناً وسط الحروب والأزمات والصواريخ والقذائف، ورغم قوّة واستقلال الأنثى بداخلها، كان يروق لها استسلامها، وترى في ضعفها، هنا فقط قوّة خاصّة. في ليالي الذعر اعتاد أبو ماهر أن يبقي جسده لصيقاً بجسدها، ويشدها إليه بقوّه حين تهمس له: "مراد!"، إلى أن تمرَ الأمور بخير، وغالباً ما كانت لحظاتهما تتوّج ببعض الحبٍّ والكثير من الدّفء. ورغم أنّ أبا ماهر كان يعشقها كأنثى، كجسدٍ يغريه ويشتهيه، لا كرفيقة دربٍ وشريكة عمر فحسب، إلا أنّ ممارسة الحبّ الحميمة في ظل الخوف والفقد واليأس تكون أبعد من تشابك جسدين، وأعمق من اختلاط النور بالظلام فيهما ومن خلالهما، إنّ القلق والخيبة والقهر أمور تجعل من ممارسة الحبٍّ طقساً مقدساً وعناق أرواحٍ في فضاءٍ عصيٍّ على الوصف. هنيهات تحمل كل التناقضات التي ينطوي عليها زمن الحرب، زمنٌ عنوانه الألم المجانيّ. ساعات بل أيام وسنوات مليئة بالكرب وبالعبث، كلّ ذلك لم يحلْ دون حضور رجولة أبي ماهر وأنوثة أم ماهر على سريرٍ مظلمٍ في منزلٍ مقهورٍ بمدينةٍ حوّلتها الحربُ إلى مدينة أشباح، مصير أبنائها على كف عفريت والمجهول وحده ما ينتظرها.

وكالسّجين المنتظر النطق بالحكم إما بالبراءة أو بالإعدام، كان انتظار عائلة سلام له، حين انتشرت الأخبار حول تحرير بعض المختطفين في مدينة عدرا العمالية وفي غوطة دمشق قبل أربع سنوات، قرر ماهر، مدفوعاً بالأمل، التقصّي حول أخيه سلام علّه يكون أحد المحررين. في اتصال هاتفي صباحي أخبر أخته سماح أنّه سيقضي إجازته هذه المرّة في العاصمة دمشق للسؤال والتحري حول

t.me/yasmeenbook

سلام، حذّرها بشدة أن يبقى الأمر سراً بينهما إلى أن يتأكد إن كان فعلاً سلام بين المحررين أم لا. أراد ماهر أن يجنّب والديه ألم الانتظار. "اخترعي أية حجة، قولي إن العقيد لم يوافق على إجازة لي، يجب أن أفعل ما بوسعي، يجب أن أجد سلام! إياكِ أن تقولي شيئاً عن هذا أفهمتِ؟!"

قال بحزم فردّت: "حسناً ماهر بالتوفيق!" أنهت المكالمة وقد استبد بها القلق والترقب، وفي رأسها صورتان تتصارعان: سلام أخوها المختطف، ووليد حبيبها، تحيط بهما عشرات الأسئلةِ التي تجيب عنها أسئلةٌ أخرى إلى مالا نهاية. انتابتها رغبةٌ عاصفة بالبكاء لولا صرير باب غرفة والدتها الذي جعلها تتدارك نفسها، دخلت أم ماهر غرفة الجلوس دون أن تقول شيئاً، تبادلت هي وسماح النظرات حيث لاحظت كلّ منهما التعب والحزن البادي على وجه الأخرى.

"يبدو أنك لم تنامي جيداً ماما! كابوسٌ جديد؟!" سألت سماح.

لم تجبْ أم ماهر مباشرة وإنما أطالت النظر في وجه سماح وكأنها تقرأ صحيفةً، تنهّدت وقالت:

"ما الأمر يا سماح، لستِ على مايرام! ما الذي يحزنكِ، أخبريني؟!" قالت الأم بصوتٍ امتزج فيه الحزن مع الحنان فخرج مبحوحاً مجروحاً، فكان ما سمعته سماح أنيناً لا كلمات.

أرادت التهرب : "لا أبداً، عادي، سأعدُّ لكِ القهوة ماما".

جاء صوت أبيها وهو يدخل دافعاً كرسيه المتحرك: "أريد فنجاناً أيضاً يا سماح، سادة هذه المرة، ثم اقترب من أم ماهر وهمس: "وزوجتي الحبيبة هي السكّر".

t.me/yasmeenbook

"أي سكّر هذا يا أبا ماهر؟ أنا أنطفئ. أنطفئ" قالت أم ماهر بصوتٍ خافت.

كانت تلك المرة الأولى التي تشعر فيها سماح بالتهديد. وكأنها طفلة تمسك بيد أمها وفجأة تشعر أنّ هذه اليد ترتخي فاقدةً قوتها المعهودة. لم يكن من السهل عليها أبداً أن ترى أمها واهنةً إلى هذا الحدّ، وكأنّ اليأس بدأ ينال منها. وبينما تحضّر القهوة، سمعت والدتها في غرفة الجلوس تتحدث بصوت هو الحزن ذاته.

"كابوس الأمس لم يطمئنني يا أبا ماهر".

"وهل سنصدق الأحلام يا يسرا؟ استهدِي بالله ولا تقلقي أرجوكِ!".

ضعفت سماح أمام اليأس والهمّ الذي قرأته في صوت والدتها، فلم تستطع كتمان سرّ ماهر: "ماما.. ماما! افرحي قد يكون أخي سلام حياً يرزق، قد يكون بين المخطوفين المحررين" قالت بصوتٍ مضطرب.

خلال ساعات "حرب الأعصاب" كما يسميها أبو ماهر، كانت الأسرة الصغيرة أمام موسمٍ جديدٍ من مواسم الحرب لتحصدَه، المنزل صامتٌ جداً رغم أن التلفاز يعمل، الأب المقعد والأم المنفطر قلبها والابنة التي تساندها، رابعهم يسأل عن الخامس المفقود منذ سنوات، الأملُ حاضرٌ والألمُ يتربّص، الفرحُ محتملٌ والكرب وشيك. عودة سلام التي حولتها الحرب إلى حلمٍ، إن تحقق فسيتيح لروح أم ماهر التي جفّت أن تزهرَ من جديد وإلا فسوف يتجدد حزنها ويستمر قلبها المنفطر في النزف، كم صلّت وابتهلتْ ألا تحمل لها الساعات القليلة القادمة تجديداً لجرحها الذي لم يشفَ. طالت ساعات الانتظار واشتد اضطراب الهواجس داخلها، تأجّج الحريق في قلبها، وكابوس الأمس حضر بقوة.

t.me/yasmeenbook

دخل ماهر من الباب نظر في عيني سماح أولاً، الارتباك والذنب اللذان يأكلان ملامحها، كفاها المتشابكتان المرتجفتان، الطريقة التي جلس بها والداه بترقّبٍ وقلق، الجوّ المريب الذي يخيم على المنزل، كلّ ذلك أخبره أن سماحَ لم تكتم الأمر، انتقل بعينيه إلى أمه التي كانت على وشك الانهيار، هرولت إليه وقالت بصوتٍ مرتجف: "ما الأخبار؟!" لم يطل انتظارها حتى جاءها ردّ ماهر الذي أعلن بداية فصلٍ جديدٍ من الألم.

"لكن ماذا يعني هذا، لا معلومات حوله؟! لا جثة إذن هو حيّ!" تساءلت سماح بارتباك وقلق.

"الأفضل أن تصمتي أيتها الحمقاء!" قال بحنق.

على كرسيه المتحرك، كان مطرقاً رأسه بصمتٍ، غير منتبهٍ لشجار ولديه، أم ماهر التي اعتادت أن تتدخل بينهما لتهدئ الأجواء، كانت شاردةً أشبه بالغائب عن الوعي، عيناها مفتوحتان وكأنها في عالم آخر. سماح التي انفجرت بالبكاء وهرولت إلى غرفتها مغلقةً البابَ خلفها بقوّةٍ، لم تكن مدركةً أن الأصعب من الجراح هو نكء الجراح بعد شيءٍ من التعافي، وأن الأقسى من اليأسِ هو إحياءُ الأملِ ثم قتله ثانيةً.

t.me/yasmeenbook

لا شيء يوجعني في الغياب سوى عزلة الكون...

محمود درويش

t.me/yasmeenbook

سلاف

حمص، ديسمبر 2012

"يا ويلك! ستصبحينَ بلا سندٍ" لم تكن من العبارات التي تقال فتتلاشى بين ذرات الهواء ويطير بها الأثير فتختفي، وإنما نقشت في روحها نقشاً. قبل بزوغ الفجر، أصواتٌ مبهمة غير مفهومة، وقعُ أقدامٍ على الدّرج، تزامن مع صرخاتٍ مذعورة وباب البيت يغلق بقوّةٍ، وقع أقدامٍ أخرى لكنها أقوى وأشدّ من الأولى. ظنّتْ سلاف أنّه منامٌ. صوت والدتها الصريح أكّد لها أنه ليس مناماً : "احذر يا أبا جميل أرجوك! قد يكون هذا اللصُّ المندس مسلّحاً، بالتأكيد هو مسلّحٌ، عدْ أرجوك!".

لم تدرِ يومها سلاف، ذات الثلاث والعشرين سنة، ما الذي حلَّ بها فجأةً، فقد شعرتْ أنّها معنية الآن بأخذ زمام المبادرة، فوالدها، كما فهمت من أمها، هرع يلاحق اللص الذي دخل منزلهم من نافذة المطبخ وتعارك مع والدها وتسبب في جرحه، أخوها جميل في دمشق يدرس في الجامعة، وأمها منهارة. اقتربت من أمها لتحتضنها فصرخت أمّها وقد فقدت السيطرة على أعصابها تماماً. "أبوكِ يا سلاف، أبوكِ! خرج لا يحمل حتى عصا، ليلاحق لصاً بل مجرماً ربما يحمل مسدساً، يا ويلك يا أم جميل يا ويلك! ستصبحين بلا سند!". جلست الأم تسند رأسها وتتمايل يمنةً ويسرةً نائحةً بحزنٍ شديد، وسلاف تراقبها وقد امتلأت عيناها الجميلتان بالقلق والخوف

t.me/yasmeenbook

والحيرة معاً: "لا تخافي ماما لا تخافي! أنت قويةٌ ونحن سندٌ لبعضنا".
أم جميل قصيرة القامة ممتلئة الجسد، في العقد السادس من العمر، لكن السنوات لم تستعمر مواطن الجمال في وجهها الغضّ ذي البشرة القمحية والعينين الخضراوين اللتين ورثتهما سلاف، لم تمنح الحياة أم جميل فرصة متابعة التعلم بعد الابتدائية، لكنها كانت ربّة منزل من الطراز الرفيع، تطهو ببراعة اعترف بها كل من تذوّق ما تصنعه يداها، إضافة إلى إتقانها فن التطريز والخياطة والرسم على الحرير. بوجود أبي جميل، كانت الابتسامة لا تغادر وجهها. المرأة الخمسينية كانت تستحيل ابنة العشرين بقربه، تعوّدت أن تجلس لصيقةً به، يشاهدان التلفاز في السهرة تقشر له الفواكه باهتمام فيتناولها من يدها بخيلاء، تسأله عن كلّ شاردةٍ وواردة حول كل ما يذكر في البرامج التلفزيونية والندوات ونشرات الأخبار. يجيبها باعتزاز العارف المتفوّق فترمقه بإعجابٍ ينسكب من عينيها ويرضي غروره. كانت تشعر أنها كلّ شيء عندما يحضر، وأنّها لا شيء عندما يغيب. لم يحدث أن خرجت تبتاع أشياء للمنزل أو تدفع فاتورةً للماء أو الكهرباء، أو تتابع أمور أولادها. لكنّها كانت ركناً أساسياً من أركان المنزل، فزوج مثل أبي جميل يحتاج إلى زوجة مثل أم جميل.

كانت سلاف تراقب ملامح والدتها المقهورة متمنيةً أن تكون أمّها أقوى من ذلك، اقتربت منها خطوة ثم تراجعت ثانية، همّت بقول شيء لكن صراخ أمها وكلامها المستمر لم يعطِها الفرصة، عقدت حاجبيها الرفيعين وشعرت أن أي شيء ستقوله سيكون الآن بلا معنى وبلا جدوى، فأمّها لا تسمعها ولا تنظر إليها، هي هنا وليست هنا! تبدلّت نظرة سلاف إلى رغبة في فعل شيء ما، ركضت نحو النوافذ

t.me/yasmeenbook

تغلقها كلَها وتقفل الأبواب بالمفاتيح، عادتْ لتقف بجانب والدتها تتأمل وجهها الحزين المكروب. هرولت إلى المطبخ، وضعت إبريق الشاي على النار. تذكرت أن أمها كانت تقول إنّ المليسة تهدئ التوتر والغضب ولطالما حضَّرتها لأبيها ساعات انفعاله، فتناولت من درج في خزانة المطبخ بعض أوراق المليسة الجافة ورمتها بالماء، عادت إلى أمّها التي لم تتوقف عن البكاء والكلمات المكررة. أطفأت الأنوار القوية وأبقت على الخافتة منها، هكذا تعلمت عند الخطر، عادت إلى المطبخ، تناولت كأساً وصبّت المليسة التي ذبلت أوراقها في الماء المغلي كذبول الفرح والطمأنينة تلك الليلة.

بعد ساعات من الانتظار القاتل. نامتا على الأريكة، الأم المهمومة حتى الثمالة والفتاة الحائرة، ولم يوقظهما إلا صوت أبي جميل "سحبتُه كالشّاة من عنقه إلى قسم الشرطة، ونال ما يستحق" قال أبو جميل بفخر وهو يلمس مكان الجرح الذي أحدثه اللص في ذقنه التي خالط الشيب شعرها الأسود، ثم يرفع يده يتحسس بها معصم اليد الأخرى، فكان لدخوله المفاجئ وكلماته مفعول أقوى من المليسة بكثير. أشرقت أم جميل من جديد وأخذت تحمد الله وتشكره مهرولةً باتجاه زوجها "الحمد لله على سلامتك، كاد قلبي يتوقف من الذعر". ربما لم يفهم الوالدان ما الذي حلّ بابنتهما يومها، البنت التي كبرت دون أن ينتبهَ أحد، أنضجتها هذه الليلة القلقة أكثر، ففي عمر المرء سنوات تقف راكدةً ولحظات قصيرة راكضة، تقفز به عبر الزمن لتنضجه سنوات وسنوات.

بعد تلك الليلة، لم تتذكر سلاف أنهم ناموا في المنزل ليلةً واحدةً بهدوء واطمئنان، فكانوا يتناوبون بغير اتفاق طوال الليل ليتأكدوا من

t.me/yasmeenbook

النوافذ والأبواب، يتفحصون الشرفات، وحبل الغسيل. لقد أدرك أفراد هذا المنزل أن الأزمات تعلمك الحذر بقدر ما تنسيك ما تعلمته من فرح، وتمنحك الحكمة بقدر ما تخلقه من قلق، وتنتزع الطمأنينة بقدر ما تغرس من الشك. واستمر الحرص رغم أن أبا جميل، مدرس اللغة الانكليزية، سارع في الصباح التالي لتلك الليلة المشؤومة إلى صديقه وجاره الحداد ليصنع له باباً من الحديد مع أقفالٍ مزدوجةٍ وثلاثيةٍ يقال إنّها الأكثر إحكاماً وأماناً. وهكذا تم تأمين المنزل وتدعيم النوافذ بالحديد من جميع الاتجاهات . "بابا ! لقد أصبح منزلنا مثل القفص" قالت سلاف ممتعضةً. "وأنت أجمل عصفورة فيه" أجابها. "عصفورة وأنا في هذه السّن؟" لم يعجبها الوصف، شعرت أنه انتقاص من عقلها.

"مهما كبرتِ فستظلين سلاف الصغيرة بنظري". هكذا كانت أجوبته عن تساؤلات سلاف، سريعة وأحاديثه دائماً مقتضبة دون أن ينظر في وجهها وعينيها عندما يحادثها. ونادراً ما أكمل حديثاً، وكثيراً ما سبّب لسلاف خيبةً من مقاطعات كثيرة ثم انسحابٍ دون أن يدعها تكمل ما بدأته. هذا ما جعل سلاف تتردد كثيراً قبل أن تفتتح أيّ حديث، وشيئاً فشيئاً، تحوّل التردد إلى توقفٍ تامٍّ عن أيّ حديث مشترك. يومها كان أبو جميل خارجاً لمتابعة دروس طلابه فالحدّاد يريد ثمن الحديد وأجرة عمله بالغد، وعندما يتعلق الأمر بالمال، يتعطّل مفهوم الصديق والجار وتصبح العلاقة؛ علاقة تاجر بزبون. لذلك هرول أبو جميل إلى الدروس الخصوصية التي كانت مصدر الدخل الأساس في المنزل، فراتبه كمدرّس، هزيلٌ جداً أمام متطلبات الأسرة ومصاريف جميل، لا سيّما أن أم جميل ربّة منزل.

t.me/yasmeenbook

سمعت سلاف أباها مرة يقول في إحدى الجلسات مع الضيوف، وأغلبهم كانوا مدرّسين مثله، إنّ شاعراً ألمانياً، نسيت اسمه الصعب، قال إنّ الحياةَ فصلٌ واحدٌ. أعجبتها تلك العبارة يومها رغم أنها لم تفهمها بدقة، ولم تطلبْ الشرح لأن والدها، كعادته، على عجلة من أمره. لكن الليلة السوداء التي واجهت العائلة بعد أقل من سنتين أوضحت لسلاف معنى تلك المقولة، وأنستها حادثة اللّص الهارب الذي لم يكنْ مجرد لصٍ ولم تكن زيارته لبيت أبي جميل يومها هي الأخيرة، لكن هذه المرة ليس من نافذة المطبخ وإنما من الباب، وهذا ما كشفته ليلة العشرين من ديسمبر 2014 حيث لوّن الألمُ الزمانَ والمكانَ على نحوٍ لا يمّحي ولا ينسى. على الباب قرعٌ بعد منتصف الليل لا يبدو أنه يعلن قدوم ضيف. جميل الذي أتى من دمشق قبل أيام ليقضي عطلته الجامعية مع أسرته، اتجه نحو الباب رفع يده في إشارة منه لأبيه أنه هو من سيرى من بالباب. عاد الأب ليجلسَ، لكنّه تسمّر مكانه للأبد بلا حراك، بعد أن سمع شهقة جميل التي سبقتها رصاصة.

t.me/yasmeenbook

الـمرأة كفـء لتمارسَ أعمالَ الحـربِ
وأعمال السلمِ تماماً كالرجل...

ابن رشد

t.me/yasmeenbook

أم ماهر

حمص، شتاء 2012

"إنكِ لا تعلمين ما معنى أن ترسل أمّ أولادها إلى الموت وهي مبتسمة!" هذا ما قالته أم ماهر (يسرا) للجارة عشية التحاق ولديها ماهر وسلام بالخدمة العسكرية، الأم المحزونة التي يحيق الخطر بحياة ولديها بشكل مباشر وبباقي أسرتها بشكل ما، ما تزال ذات عزيمة وصلابة تحتاج إليها الأسرة زمن الحرب. كان لماهر حصة لا بأس بها من ذكاء والدته وصلابتها، سلام الأصغر منه بسنتين، نجحت الطبيعة في أن تخطف له كل ما هو جميل في والديه، وكذلك نجحت جهة ما في اختطافه ليبقى قلب والدته ينزف سنوات، وكلما لاحٍ أملٌ بعودة المخطوفين، وخاب، كان جرح أم ماهر يزداد عمقاً واتساعاً.

"مجنونة من ترفض شاباً مهيوباً مثل مراد"، قالت أم يسرا في محاولة نجحت منها لإقناع ابنتها بالزواج بمراد، الشاب المهندس الضابط خريج الأكاديمية العسكرية. يسرا التي تربّت في أسرة بلا أب، الأم فيها الكل بالكل، لم تساعدها الفرصة لتكمل دراستها حيث اضطرت لاعتزال حياتها الجامعية وهي طالبة في السنة الأولى في قسم اللغة الإنكليزية في جامعة البعث في مدينة حمص. صبيّة طويلة القوام، شعرها قصير كستنائي بيضاء البشرة، عيناها ضيقتان لكنهما تشعان ذكاء، جمالها متوسط لكن ثقتها بنفسها عالية جداً تزوجت

t.me/yasmeenbook

وقطنت في تلكلخ[1] عام 1987 لتنتقل بعد شهور قليلة مع أسرتها إلى حمص، وتنجب ماهر أول أولادها عام 1988، في أسرتها كانت من اللحظة الأولى العقل المدبر إذ أن الأمر لم يدم طويلاً حتى أدركت أن المهندس المهيوب يمكن أن تغلبه وتسيّره صبية درست سنة جامعية واحدة وأصغر منه بإحدى عشرة سنة. عزز دور يسرا البارز والسلطوي في أسرتها الحادث الذي أصيب فيه زوجها في السنة الثانية للحرب. الأمر الوحيد الذي تمكن زوجها من فرضه في حياتهما كلها تقريباً كان اسم ابنهما الثاني المولود عام 1990.

"سلام! لكنّه اسم بنت يا مراد!" قالت يسرا مندهشة

"ومن قال ذلك؟ هل هو قانون؟ أنت اعتدتِ فقط أنه ليس اسما للصبيان، أصلاً السلام مذكر، حين نرزق ببنت سمّها: حرب!".

"وتسخر أيضاً؟!!" أجابت يسرا.

"اسمعي! حين اخترتِ لماهر اسمه لم أعترض، ها قد انتهت حروبنا الأهلية، دعيني أستبشر بقدوم الخير والسلام للبلاد على وجه هذا الصغير الجميل!" حين قال أبو ماهر هذا، تفهمت يسرا رغبة زوجها إذ أن الجميع كان يحلم بالاستقرار، فحماه، المدينة المجاورة لحمص، أدمتها أحداث عنيفة في بداية الثمانيات، كانت حرباً أهلية من أقسى الحروب التي شهدتها المنطقة، وأبناء البلاد كانوا يتوقون للأمان والسلام.

---

(1) مدينة سورية تبعد عن مدينة حمص 45 كم، تأسست إبان الانتداب الفرنسي على سوريا، أقام فيها الانتداب بناء كبيرا يسمى السرايا مهمته الادارة الحكومية التي كان قد ألغاها الانتداب في قلعة الحصن، بناء السرايا لا يزل حتى اليوم.

t.me/yasmeenbook

أتت البنت بعد سلام بأربع سنوات، وكانت : سماح اسماً متناسباً مع سلام، وكانا حقا أخوين متفقَين ومتحابَين عكس ماهو شائع وما يحدث عادةً، بين ولدين متتالين، من شجار وعراك دائم، هذا كان من نصيب علاقة سماح بماهر. وحين غاب سلامٍ عن الأسرة كان الأمر كارثياً بالنسبة لسماح التي ظلّت تفتقده في كلّ موقف وعند كلّ عثرة. لأنّه كان صلة الوصل بينها وبين ماهر من جهة وبين والدته ووالده من جهة أخرى، فاستطاع أن يكون الشخص المحوري في الأسرة وذلك بفضل دماثته ودبلوماسيته اللتين مكنتاه من استيعاب الأطراف جميعا، حتى أن المحيطين كانوا يظنّونه الولد الأكبر. وحين غاب سلام ضاعت الحلقة الواصلة وحدث خللٌ ما في سلسلة الأسرة الحزينة، إذ لم يتمكن ماهر من سدّ الفراغ الذي خلّفه غياب سلام. نمت الأسرة المكوّنة من ماهر وسلام وسماح التي كانت في السابعة عشرة عندما اندلعت الاضطرابات في سوريا عام 2011، فتفتّح شبابها على الحرب والموت بدلاً من الحياة والحبّ. وعلى الرغم من أنّ الظروف لم تكن مستقرة أبداً في حمص وجميع صديقات سماح لم يتابعن دراستهن بانتظار أن تهدأ الاضطرابات ويعود الأمان إلى المدينة، ولو نسبياً، إلا أن يسرا أصرت أن تتابع سماح تعليمها " هل يورِّث النحس؟!لا أريد أن يحصل لسماح ما حصل لي، لا أريدها أن تخسر تعليمها، حتى وإن كانت الحرب أقسى الأقدار".

وهكذا سجّلتها كطالبة ثانوية حرة وقامت بتدريسها في المنزل كل منهاج الثالث الثانوي الأدبي (البكالوريا) بمساعدة جارتهم، حياة الحاصلة على الماجستير في اللغة العربية التي أخذت على عاتقها تدريس سماح دون مقابل، "الرجال يقاتلون على الجبهات يا خالة أم ماهر، امنحيني فرصة لأقاتل هنا، وأرعى بنتاً ستكون بالغد إحدى

t.me/yasmeenbook

نسائه المتميزات، كأمها طبعاً"، هذا ما كانت تقوله حياة دائماً في كل مرة تحدثها فيها أم ماهر عن أجر الدروس.

قبل الامتحان بأيام، أرسلتها أم ماهر إلى بيت أخيها القاطن في العاصمة دمشق لتتقدم بالامتحان ولمتابعة دراستها الثانوية إن ظلت الأحوال أمنيا مضطربة.. "ليتني أستطيع أن أترك أباكِ ليوم واحد فقط لمرافقتكِ إلى دمشق، أعلم أن ذهابكِ وحدكِ في هذه الظروف بالذات أمرٌ خطرٌ يا سماح، لكنك تعلمين أنه ليس بإمكاني فعل غير ذلك" قالت أم ماهر.

في شباط 2012 أي بعد بدء الاضطرابات بسنة تقريبا، اختارت بضع رصاصات أن تستقر في ظهر أبي ماهر. الشلل النصفي كان نتيجة أذية النخاع الشوكي إثر إصابته البالغة، لم يتمكن أبو ماهر بعدها من تحريك ساقيه. "لحسن الحظ أن العم ما يزال قادراً على الكلام بوضوح وتحريك طرفيه العلويين بشكل جيّد، قضاء أخف من قضاء" قال الطبيب يومها. ورغم أنّ إصابته كانت مصيبةً كبيرةً للأسرة لكن غياب سلام ضاعف المصيبة وجعلها مصيبتين!.

حين اعتذرت أم ماهر عن مرافقة ابنتها في الطريق إلى دمشق، شعرت سماح حينها أن عليها أن تعدو خارج الزمن لتكبر وتنضج بسرعة كي تكون قادرة على مواجهة ما ينتظرها. "أريدك ليس فقط أن تعتمدي على نفسك بل أن تكوني أخت الرجال، وعندها ستكونين قادرة على مواجهة كل شيء".

في الطريق وقبل الوصول إلى المحطة، لاحظت أم ماهر التوتر الكبير الذي بدا على ملامح سماح، فاقترحت أن تتمشيا معاً، فمازال هناك متسعٌ من الوقت قبل انطلاق الرحلة إلى دمشق "ماما! فلنتمشَ إذاً حتى ساحة الساعة" قالت سماح. امتثلت الأم لرغبة سماح فهي تعلم كم

t.me/yasmeenbook

تحبّ ابنتها ساعة حمص الشهيرة التي توسّطت ساحة المدينة القديمة بأحجارها الكلسيّة البيضاء ورخامها الأسود وقبتها المربعة ذات الأقواس الأربعة وكل قبة فيها عبارة عن باب، وفي منتصف الأقواس توجد أقراص الساعة وعددها أربعة تعمل بتوقيت واحد، وطول عقاربها يقارب المتر، مُنارة من الداخل بمصابيح مخفية خلف الأرقام، تشع باتجاه الداخل، فكان منظرها أخّاذاً عند المساء.

مشتا معاً رغم أن الجوّ الأمني لم يكن بمستوى الجوّ الربيعيّ المنعش في نسائمه، لكن بعد اشتباكاتٍ داميةٍ بين الجيش الرسميّ للبلاد والجيش الحرّ في حمص، هدأت وتيرةَ القتال في منتصف شهر شباط من العام 2012، الفترة التي استغلتها العائلة للانتقال إلى حي الوعر، وكذلك لتسافر سماح إلى دمشق لتعود الاشتباكات في 22 شباط. على الطريق كانت سماح ووالدتها تتأملان بألم الأبنية الممتدة على طول الشارعِ المؤدي إلى الساحة، القذائف والصواريخ دمّرت بعض الأبنية كلياً فاستحالت ركاماً، أبنيةٌ أخرى أصابها سواد فاحم في الأجزاء العلوية منها، فبدت وكأنها رتلٌ من النساء غطّت رؤوسهن مناديل سوداء في موكبٍ للتشييع. أطالت سماح النظر في أحد الأبنية الذي أصابه تدمير فلم يسقطْ كلياً، وإنما كان محنياً من المنتصف دون أن يسقط، فبدا وكأنه أم المتوفّى وقد قصمت المصيبة ظهرها، إلا أنّها حافظت على بعض تماسكها. تباطأت خطوات سماح فأمسكت أمها بيدها تستعجلها، وصلتا الساحة، نظرت سماح بحزن إلى الساعة، يد التخريب التي لا تبقي في الحروب ولا تذر طالت ساعة حمص المحببة إلى قلب سماح. كانت قد فقدت الكثير من جمالها، وتهدمت أجزاء من قواعدها وغطّى دخان الحرائق أجزاءها البيضاء ملونة إيّاها بالرمادي ورخامها الأسود فقد بريقه تماماً، لكن

t.me/yasmeenbook

الساعة لم تفقدْ شموخها في ساحة المدينة القديمة، فبدت كأبطال المعارك الذين ظلوا صامدين رافضين الانهزام رغم الدمار والتدمير. "أتعلمين يا سماح أن هذه الساعة شيّدت عام 1958، وقد سمعت أن مشروع إصلاحها وترميمها وشيك، لا تحزني سيعود كل شيء كما كان يا بنتي".

"لقد أخبرني سلام مرةً في إحدى نزهاتنا هنا، أن جمال عبد الناصر زار حمص زمن الوحدة عام 1960 ووقف في هذه الساحة وأعجب بساعة حمص، أتمنى أن تعود جميلة وأن تعمل من جديد"، قالت سماح بحزن.

بعد صمت لثوان قالت الأم:

"يا عيني يا عيني، أولادي شاطرون ويعرفون كل شيء، هذه معلومة جديدة شكراً لكِ يا أحلى مثقفة في العالم! هيا بنا نتجه نحو المحطة كي لا يسرقنا الوقت!" أمسكتْ بيد سماح ومشتْ.

حين قالت الأم: "كي لا يسرقنا الوقت"، التفتت سماح نحو الساعة وحدقت في عقاربها. كانت تتمنى لو أن بإمكانها تغيير الوقت، لو أن بمقدورها الصعود إلى الساعة وإعادة عقاربها إلى الوراء أكثر من سنة، إلى ما قبل الحرب، إلى ما قبل ربيع 2011، "ليت الوقت يسرقنا إلى الوراء يا ماما، حين كان السلام يعمّ البلاد دون أن نراه، وحين كان سلام بيننا".

"لا قلق يا حبيبتي لا قلق! سيعود كل شيء إلى سابق عهده صدقيني، المهم أنتِ الآن ومستقبلك، هيا!" كانت تلك المرة الأولى التي تنجح فيها أم ماهر في قمع دمعها إذا ما أتى أحدهم على ذكر سلام، مشت، وفي يدها يد سماح الغضة كما أحلامها، وفي حنجرتها غصة سوداء

t.me/yasmeenbook

كلون الحرب، لو عاد الزمن لعاد سلام، ولعـاد الأمـن ولعـاد أبـو مـاهر سليماً دون شلل، ولعاد ماهر من الخطر، ولـو عـاد الـزمن، لمـا كانـت مضطرة الآن لأن تودّع ابنتها الوحيدة لتكمل دراستها بعيداً عنـها. أزاحـت أم ماهر هذه ال "لو" واستمرت في حديث الغد والقـادم، فسـماح وراحـة نفسها وتفاؤلها من أولويّات أم ماهر اليوم.

حاولت سماح بدورها، رغم القلق والاضـطراب، أن تكـون عنـد حسن ظن أمها لتثبت لها أنها نضجت وأنها على قدر المسؤولية. لكـن هذا لم يوقف ما يعصف بداخلها، كانت تفتقد سلام كثيراً، وتمنت لو كان بجانبها في لحظات كهذه، وكان ينتابها الخوف كلما تـذكرت مـا رواه الجيران عن الحافلات التي تختطفهـا جماعـات إرهابيـة، فيُـذبح الرجال ويُختطف آخـرون للمبادلـة، أمـا البنـات والنسـاء، فيؤخـذن سـبايا. كانـت تسـمع أنهـنَّ يُغتصـبنَ، وبعضـهن تعملـن خادمـات، وأخريات أُجبرن على ممارسة البغاء كعمـل دائـم لهـنّ يجـني أرباحـه هؤلاء الذين شغلوهنّ.

في السـابعة عشـرة، لم تكـن سمـاح، القطـة المغمضـة، كمـا تسميها نساء الحي، بقادرة على أن تتصور الجنس بحبّ فكيف لهـا أن تتخيل الاغتصاب؟! وكانت تتساءل كيـف يمكـن أن يـتم ذلـك أصلا! وكيف لرجلٍ أن يجبر امـرأةً علـى ممارسـة الجـنس! كيـف يقدم شخص على هذا الفعل الشنيع! كم سخرت منها ابنة الجـيران سلاف الـتي تكبرهـا بسـبع سـنوات، وربمـا بعشـرين سـنة عقليـة ونفسية، "هل تعلمين يا سماح أنّ كلِ فتاة وكل امرأة في سوريا يمكـن أن يختارها قدر الحرب لتكون فريسةً بأيدي هؤلاء، جاريـة، خادمـة، أو زوجة أحد أمراء النصرة! ما رأيك؟! قد تصـبحين أمـيرة مـثلاً!" قالت سلاف ضاحكةً.

t.me/yasmeenbook

"سأترجّاه ألا يفعل ذلك بي، وسأشرح له أن الله سيعاقبه لأن هذا عيب وحرام!" ردّت سماح ببراءة.

"ها ها ها، نعم برافو، وعندما تشرحين له ذلك سيقتنع فورا بكلامك، وسيعلن استسلامه ويندم على أفعاله ويستغفر ربّه!، يا إلهي كم أنت مسكينة، مسكينة وساذجة يا سماح" ردت سلاف بسخرية

رغم امتعاض أم ماهر من صداقة البنتين المتناقضتين سلاف وسماح إلا أن ظروف الحرب وبُعد رفيقات سماح في المدرسة عنها جعلا القرب الجغرافي سبباً لصداقتهما، فهي الجارة المتاحة والممكنة للقاءات وبعض ثرثرة البنات التي لا تنتهي.

بينما سماح ووالدتها تنتظران الباص الذي سيسافر بها إلى دمشق، كانت الأم تسترق النظرات إلى وجه ابنتها، وكلما رأتها مضطربة الملامح شاردة سألتها: "سماح! ماذا اتفقنا؟".

"سأكون أخت الرجال يا ماما، أخت الرجال، أعدكِ!" تقول ذلك محاولةً إخفاء الاضطراب الذي لم يكن خفياً على والدتها. ابتسامتان رسمتا الوداع، الأولى قلقة، بينما امتلأت الأخرى بالتشجيع.

عادت أم سماح إلى البيت، فتحت الباب بهدوء كي لا توقظ زوجها، جلست على طرف السرير واضعةً حقيبة يدها بقربها، أسندت كوعيها إلى الركبتين مغطيةً وجهها لدقيقة ثم مدت يدها لتخرج محفظتها الجلدية الصغيرة من الحقيبة، وبدأت تنظر في صور أولادها ماهر، سلام، وسماح وتقلّب الصور مرات "يا كبدي، يا روحي، بيتي فارغ وقلبي ينزف" ..لم تستطع أن تقاوم نوبة بكاء حزين، شيء ما جعلها تكفكف دموعها بسرعة، كان ذلك صوت

t.me/yasmeenbook

عجلات كرسي أبي ماهر تقترب. نظرت باتجاه الباب. "لم يكن ذلك قراراً جيداً، حرام عليكِ تتركينها تسافر وحدها، ما تزال صغيرة يا يسرا، سماح صغيرة"، قال أبو ماهر وهو يدمع. لأيام عديدة مضت بل لشهور، حاول أبو ماهر منع سفر سماح لامتحان الثانوية في دمشق خوفا عليها من الطرق غير الآمنة واحتمال تعرض سماح لمكروه. كانت أم ماهر مصرة على أن تأخذ سماحِ فرصتها ولا تتأخر في الحصول على شهادتها مادام الأمر ممكناً بوجود بيت خالها في دمشق. الهدنة التي أعلنت بين الجيش وجبهة النصرة لوقف إطلاق النار لأيام، طمأنت أهلها، على الأقل ليومين قبل أن تُختَرق الهدنة.

وصلت الحافلة التي تقلّ سماح إلى دمشق عصراً، أخذت سماح تحدق في مدخل المدينة بعد أن تجاوزت الحافلة حرستا وصارت في منطقة العدوي أول دمشق، بدت سماح وكأنها طفل وقعت يداه على لعبة جديدة يراها للمرة الأولى فيريد أن يكشف كل أسرارها بلحظة واحدة، كانت تنقّل نظرها من شباك الحافلة اليمين إلى اليسار وتعود فتمد عنقها إلى الأمام كي ترى شيئاً عبر الزجاج الأمامي، ثم تلتفت إلى الخلف وكأنها تريد أن ترى كل شيء بآنٍ معاً، راحت تتأمل في أشجار السرو التي امتدت على يمين الطريق الداخل إلى المدينة، وبينما كانت مولعةً في الصغر بعدّ الأشجار حتى تتعب وتنام على طرقات السفر، كانت اليوم في حالة من اليقظةِ الشديدة، تركز في الأشياء من حولها، بدت لها الأشجار كصبايا طويلات نحيلات اصطففن إلى جانب بعضهن بعضاً، ليشاركنّ في رقصة جماعية في عرس بهيّ عريسه قاسيون الذي اتخذ مكانه بكل عظمة وكبرياء إلى جانبه عروسه، الشمس التي طغت بنورها على الصبايا جميعهن مما أثار غيرتهنّ، أعمدة الإنارة الفخمة في المنصّف بين طريقي الذهاب

t.me/yasmeenbook

والإياب بدت زينة العرس الذي شاركت فيه غيوم العصر الربيعي البهيّة...

تسمّرت عينا سماح في قاسيون وهي تردد:

من قاسيون أطلّ يا وطني فأرى دمشق تعانق السحبَ

القصيدة التي لطالما أحبتها للشاعر السوري خليل الخوري..

شعرت بألم في رقبتها لكثرة ما التفت يمنةً نحو قاسيون الشامخ، فاستدارت لتتأمل الأبنية الشاهقة ذات الواجهات الزجاجية اللامعة والشرفات الواسعة على يسار الطريق، الحدائق الكبيرة، الازدحام والضجيج كان كل ذلك أكثر مما اعتادت عليه في حمص. اللهجة الشامية التي تحبّها كان لها وقع جميل على مسمعها، كل شيء تراه كان يقول: هنا العاصمة، هنا دمشق...

"أين المدينة القديمة يا عم؟ أين الجامع الأموي؟!" سألت سماح السائق بصوت عالٍ.

t.me/yasmeenbook

فقط حين أحببت، اكتشفت ذلك السلم السرّي الذي يصعد عليه الفرح من قلبي إلى السماء...

غادة السمّان

t.me/yasmeenbook

سهر

حمص خريف 2012

"هل ستكون عيناك واسعتين كعيني والدك يا صغيري؟!" همست سهر وكفها اليمنى نائمة على بطنها الذي بدأ حجمه يكبر، وبدأت تشعر بحركة ما بداخله، راحت تتمعن في صورة أحمد. أصابها شرود للحظات وهي جالسة على كرسيها الهزاز وبجانبها كوب الشاي الأخضر الذي تقسو عليه كعادتها بالنسيان، فيستجيب بالبرود تدريجيا.

"ترى هل أنت بخير يا أحمد؟ لمَ تضلّ أخبارك طريقها إلينا؟" استسلمت مجددا لشرودها.

"أتحبينه؟" كان سؤال أختها الكبرى حياة حين تقدم أحمد لخطبتها ووافقت سهر فوراً ولم تناقش الأمر أبداً. لم تكن تعلم سهر حينها ماذا عساه يكون الجواب. وهل هي تحبّه حقاً أم تكرهه؟. هي في الواقع لا تحبه ولا تكرهه. ولم تكن تعرفه مسبقاً أبدا، ولم تكن أصلاً تعرف ما هو الحب. كل ما في الأمر أنّه تقدّم لخطبتها فوافق أهلها ووافقت. في إحد الصباحات، وبينما أمه تحضِّر له الفطور، دخل غرفة أخته الأصغر منه سناً ليطمئن عن أحوالها وامتحاناتها، بدأت تشكو هذه الأيام البخيلة بالفرح الفقيرة جداً بالنزهات، وبينما هي مسترسلة بالحديث عن يومياتها مقارنةً إيّاها بنشاطات ورحلات ما قبل الحرب، كان أحمد مثبتاً نظره في صورة وضعتها أخته في إطار خشبي على طاولتها، جمعت الصورة بين أخته وفتاة أخرى لا يعرفها أحمد.

t.me/yasmeenbook

وبينما هي تتحدث عن رحلاتهم القديمة إلى قلعة الحصن التي تبعد عن المدينة حمص 60 كم ورحلاتهم إلى الساحل والجبل وإلى غابات الفرلّق الوارفة الكثيفة، وإلى قلعة صلاح الدين، انتبهت أنّ أخاها قد أخذه الشرود وبدا أنّه لم يسمع حرفاً واحداً مما قالت: "من هذه الصبيّة التي تقف إلى جانبك في الصورة؟" سألها أحمد. "إنها قريبة صديقتي، فتاة لطيفة جداً تدعى سهر أتت يومها لتشاركنا الرحلات، لِمَ السؤال؟" ردت..

"لا شيء مطلقاً، سؤال، مجرد سؤال" قال أحمد وقد دخلت أمّه الغرفة تخبرهما أن الفطور جاهزٌ بعد أن سمعت سؤاله عن الفتاة التي في الصورة، ابتسمت لابنتها بسعادة، ردت البنت بابتسامة للأم بعد نظرة مسروقة لعيني أحمد الغارقتين في الصورة.

أما سهر فهي فتاة بسيطة تقليدية حتى النخاع، وما تتداوله النساء في المجالس عن الحب والزواج والرجال وعلاقة الزوجين وواجبات الزوجة تجاه زوجها وبيتها وأطفالها، كل ذلك كان يعتبر بالنسبة لسهر دستوراً لا يناقش ولا ينتقد، أما كلمات أمها ونصائحها فهي كلام مُنْزَل.

يومها كانت سهر كالزهرة اليانعة، كالفراشة. دخلت أمها غرفتها وجدتها واقفة أمام المرآة بقامتها المتوسطة وجسدها الممتلئ وشعرها الكستنائي المنسدل على كتفيها برقة وأناقة غير مبالغ بها. أخذت أمها تتأملها بابتسامة يشوبها حزن، وجهها بيضاوي وبشرتها بيضاء ملساء، لها عينان بنيّتان غير واسعتين لكنهما مرفوعتا النهاية مع أهداب طويلة تمنحهما نظرة أخّاذة. بدأت سهر ترسم كحل عينيها تقترب من المرآة ثم تبتعد تدير وجهها قليلا إلى اليمين ثم إلى اليسار وبعد أن تطمئن على تناظر زينتها تبتعد إلى الخلف ثم تبتسم لمرآتها، كانت قد زنّرتْ خصرها الرهيف على نحو أظهر ردفيها أكثر وأضفى عليها المزيد من

t.me/yasmeenbook

الأنوثة. فستانها سماوي فاتح اللون ذو تنورة واسعة، اختارته والدتها لا يصف ولا يفضح. يصل إلى ما تحت ركبتيها ليطلَّ على حذاءٍ أنيق. " كيف سأتمكن من المشي أمام العريس بهذا الكعب العالي، أَخٍ تباً، إنه غير مريح أبداً" قالت سهر.

"لا بأس، تحملي ذلك اليوم فقط، فلا يمكن أن يرافق هكذا فستان حذاء رياضي مثلا، وفي يوم كهذا"، قالت أختها حياة غامزةً.

زينت الزهور بيت أهل أحمد، باقات من القرنفل والزنبق الملون على الطاولة أمام العريسين سهر وأحمد في حفل زفاف بسيط متواضع حضره الأهل والمقربون فقط، "يليق بك أكبر حفل زفاف وأجمل فستان وطرحة يا حبيبتي، لكنك تعلمين الظروف، فقدنا العديد من الشهداء خلال سني الحرب، المدينة وريفها تشيع كل يوم شهيدا، لا يمكننا تجاهل المكروبين" قالت أم أحمد.

"لا عليك يا خالة، زوج أختي حياة أيضا لم يمضِ على وفاته إلا بضعة شهور" ردت سهر.

أمسك أحمد يدها وأعلنها زوجة ناقلا خاتمها من بنصرها الأيمن إلى الأيسر. لم يكن بإمكان أحمد في تلك اللحظة الفرح بل لم يكن بإمكانه أن يحدد ما الذي يشعر به بالضبط. هل هو فرحٌ أم حزنٌ أم عبء أم مسؤولية أم ماذا! كان كلما جلس مع سهر في أثناء فترة الخطبة، التي لم تدم إلا شهوراً قليلة، يخبرها عن الحرب وعن ويلات ما يشهد هو ورفاقه. كانت سهر تستمع ولا تتكلم كثيراً، وحين يروي لها ما يحدث من ذبح وقتل واغتصاب وتقطيع أوصال، كانت تتألم وتترجاه ألا يكمل. لطالما تعجَّب كيف استطاع أن يتخذ قراراً بالارتباط والزواج وتكوين أسرة وهو يحمل روحه على كفه متجهاً نحو المجهول. وكان يقتله الذنب إزاء سهر ويتساءل: "ما ذنب هذه الفتاة الجميلة الرقيقة المسالمة

t.me/yasmeenbook

أن تتزوج برجل مثلي؟! فالاحتمال كبير أن تعيش أرملةً مسكينةً؟. ومرة قال لها: "أرجوك يا سهر إن ندمتِ على قبول الخطبة، يمكنك أن تتراجعي متى شئتِ، وصدقيني سأتفهم الأمر"، في البداية لم تكن سهر تفهم ما يقصده، أحياناً كانت تعتقد أنه يقول ذلك لأنه لا يحبها، لكن بعد أن عرفت أحمد جيداً علمت أن قلقه على القادم هو ما يستبد به.

مؤمنةٌ تماماً بما قالته أمها عن النصيب والقدر، كانت ترى أن أحمد هو نصيبها من الحياة، وهكذا كان قرار زواجها بأحمد من أسهل القرارات التي اتخذتها في حياتها. قالت أمها ذات يوم: "لا يكفي الفتاة أن تقدم على الزواج من شاب لأنها تحبه ويحبها، وما الذي أدراها أنه يحبها؟ لم يعيشا بعد مع بعضهما بعضاً، ولم تختبر اهتمامه وحسن معاملته معها. المرأة يا بنتي لا تحب من فراغ، إنها تحب الرجل الذي يحسنُ معاملتها".

"والرجل يا أمي متى يحب؟" سألت سهر، "يحبك عندما تنجبين له أطفالا ذكوراً، كلما حملهم بين يديه مرة، أحبّكِ ألف مرة".

قطعت شرودها بالغناء ويدها تتحسس جنينها عبر جدار بطنها :

هالأسمر اللون.

هالأسمراني..

تعبان يا قلب خيو..

هواك رماني..

يا بو عيون وساع...

حطيت بقلبي اوجاع..

لم تستطع أن تكمل الغناء، اختنقت بالدموع، وبدأ الدمع يرسم على خديها الأسيلين دروباً من الصعب أن تمحوها المناديل.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الحرب امتداد للسياسة ولكن بطريقة أخرى...

كارل فون كلاوزفيتز

t.me/yasmeenbook

جـوان[1]

ريف دمشق، ربيع 2013

يحمل الباغلمة[2] التي صنعها بيديـه، "مـاذا تـودّون أن تسـمعوا؟" سأل جوان..

"والله سكوتك أنت وآلتك الغبية أحسن شيء" أجاب آكري[3] . قهقـه البعض. هزّ جوان رأسه مبتسما وحكّ بيده أسفل ذقنه. جوان وآكـري مـن مدينة القامشلي الواقعة شمال سوريا. هما مـن البلـدة نفسـها في قامشـلو. إنها بلدة (تل تمر) كما يسميها العرب، وكري خورما كما يسميها الكـرد. آكري مختلف جداً عن جوان فهو شخص انفعـالي متقلّـب المـزاج سـيئ الطباع. "فعلاً لك من اسمك نصيب يا آكري يـا نـيراني"... كـان هـذا مـا يقوله له جوان عند كل خلاف بينهما. أما جوان فشخصٌ دمـثٌ يميـل إلى الابتسام. كان فناناً حقيقياً يتقن العـزف علـى الآلات الوتريـة: "أن أنقطـع عن العزف يعني أن أختنق" قال لصـديقه آكـري أول أيامهمـا في الخدمـة العسـكرية في ظـل الحـرب، مـا دفعـه إلى صـنع آلـةٍ وتريـةٍ تشـبه آلتـه الباغلمة، تصدر صوتا لا بأس به، بل جميلاً، فرح بها كـثيراً هـو ورفاقـه فكانت المؤنس الوحيد لهم في ليالٍ بخيلة إلا بالألم.

---

(1) جوان اسم كردي للذكور ويعني الشاب اليافع.

(2) الباغلمة: آلة موسيقية وترية تشبه البزق ذات ذراع طويل وأوتار ستة ويمكن إضافة وتر سابع لها، صوتها عذب ومعظم الشباب الكرد يعرفون العزف عليها.

(3) آكري اسم كردي للذكور ويعني النار.

t.me/yasmeenbook

خرج جوان من الثكنة ليتنشق بعض الهواء الربيعي النقي، سحرته خضرة المكان وكأنّه لم يرَ مثيلها من قبل، إنها الأيّام الأولى لهم في الغوطة الشرقية، تفرّس في كثافة الشجر على مد النظر. "إنّها غوطة دمشق التي تحيط بالمدينة من ثلاث جهات الشرق والغرب والجنوب، الغوطة التي تغنى بها الشعراء والأدباء" تمتم. راح يحدّق في البساتين الغنّاء. "هل تعلم أنها تعد من أخصب بقاع العالم؟" كان ذلك صوت ماهر وقد خرج دون أن يشعر به جوان المأخوذ بجمال المنظر، أردف ماهر: "الغوطة هي الكورة التي قصبتها دمشق، كثيرة المياه، نضرة الأشجار، متجاوبة الأطيار، مونقة الأزهار، ملتفة الأغصان، خضرة الجنان، استدارتها ثمانية عشر ميلا كلها بساتين وقصور تحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها ومياه خارجة من تلك الجبال، وتمتد في الغوطة عدة أنهار، وهي أنزه بقاع الأرض وأحسنها..أتعلم يا ماهر! حين قرأت ذلك عن الغوطة في كتاب عجائب البلدان، وكنت حينها في قامشلو، ظننت أن الأدباء قد غالوا في وصفها وإذ بي أكتشف الآن أنهم لم ينصفوها، ولن يفعلوا وإن حاولوا، فاللغة قاصرة جداً أمام هذي الجنان التي أرى، لا غرابة أن تتكالب الأيدي على بلادنا" قال جوان بغصة.

"هي جنة الله على الأرض بلا شك، أخبرني! ألم تذكرك ببلدتك والنهر والخضرة، ألا تفكّر في رسمها كما رسمت بلدتك؟ سأل ماهر متوقعا ذلك من جوان الذي درس الهندسة المعمارية والذي كانت موهبته في الرسم تفصح عن نفسها حتى في هذا المكان الهزيل الكئيب وفي أيام كالحة السواد. فعلى الجدار المجاور لسريره، رسم جوان نهر الخابور مستلقياً على ظهره يحتضن أرضاً زراعيةً بكامل خضرتها وخصبها كرجل ضمّ إلى صدره أنثاه بعد ممارسة الحب. وبدت في

t.me/yasmeenbook

الرسم حقول القمح كشعر الصبايا منثورة، وبيوت تزين الطريق المحاذي للنهر، تتألف من طابق أو طابقين على الأكثر. "أفهمني كيف رسمتها؟! معك أدوات؟!" سأله مرة أحمد متعجباً ومعجباً.

"ليس معي يا صديقي إلا هذا القلم" أجاب جوان مخرجاً من جيب بنطاله قلماً.

كان ذلك قلم كحل حبيبته هيف، أهدته إياه في آخر لقاء بينهما وكأنما تريد أن تخبره ألا كحل يلزمها مادامت عيناها لا تبصران جوان. عندها أخرج جوان من جيبه ورقة ما وعلى ظهر الورقة رسم لها بقلم الكحل شمساً أشعتها واضحة وأخبرها أن الليل لن يطول وأنه عائدٌ وأن بلاد الشمس لا تنهزم. تناولت هيف الورقة منه وتمعنت فيها طويلا . نظر جوان في عينيها الحزينتين، وحين أدرك أنّها على وشك البكاء، سارع مازحاً : "يا ويلي لقد رسمت بقلم الكحل، كله إلا زينة الصبايا خط أحمر، آسف آسف أعتذر هيفو" ابتسمت له هيف والدمعة تملأ مقلتيها فهي تعرف ممازحته لحظات الحزن، وهو يعلم أنها تعشق ما يرسم بقدر ما يعشق عينيها المرسومتين ببهاء.

رغم قسوة ظروف الحرب وانعدام وسائل النظافة والعناية، بدا جوان ذو السبعة وعشرين عاما خريج كلية الهندسة المعمارية، حسن المظهر، راداً شعره الأسود كظلمة تلك الأيام إلى الخلف لتكشف عن جبين عريض وضّاء كأمل يتوق إليه كل من عانى ويلات الحرب، يرتدي بنطال بدلته العسكرية وتيشرت قطنية، من ياقتها المفتوحة أطلّت أشعار صدره كسجين مدّ عنقه من نافذة زنزانة .

"وتسرّح شعرك أيضاً؟ يا حبيبي هنا لا توجد صبايا أنت في ثكنة عسكرية " قال آكري

t.me/yasmeenbook

"ايييه ياما ذابت صبايا القامشلي من أناقتي وتسريحتي" غمز جوان ضاحكاً ماشياً في الغرفة الواسعة بعض الشيء. كانت تحتوي ستة أسرة، ثلاثة على اليمين وثلاثة على اليسار وكلّها بطابقين. على طرف أحد هذه الأسرة سجادة صلاة مطوية على شكل مربع، وبجانبها مصحف مسندة على طرفه مسبحة حباتها سوداء. في الوسط على الأرض مُدَّ بساط هزيل لم تترك الأوساخ والغبار أي إمكانية لمعرفة الألوان الأصلية له. أطرافه مهترئة، حبل معلق على أطراف الأسرّة، مرتخٍ كمسنٍّ أثقلته الهموم فانحنى يكاد يلامس الأرض، على الحبل عُلِّقت ملابس يفترض أنها قد غُسلت.

"يا جماعة هذا هو السلاح الكيماوي بذاته، بشرفي لو دخلت عناصر من جبهة النصرة إلى هنا لولّت هاربة، اففففف رائحة هذه الجوارب على الحبل قاتلة، معقول هذه مغسولة، " قال جوان

"عندما تذهب في إجازة إلى كري خورما، احضر لنا معك برسيل للغسيل" قال أحمد

"أكيد! ولن أنسى معطر الملابس" رد جوان وضحكا معاً.

كان ماهر صامتاً لا يحادث أحدا، جالساً على سريره مشغولاً بكتاب صغير بيده أو متظاهراً أنه كذلك. كان يجد في تظاهره بالانشغال فرصةً جيدةً للتهرب من نقاشات رفاقه العقيمة في الغالب والتي تؤدي في كثير من الأحيان إلى خلافات تتحول إلى صراع، وكما السيل يبدأ بقطرة ثم سرعان ما يجرف كل ما أمامه كذلك كانت نقاشاتهم تبدأ بكلمة ينتج عنها سوء فهم ثم تجرف العقل والمنطق معاً ويبدأ الصراع. ومن كان بينهم يتمتع بالهدوء والرويّة، يأخذ على عاتقه مهمة المصالحة والتهدئة. لذلك كان ماهر يتجنب الدخول بتلك النقاشات، إلا المستفزة جداً منها.

"هل صديقنا ماهر انطوائيّ أم عاشق؟!" همس جوان لأحمد.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

والذي سمّي أو صار الوطن، ليس إلا زمناً يطفو
على وجه الزّمن...

أدونيس

t.me/yasmeenbook

آكـري

ريف دمشق، صيف 2013

ضجت الثكنة أمسِ بصراع أفكارهم، كان الدم يجري دون أن ينزف أحد منهم قطرة، الجروح القديمة تجددت ولا ضمادات ولا ضمانات لجنون الحرب. أحد العائدين من إجازتهم، لم يحضر معه فقط الفطائر والمربيات التي جهزتها والدته، وإنما أحضر خبراً لم يسمعه آخرون داخل الثكنة.

"ولم لا يقسمون سوريا ويريحوننا ؟ لم لا يعيش كلٌ حيث يريد، مع الذين يريدهم، وبالأفكار والقناعات التي يريدها؟" قال آكري على خلفية تناقل شائعات حول نية التقسيم، ستتبلور أكثر كدعوة صريحة بعد سنتين.

"هراء! سوريا لا يمكن أن تُقسَم" قال جوان.

صادق البعض على رأيه، صمت آخرون امتعاضاً، ونظرات ذات معانٍ كانت تجوب المكان وكأنما تجسّ نبض الجميع لمعرفة فيما إذا كانت ستجرؤ على النطق أم لا. كانت الثكنة أو أية قطعة عسكرية أو أية فصيلة تشبه سوريا تماماً. فيها من التنوّع ما فيها من الاختلاف والخلاف، وفيها من الصراع بقدر ما فيها من التوافق والوفاق. وعلى الرغم مما فيها من تنوعات دينية ومذهبية وطائفية وعرقية وعشائرية، إلا أن الكل قد توحّد اليوم، وبفعل الحرب تبدّل مفهوم الانتماء تحت عنوان عريض هو النجاة. وكما أنه لم يكن من السهل على أيّ فرد

t.me/yasmeenbook

سوريّ أن يتقبل تكرار تجربة عمرها مئة سنة، كذلك كان ليس من المستبعد أن تقوم الدول القوية بإطلاق صوت الفكرة وانتظار رجع الصدى. فقبل حوالي قرن من الزمان 1916 كانت هناك لعنة اسمها (سايكس- بيكو) أبطالها فرنسا وبريطانيا، قسمت سوريا إلى دويلات خمس. ثورات عمّت أرجاء البلاد من الساحل إلى الداخل فالشمال، وأعيدت إلى سوريا وحدتها.

"لم لا؟ إن كان التقسيم سيوقف هذا الصراع ويجنّب الجميع الدّم والخراب! فلمَ لا؟!" قال آكري ببرود مستفز.

منذ فترة ليست بالقليلة كان كل هم آكري أن يعارض جوان بالرأي كي يثبت لنفسه قبل أن يثبت لجوان أنه غير متأثر به وغير "متقمّص" له، على حد تعبير إحدى الصبايا في الجامعة. كانت عبارتها تلك عود الثقاب الذي ألقي في قش آكري فأشعله غضبا وغيظاً. منذ ذلك الحين وآكري يحاول أن يعارض جوان في كل ما يقوله. وهذا بدوره جعل جوان لا يأخذ أيّاً من آراء آكري، في أية قضية على محمل الجد، لأنه يعلم أن الدافع فقط مخالفة رأي جوان فيظهر، كما يعتقد، بمظهر العارف. كان آكري مستعداً لتغيير رأيه لو أن جوان وافق فكرة تقسيم البلاد إلى مقاطعات أو دويلات. فالمهم أ ن يكون هو وجوان على طرفي نقيض في الرأي .

بعد أن قال آكري كلماته، كانا ينظران إلى بعضهما البعض، جوان وآكري ويتحادثان بلا حديث ويتصارعان دون أن ينطقا بحرف واحد. كان جوان مثبتاً عينيه بقوة وثقة في عيني آكري اللتين تحاولان الهروب بالانشغال مرة بإشعال سيجارة ومرة بصب الشاي ومرة ثالثة بالنظر من النافذة إلى اللاشيء، بينما قدّمت حركات يديه وهز ساقه دليلا مهماً أنه مرتبكٌ أمام أحد ما من الحضور له تأثير قوي عليه. لم

t.me/yasmeenbook

يزدْ عمر جوان عن آكري إلا شهرين لكنهما كانا كافيين ليكـون جـوان هو المستوعب والممتص لحماقات آكري وتقلبات مزاجه وانهزامـه في لحظات يجدر به الثبات عندها لا التراجع .

استمر جـوان بـالنظر إلى آكـري صـامتاً وهـو يفكـر كـم مـن الأشخاص لا هويّة واضحة لأفكارهم ولا لون لمـواقفهم ولا ثبـات لرأيهم، هم زئبقيّون هلاميّون، كما يكون الإناء الذي يصبّون فيـه، يكونون. البعض يصادقون تمامـاً علـى أي رأي، لأنهـم لا يفقهـون من الأمر شيئاً، وليس لـديهم أصـلاً أيّ جديـدٍ ليضـيفوه، فتـراهم يهزّون برأسهم معلنين الموافقة علـى كـل مـا يقـال. وهـؤلاء علـى سخافتهم إلا أنهم أفضل بكثير من الصنف الآخر الذي يضع العصي في العجلات ويعـارض كـل فكـرة ويعتـرض علـى كـل مـا يسـمع ويخالف كل الآراء المطروحة ليثبـت ذاتـه. هـذا النـوع مـن النـاس يخشى ببساطة أن يتفق مع غيره في وجهة النظر كي لا يبـدو وكأنـه خاوي الذهن، فلا بد إذن من أن يدلي بدلوه حتى لوكان هذا الدلو فارغا تماما. وتلك كانت حال آكري.

كيف لتل التمر، البلدة الجميلة الخضراء الخصـبة المسـتلقية علـى الخابور أن تنجب ثمرتين مختلفتين ومتباينتين إلى هـذا الحـد؟ في تـل تمر عرب وأكراد وآشوريون متعايشون بمحبة وتعاون، وحين يزرعون القمح والقطن، إنما يزرعون المحبة في قلوبهم في الوقت ذاته. وكمـا سنبلة القمح وندفة القطن لا انتماء لها ولا قومية تفرقهـا عـن غيرهـا، كذلك كان أصحابها وزارعوها.

"يا جماعة ليس المهم رأيك ولا رأيه ولا رأيـي، اللعبـة لعبـة كبـار ونحن لاشيء" قال آكري بالبرود ذاته.

"بل رأينا هو المهم، ونحن الكبـار!" قـال مـاهر بصـوتٍ عـالٍ، ثم

t.me/yasmeenbook

أردف بغضب أكبر: "نحن الذين نصبر ونقاتل ونصاب وندمى ونسقط ونرحل، ونترك أهلنا ينتحبون، ونساءنا أرامل، وأطفالنا يتامى"!

متابعاً بروده القاتل التفت آكري إلى جوان دون أن يردّ على ماهر: "ألست كرديا؟ ألا يهمك أن تكون لك دولة خاصة بقوميتك، تحفظ حقوقك أنت؟ هل أنت مع العرب؟!".

قبل أن يجيب جوان، اشتعل ماهر غضباً وحنقاً ولم يستطع أن يتمالك نفسه إزاء تجاهل آكري له، فاقترب منه وفي عينيه نيّة شرسة لمعاقبته:

"هل سبق لك أن سمعت ببلد اسمه العراق؟ أخبرني أيها الأبله؟" ابتلع آكري ريقه بصعوبة محدّقاً بالأرض. "لماذا لا تنظر إليّ، انظر! هل رأيت حمائم السلام تحلق فوق العراق بعد تقسيمه؟ أم أنه نعيق البوم والغراب على دم مازال يجري حتى اللحظة! هل تعتقد أن جورج بوش كان يهمه كثيراً انتماءات العراقيين الدينية والمذهبية والطائفية؟ هل تعتقد أن أوباما مثلا أو من سيأتي بعده، يهمه كثيراً أنك كردي أو عربي أو أنني أمازيغي أو شركسي أو أرمني؟! من يدفع ثمن ذلك كلّه؟ انظر فيما حولك قبل أن تتفوه بحماقاتك أيها الغبي!" قالها ماهر باستهزاء ممزوج بغضب. ثارت ثائرة آكري ونهض من مكانه مقترباً من ماهر الممسك بكأس الشاي بيده: "عربيٌّ متعجرف"!.

لم يكن الشاي المرمي بغضب من كأس ماهر على وجه آكري هو السبب الوحيد الذي جعله يغمض عينيه، بل كذلك شعوره بالخزي وعجزه عن إيجاد مخرجٍ من لحظة قد زُجّ فيها ربما بغير قصد، إضافة إلى الخيبة التي أوقعه بها جوان المختلف معه بالرأي.

t.me/yasmeenbook

نهض جوان بسرعة، خلع الفانيللا القطنية وبقسوة الأخ الأكبر وحنانه وغيرته معاً، مسح بها الشاي عن وجه آكري وقد تسارعت ضربات قلبه، وأخذ يتصبب عرقاً، أمسك آكري بقوة ساحباً إيّاه إلى الخلف بسرعة ودون أن ينتبه أن جسد آكري النحيل قد عانق الأرض، مشى باتجاه ماهر وهو يلهث باستياء: "إيّاك أن تكررها ثانية! إيّاك!".

نظر آكري إلى جوان محدقاً باطمئنان الطفل إلى ملاذه، ثبّت نظره على يد جوان المرفوعة عاليا، وكفه ذات السبّابة المهددة لماهر، المدافعة عن أخيه، أنصتَ جيداً إلى نبرة صوته الواثقة والتي فتحت داخله صندوقاً عريضاً من ذكرياتهما معاً في تل التمر، وجد آكري نفسه أمام تاريخ طويل من احتواء جوان له. وفي مسامعه تتردد كلمة لطالما اطمئن إليها مذ كانا طفلين: "إيّاك.. إيّاك".

قبل أن يهمّ ماهر بالتحرك نحو جوان، ذراع قوية شدته إلى الخلف مانعةً إياه من النهوض: "أخٌ يقاتلُ أخاه الذي يتجرّع معه الألمَ ذاتَه والحزن ذاتَه والقهر ذاته والفقد ذاته! تعالي يا أمريكا تعالي! تعالي وصبّي لعناتك علينا تعالي! فنحن حمقى! نستحق السحق، نستحق اللعنة، لا تليق بنا الحياة".

كانت كلمات ثائر بصوته الجهوري القويّ..

في الحرب، الكلُ خاسرٌ...

غابرييل غارسيا ماركيز

t.me/yasmeenbook

ثائر

على طرقات السفر، شتاء 2013

رياح خفيفة بعد الظهيرة رافقت ثائر الذي دخل عائداً من غرفة العقيد. قويّ البنية، حاد النظرة، سليط اللسان، حاذق الملامح. له بشرة سمراء مختلطة بدمويته الصارخة لتمنحه سحنة مميزة. كفاه عريضتان وأصابعه ممتلئة متوردة كما وجنتيه، يكاد محبس خطوبته يختنق من اندلاق لحم إصبعه عليه من الجهتين. محبٌّ للمزاح طيب المزاج والمعشر، سريع الحركة، يحدث ضجيجاً حيثما حلّ، كباص البلدية، هكذا يقول ماهر، وعندما يتحدث تشعر وكأنّك دخلت قاعة من ضوضاء فيها مجموعة من الناس يتحدثون معاً. قوي الحدس، حاضر البديهة، يعلم تماماً متى يتدخل في النقاش، يقول عنه أحمد "رجل ولا كل الرجال".

"لماذا ما يزال هذا المحبس المسكين محشوراً في إصبعك؟ ألم تخبرني أن أمرك مع لينا قد انتهى؟" قال أحمد..

"أنت قلتها: مسكين.. عالق بيدي ولا يمكنه الخروج محكوم عليه مؤبد" رد ثائر وضحكا معاً.

لم يشغله حديثه مع أحمد من استراق النظر إلى ماهر الذي عاد إلى عزلته منشغلاً أو متظاهراً أنه كذلك. كان ثائر يدرك ما الذي يدور في رأس ماهر، ويعلم كم هو مستاء مما حدث ليلة أمس بينه وبين جوان. ويعلم أيضا أن ماهر ربما تمنى لو أن ثائراً تركه يهاجم جوان.

t.me/yasmeenbook

كان هذا سيسهل الأمر عليه ويخفف من استيائه الحالي. فجوان ندٌّ جيدٌ لماهر، أما آكري فيعلم الجميع أنه لا يقارن بماهر ولا بجوان سواء من حيث سماته الشخصية أو ثقافته وحجته في الإقناع. وكان ماهر يكره أن يهاجم من هو أضعف منه لكنه في الوقت نفسه لا يتحمل التطاول أو الإهانة أيا كان مصدرها. وعلم ثائر أن ماهر ممتنٌ في الوقت نفسه لأنه لولا ذلك لكان الانفجار يومها محتماً، وليس الوقت مناسباً لفتح أبواب من أحقاد الجميع بغنى عن فتحها الآن. وانتهى الأمر بأن امتنع ماهر عن نقاش الأمر مع أحد، فلا هو اعتذر من آكري ولا من جوان، ولا شكر ثائر على تهدئته الصراع ولا حتى عاتبه لتدخله، ولا حادث أحمد، وإنما اكتفى بالانزواء كعادته صامتاً في ركنه الركين.

صب أحمد الشاي لثائر الذي راح يتأمل، بينما يدخن سيجارته، في وجوه الشبان واحدا تلو الآخر. في قرارة نفسه كان يلعن الحرب وما قادت إليه. فالحرب لا تغير الأشخاص وتبدلهم فحسب، بل تطحنهم طحناً، ومن الدقيق الناتج تعيد تشكيلهم عجائن وجبلات جديدة، بل وغريبة عنهم أحيانا، بعد أن تمزجه بالدم والقهر والفقد والحرمان!. ثائر الذي يقضي أوقاتاً أكثر من غيره من رفاقه يجلس أو يتمدد بسبب إصابته الأخيرة في ساقه اليمنى التي زرعت فيها العملية الجراحية سيخين معدنيين، كان هذا يعطيه فرصة ربما للتفكّر فيما آلت إليه أوضاعهم، ومدى الاغتراب الذي يحسّه إزاء نفسه وإزاء الآخرين. كان واثقاً أن كلاً منهم يعيش الحالة ذاتها، فهم يعبرون عنها بكلماتهم البسيطة : "يا رجل أنا لم أعد أعرف نفسي" كان يشعر أنه يتبدل وأن ثائر اليوم لا يمت بصلة لثائر الأمس، هذا الجديد لا يشبهه ولا يعجبه ولا يقبله، بل إنه جاثم على صدره، إنّه عدوّه ويتحين

t.me/yasmeenbook

الفرصة للانقضاض عليه والتخلص منه واستعادة الأصل. قطع شروده كلام أحمد:

"أخبرني بالله عليك يا ثائر، ما رأيكَ بالحبّ عن طريق الانترنت ومواقع التواصل؟ " سأل أحمد ليكسر جليد الصمت الذي ساد مشيراً بيده إلى ماهر.

"يا شباب! أنا شخصياً لا يمكنني أن أحبّ امرأة لم أرها؟ لا بد أن أحسّ بها بقربي، أشم رائحتها، أمرر ظهر كفي على خدها، ألمس يديها، أختبر ملمس شعرها، أذوب في عينيها، أراقب حركات شفتيها حين تتكلم وأمعن النظر في أصابع يديها وقدميها".

"يا عيني يا عيني، ما رأيك ماهر؟" سأل أحمد..

كان ماهر قد استشعر محاولات كل من ثائر وأحمد لتخفيف وطأة الجو المشحون. لم يستطِع أن يكون أنانياً، إنه يعلم أن ثائر كان بارعاً في إخفاء همه وغمه وقلقه وحزنه بل تحويل كل ذلك إلى مرح ونكات وضحك. كانت علاقة ثائر بخطيبته لينا متردية نحو انفصال، وكانت تلك صفعةً لم يشأ القدر أن يجعلها الوحيدة، فأرفقها بإصابته خلال إحدى المداهمات. "ضربتان بالرأس توجعان الحر" قالها ثائر حين كان في المشفى.

من جهة أخرى كان يعلم ما الذي يمكن أن يعتري أحمد الأب الذي ينتظر مولوداً في الوقت نفسه الذي ينتظر فيه أمرا بعمل قتالي وصد هجوم وكمين ومداهمة وصاروخا والخطر يحيق به من كل جانب، ومصيره على كف عفريت، بينما مصير ابنه مجهول تماماً بالنسبة له. كان ماهر يعلم أنّ الحرب تضع العسكر على جبهتين: الوطن وحياتهم الشخصية .

t.me/yasmeenbook

"والله أنا سأقاتل لأستشهد، ومن ثمَّ أنال نصيبي من الحوريات فوق" قال ماهر ممازحاً رفاقه مشيراً بإصبعه إلى السماء بينما اتجهت عيناه نحو آكري.

آكري، الذي يحمل المصحف طول الوقت ويستشهد بالقرآن الكريم والحديث الشريف والذي سمّاه ثائر مفتي الثكنة ممازحاً ومناكفاً، ينجح في مثل هذه الحالات بإخفاء امتعاضه، قليل الكلام كثير المراقبة. وعندما ينتهون من اجتماعهم الصباحي تراه ممسكاً بمصحفه، يقرأ القرآن ثم ينتقل إلى سجادة الصلاة وهكذا بالتناوب. "حسب معلوماتي أن للمسلم خمس صلوات، هل زادوا عدد الفروض دون علمنا؟! أراك لا تفارق سجادةَ الصلاة يا رجل؟" مازحه ثائر يومها فابتسم له آكري ولم يرد.

حسناً أخبرنا يا مفتي الثكنة، ما رأيك بما قاله ماهر"سأل ثائر.

"بالطبع هناك حوريات، هدايا للمؤمنين الصابرين".

"طيب ولماذا انتظار السماء وعلى الأرض عشرات بل مئات الحوريات، عصفور باليد ولا عشرة على الشجرة يا أخي"، قال ثائر وقد وقف بمدخل الغرفة يدير ظهره للباب. ضحك الجميع في جوّ أكثر محبةً من الأمس. نقرات على كتف ثائر: "يمكنك الذهاب في إجازة من الغد" كان ذلك العقيد المسؤول. ثم قال: "آكري! اتبعني".

* * *

كان أحمد قد أوصاه قبل يومين أن يمرّ على بيت أهل زوجته في حمص بعد أن أصرّت سهر على إرسال بعض الفطائر والمربيات لزوجها أحمد مع ثائر العائد من إجازته التي استمرت شهراً بسبب إصابته بطلق ناري في ساقه. بعد أن أنهى بعض واجبات العزاء لأسر أصدقاء في

t.me/yasmeenbook

اللاذقية، ركب الحافلة عائداً إلى حمص. وفي الطريق من اللاذقية إلى حمص راح ثائر يتأمل الأخضر والأزرق والبني وتوزعها في طبيعة هذا البلد الذي طالما أحبّه. فعلى يمينه البحر المتوسط وقد جعلته أشعة الشمس لا زورديا ساحرا. وعلى طول شاطئه امتد الأخضر وكأنه رُسِم بريشة فنان. أما إلى اليسار، فقد ارتفع الجبل وانتشرت عليه القرى ببيوتها الصغيرة المتلاصقة كتلاميذ رياض الأطفال، مدرجات أراضيها التي زرعت التبغ والزيتون والتفاح والبرتقال، أضافت ألوانا ساحرة جعلت من بهاء المنظر كمالاً لا يضاهيه أي فن. الشجر الأخضر يغطي جانبي الطريق ويزداد الأخضر كثافة وتركيزا كلما تقدم في الطريق نحو طرطوس وحمص، في حين يتناقص هذا الخصب الحيوي بعد حمص باتجاه العاصمة دمشق وكأن الطبيعة صبيّة والمسافة على الطريق زمنٌ مرّ بها فشحبت وتاهت عن رونق الصِّبا ونضارته. لا يمكن لهذه الطبيعة الغنية إلا أن تشعرك بالبهجة والرضا وتنتزع منك كل المشاعر السلبية. لكن سعادة ثائر كانت مشوبةً ومنقوصة . لقد شغل باله المصير الذي ستصنعه الحرب، كانت تدميه دموع أهالي الراحلين، وألم المودّعين له عند نهاية الإجازات فكان ذلك كلّه بمثابة تجديدٍ دائمٍ للألم ونكئ للجرح. في كل مرة يودِّع فيها رفاقه، يدعون له ألا يتعرض لمكروه على الطريق، ويدعو الله بدوره أن يعود ويراهم سالمين، تلك الحرب انتظارٌ يليه انتظار ووداعٌ يدميه آخر. في مقعده في الحافلة أسند ثائر رأسه إلى الخلف قرر ألا يفكّر بشيء، لكن صورة خطيبته لينا كانت تصر على زيارة خياله.

"سيرتاح إن رآكِ، إنه متوعكٌ، وبسبب التهاب الجلد في مكان الإصابة لديه ارتفاع في درجة الحرارة سببت له هذياناً لا يذكر فيه سوى اسمك" قالت أم ثائر على الهاتف. رغم إصابته، لم تزره خطيبته لينا خلال إجازته المرضية، إلا بعد أن طلبت منها أم ثائر ذلك في اتصالٍ هاتفي.

جاءت لتراه، وبقدر ارتفاع درجة حرارته، كان برودُ حضورِها، وكان ألمه. كانت تتجنب النظر في عينيه وتحاوره بعبارات مقتضبة، وتقابل ابتسامته لها بتغيير موضوع الحديث. لم تكن تلك المرة الأولى التي يلحظ فيها ثائر أعراض الجفاء. صحيح أن الأمر كان صادماً لكنه كان يتوقع حدوثه، لطالما اعتقد ثائر أن الشخص الحاذق هو من فقد دهشته بالأشياء والأحداث والأشخاص، فلم يعد يفاجئه شيء ولم يعد يصدمه شخص. وفي الحروب، كل شيء ممكن وكل تحوّل وارد وربما مبرر. في ظل الحرب قد تجد أيّة فتاة نفسها منتظرة اللاشيء إذا ما ارتبطت بشاب يؤدي خدمته العسكرية. وقد تعلن نهاية انتظارها لهذا الفراغ . هو قطار اختارت أن تصعد إليه في رحلة اعتقدت أنها واعدة، وحين أصابها الإرهاق والتعب والسأم اختارت التوقّف والترجّل عند أوّلِ المحطات. وضعية (مكانك راوح) لا تتناسب مع الحياة، فالحياة خارج الثكنات العسكرية والجبهات والمواقع القتالية ومدارس الجيش، حياة عادية شبه طبيعية تمشي إلى الأمام ولو نسبياً، فالناس تذهب إلى عملها وتقبض راتبها آخر الشهر، الطلاب في أغلب المناطق يذهبون إلى مدارسهم وجامعاتهم يتعلمون الدروس، ويتبادلون الكتب ويحبون ويعشقون. قوافل الشهداء لم توقف مواكب الزفاف، الأسود الذي اتشح به البعض حدادا على أحباء رحلوا لم يحُلْ دون ارتداء آخرين ألواناً زاهية في مناسبات وأعياد. الحياة خارجاً فيها عناصرها المتكاملة في حين أن حياة العسكر لا زمان فيها ولا مكان والأبيض فيها يشبه الأسود، لا تميز الليل فيها عن النهار إلا عند المداهمات، أو الحزن من السعادة إلا عند استشهاد أحدهم. ضمن هذا الصخب الحياتيّ، من الصعب أن تطلب إلى أحد أن يموت قبل أن يأتيه الموت! بل إن الموت ربما أسهل لأنه حاسمٌ، بينما الانتظار قاتل لأنه مليء بالاحتمالات، فكيف تُحمِّل شخصاً ذاك الألم كلّه الذي تخلقه الحروب؟

t.me/yasmeenbook

عاد ثائر لتأمله في الطبيعة من جديد ليسحره هذا التناغم الأخّاذ بين ألوانها، كم يشبه تناغم مكونات هذا الوطن الجريح أديان ومذاهب وطوائف وأعراق وقوميات، كم يشبه تلوّن طبيعتها اختلاف ناسها. تألم لما حدث للبلد الجميل الغني، ولم يتخيل أن أيادي غريبة غادرة يمكن أن تمسَّ هذا السحر.

فتح ثائر عينيه، فلاحظ وهو في الحافلة أن الرجل المجاور له في المقعد يمعن النظر فيه، فأدار وجهه نحو النافذة، الآن يمكنه أن يجلس مكتوف اليدين مستسلماً للشرود دون أن يأبه بملامح وجهه التي تتحكم بها أفكاره.

لم يستطع أن يتذكر بالضبط متى أصيب قلب لينا بهذي القسوة، قبل شهر أو شهرين، لم يكن متأكداً تماماً من الزمن الذي فيه كانت بداية برودها وهروبها وتهربها، لكنه كان متأكداً أن الزمن، في ظلّ الحبّ والحرب، يغدو مشوّهاً ومبهماً وصعب التحديد.

غيابٌ فغياب، فتهرّبٌ وذرائع لا حصر لها: فتارة هي في زيارة عند أقارب وتارة مشغولة بالعمل، وتارة مكتئبة من أخبار الحرب والقتل والدمار، لكنه راح يفكّر ما المهم هنا في كل ذلك؟ هل يهم كثيراً متى حدث ذاك التغير أم المهم أنّه حدث وانتهى الأمر؟ لكن ماذا لو كان واهماً ولم تكن تلك ذرائع ؟ ألا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً؟.

وكمن أراد أن يقطع الشكَ باليقين، قرّر أن يحادثَها حين تتوقف الحافلة لاستراحة، تناول جواله من جيبه وترك أصابعه تختار اسمها وتطلب الرقم، رن جوالها رنّة، رنتين ثم ثلاث ثم أربع رنات. " ألو ثائر، أنا أمها، لينا جاءت من عملها مرهقة المسكينة! نامت وطلبت ألا يزعجها أحد". لحسن الحظ أو لسوئه ربما، كان الشاب الذي

t.me/yasmeenbook

يعمل في الاستراحة حيث توقفوا يجلس خلف جهاز كمبيوتر يبدو أنه يتصفح الفيس بوك،

"لو سمحت هل بإمكاني أن أفتح صفحتي لدقيقتين لا أكثر، أنتظر رسالة مهمّة!".

"بالتأكيد تفضل!" رد الشاب العامل.

فتح ثائر صفحته ثم فتح أيقونة الرسائل ليجد لينا نشط الآن. تصفح الفيس بوك لدقائق، لينا متفاعلة مع الصفحات ونشيطة في التعليقات: "مرهقة ونامت المسكينة نعم!" تمتم ثائر بحرقة.

تأكد من إنكاره لحقيقة غدت واضحةً وضوحَ الدّم والحرب، ووضوحَ الأيام غير السعيدة القادمة. أحسّ بموجةٍ من غبنٍ اجتاحته، نهض عن الكرسي بسرعة، شكر الشاب " كم تريد؟!".

"عيب يا غالي، روحنا لكم الله يحميكم!" أجاب الشاب.

عاد ثائر أول المسافرين إلى الحافلة، أخذ مكانه، أرجع رأسه إلى الخلف، وعلى بطنه المضطرب تشابكت كفاه. أغمض عينيه شدهما بقوة فتحهما ثم أغمض ثانيةً. كان يرى في غياباتها الصغيرة مقدمة للغياب الأكبر: الخنجر الذي سيصيب روحه. وكان يعلم تمام العلم أن لحظات تواصله القليلة جداً معها منذ فترة ماهي إلا جرعات مهدئة لألمه، وأنّ العمل الجراحي بات ضرورةً عاجلاً أم آجلاً. كانت لقاءاتهما مؤخراً أشبه بوجبات طعام فاسدة يتناولها مجبراً لأنه يتضور جوعاً. يصيبه غثيان الفقد إثر كلّ وجبة، ولحظة التقيّؤ آتيةٌ لا محالة. لكنه لمْ يقوَ بعد على التعرّي أمام نفسه ومواجهة الحقيقة. لا قرار له الآن، ما زال يناور رغم أنه سمع الصفارةَ التي أعلنت نهاية اللعبة.

t.me/yasmeenbook

لطالما قال: لا قدرة لنا على من نحب. ولطالما ارتعدَ كلما سمع فيروز تشدو:

يا حلو شو بخاف إنّي ضيّعَكْ

هل هو حدسه؟! ربما، أم أنّه يقينه أن النهايات الباردة براكين خامدة كامنة في البدايات المشوقة؟!

عاد الركاب أخذوا أماكنهم وأدار السائق محرك الحافلة، صوت المحرك وبداية التحرك جعلاه يفتح عينيه، نظر حوله وراح يفكّر: هل هو وقت الاستسلام للوعة الحب وألمه؟ ستغيب لينا حسناً! رفاقه على الجبهات تغيب عنهم الحياة، كيف يفكر بفراق حبيبته بينما رفاقه آباء فارقوا أولادهم؟! كيف له أن يذكر أحمر زهورهما معاً، بينما أحمر دم الحرب يغطي المكان والزمان ؟! كيف كان يتخيلها بأبيض الزفاف دون أن يخجل من الأسود: المصير الذي ترسمه الحرب؟! لم يكن ذلك كافياً لتخفيف أوجاعه ولم تنجح تلك المقارنات في تسكين ألمه. حاول أن يسخّفَ هواجسَه أكثر وحين فشل راح يدعو النعاس، صورتها تناكف هواجسه، وضحكتها تصمّ أذنيه.. اشتم رائحة حزنٍ آتٍ؛ نعم للحزن رائحة، شعر بألم في صدره؛ ومغص في بطنه؛ ورعشة في أصابعه. قلّب نظره يمنة ويسرة، شعر أن الحافلة كالتابوت بل أضيق وأحسّ ظلمةً باردةً رغم أنها ظهيرة صيف! ..همس في سرّه: "صدقت يا بن عربي فالحب "موت صغير.....وربما حياة كبرى، من يدري!" هكذا أردف كمن يواسي نفسه.

وبين صحوٍ وإغماء، غفا، رأى في المنام أمه تتأمل ملامحه المنكوبة وبابتسامة صفراء تقول: "أيبكيك الحب يا ثائر؟!" ثم أحسّ لينا تقف خلفه وتنقر نقرات خفيفة على كتفه.

صحا على نقرات عنصر الأمن على كتفه، "بطاقتك لو سمحت!".

t.me/yasmeenbook

حاضناً سنبلة الوقتِ ورأسي برج نار...

أدونيس

t.me/yasmeenbook

ماهر

ريف دمشق، شتاء 2013

إنها المرة الأولى في حياته التي يسمح فيها ماهر للكسل أن ينتصر عليه. ولم يحدث أن اعتذر مرة عن أداء أيّ شيء يوكل إليه. بل إنّه كان على العكس السباق دائماً، ليس فقط لينجزَ أعماله، بل حتى ليأخذَ عن الآخرين مهامهم دون انتظار مقابل منهم أو حتى شكر. "النحلة" هكذا كانت تسميه سلاف، رفيقة مقعد الدراسة. فكان لا يهدأ طيلة العام الدراسي، ويحمّس الآخرين للقيام بفعاليات ثقافية وأدبية ومسرحية في المدرسة، ويساعد الجميع بكل ما يستطيع، لكنه اليوم استسلم لجسد متمرد على الأمر والطاعة.

"أحمد! لم أنمْ منذ يومين، هل يمكننا أن نتفق مع العقيد أن تكون الحراسة الليلة من نصيبك؟ وأحرس أنا الأسبوع القادم".

"لعيونك ماهر! سأقوم الليلة بالحراسة ولا أريد تعويضا لا تقلق واعتبرها يا سيدي زكاة الحرب" ضحك الرفاق عندما قال أحمد ذلك بابتسامة ملؤها الطيبة.

"يا شباب والله وجودنا هنا بحد ذاته زكاة، إنّا نزكّي بأنفسنا روحاً وجسداً" قال جوان.

"صحيح، فأرواحنا على كفّ عفريت، الآن نحن هنا، وبعد لحظة في مكان ما"، قال أحمد عبارته عن الموت لكن وجهه كان ملوّناً بالحياة وعيناه تشعّان بالرضى، فاليوم انتعش مزاجه إثر اتصال مع سهر أخبرته

t.me/yasmeenbook

فيه أن بطنها نال عند الصباح ركلةً لا بأس بها من ولي العهد القادم، فكان أحمد يتحدث عن هذه الركلة طيلة اليوم. يعيد كلام سهر ثم يعلق على الحادثة، وما إن ينتهي حتى يكررها ويضحك وهكذا .

"يا عمي صرعت رؤوسنا بهذي الركلة! والله لو أنها ركلة ميسي في نهائيات كأس العالم لما أخذت كل هذا الصدى الإعلامي"، قال ماهر ممازحاً وقد وضع يده على كتف أحمد الذي انفجر ضاحكاً. أصواتهم العالية وصخبهم وشكواهم وضحكاتهم لم تستطعْ أن تخفي الأصوات غير المطمئنة بالخارج والتي توحي بأنهم مقدمون على ليال عصيبة كما قال العقيد اليوم في اجتماعهم الصباحيّ. كان ماهر مؤخراً يحاول أن يكون أكثر مرونةً ومرحاً وأقل تذمراً وشكوى لأنه بدأ يشعر أنه يثقل على رفاقه وخاصة على أحمد وثائر اللذين يواجهان حروبهما الشخصية التي أضيفت إلى حرب الجميع العصيبة. ولهذا كان يؤجل همّه حتى يأتي الليل صديقه فتراه يختلي بعذاباته دون كلام وهكذا لن يزعج أحداً.

ليل دمشق وريفها بارد في أواخر الخريف، الحرب والذعر والقلق تزيد البرودة برودةً.

بدأ الجميع يبحثون عما يزيدهم دفئاً، فهذا يصنع الشاي وآخر المتة[1]. وهذا يتدثر بغطاء من فوقه غطاء. أخذ ماهر يتأمل في المكان الذي تفوح منه رائحة الموت. البرد يزداد شدة مع تقدّم ساعات الليل، النوافذ رديئة الحواف فإغلاقها لا يفرق كثيراً عن فتحها على مصراعيها، الباب قفله معطل لا يمكن إغلاقه بإحكام، فقام أحدهم

(1) مشروب عشبي يشبه الشاي الأخضر تشتهر به المدن الساحلية السورية أكثر من غيرها ويشرب عبر مصاصة بعد إضافة السكر إليه.

t.me/yasmeenbook

بربطه بوساطة رباط حذاء إلى الجهة المقابلة من الحافة كي يظل مغلقاً قليلا. لطالما ظنّ ماهر أن الموت مفهوم أو فكرة أو حالة فيزيائية للجسم. لكنه اليوم يرى الموتَ مكاناً، ويراه زماناً. الموتُ رائحةٌ ولونٌ يراه في وجوههم، وفي الأصوات المختلفة التي تدوي. لم يستطعْ النوم وهو يفكّر في الغدّ.

صنع لنفسه كوباً من الشاي، ارتشف رشفةً منه وأمسكَ بجوّاله، حاول أن يتصل بشبكة الإنترنت، توقفت الشبكة لكن الصور التي تصدرت الصفحات الرئيسية ظلت مفتوحة، فأمكنه متابعتها جيدا، أناس بملابس نظيفة جديدة يحتفلون، شباب يتزوجون، طلاب يتخرجون، آخرون في المقاهي يحتسون المشروبات المختلفة، ولائم، دعوات وعزائم ومأكولات شهية متقنة الترتيب والعرض، مؤتمرات حول الحوار الوطني لإنهاء الحرب والمصالحة بين الأطراف، لا يعلم ماهر بدقة ما هو فحوى الحوار ومن هي الأطراف التي سيكون حوارها كفيلاً بإنهاء الحرب، تابع التصفح، رحلات ممتعة وصور سيلفي وزينات أضواء ومهرجانات، أسواق وبضائع، صبايا متبرّجات، شباب يردّون شعرهم بالجيل إلى الخلف وذقونهم مشذّبة لا تجد فيها شعرة واحدة متمردة أو خارجة عن قانون أناقتهم يحملون الموبايلات الفاخرة.

تقلّب آكري في فراشه يرتجف من البرد، ثم فتح عينيه ونظر إلى ماهر، رمى له ماهر ببطانيته الوحيدة تلقفها آكري كما يتلقف الرضيع ثدي أمه، شكر ماهر بابتسامة. ابتسم له ماهر ولم ينبسْ. عاد إلى التصفح، منشورات كلها أسى وفراق ووداع وخيانة، خواطر فقيرة اللغة والشكل والمحتوى لعاشقين محبطين ساهرين، منشورات قليلة ذكرت العسكر وشكرتهم، شعر أنها تنعيهم، هم المساكين المنسيون الشهداء الأحياء.

t.me/yasmeenbook

"فيكم الخير تذكرتونا" تمتم ماهر. صور أخرى لمسافرين ولاجئين ومهاجرين ومغتربين، بعضهم يتباكى على الوطن دون أن يفقه من حقيقة ما يجري شيئاً، البعض الآخر يستميت ليثبت وطنيته وأن سفره لا يعني الهروب وأنه من موقعه ينشر ثقافة السلام ويقف إلى جانب الحقيقة. آخرون لم يتذكروا الوطن أصلاً ولا يعنيهم أن الدم يجري على أرض مشَوْا فوقها يوما، فتراهم يحتفلون بإنجاز لأولادهم أو يحضرون مناسبة ما أو يزورون متحفا أو كنيسة أو معلماً أثرياً مهمّاً.

صورٌ وصورٌ لشهداء، منهم من كانوا رفاقه في الطفولة أو الجامعة، آخرون قد لا يعرفهم لكنه يعرف بالتأكيد أنهم ذاقوا ما يذوقه الآن، وعانوا ما يعانيه ورفاقه في مكان وزمان لم يتوقع ماهر أن يبتلعاه يوماً. وسط كل هذا التناقض والمفارقات وكل هذا القلق، وسط البرد هنا ودفء المحتفلين هناك، جوعهم هنا وولائم آخرين، حزنهم وابتهاج أولاء، وسط كل هذا العبث لم يستطع أن يحزن، أو يفرح أو يسخط، أحسِّ أنه خارج التاريخ أو هؤلاء ربما؟ هل ما يحدث هناك هو إرادة الحياة التي تستمر رغما عن أنف الحرب والموت؟ نظر إلى آكري الذي غرق في النوم دون حركة ما إن شعر بالدفء، قفز إلى ذهنه جنين أحمد، ركلة ابن أحمد كانت اليوم لقمةً اقتات عليها الجميع، فهم الذين يتضورون جوعاً للأمل، يكفيهم بصيصُ نورٍ ليتمسكوا به ولو كان خيطاً رفيعاً فهو يكفي لنجاةٍ محتملة. وعندها تذكَر ماهر رفيقه أحمد الذي يحرس خارجاً نيابة عنه. "يا إلهي إن كان البرد هنا كذلك فكيف برد أحمد بالخارج؟!" همّ بالنهوض ليطمئن عليه بالخارج، بحث حوله عما يمكن أن يعطيَه لأحمد فوجد سترةً صوفيةً لا بأس بها، قطعتان من الكعك المزين بحبات السمسم كانتا من بقايا صرّة أم ماهر، وضعهما في جيب بنطاله، سيكمل

t.me/yasmeenbook

الحراسة عن أحمد، فالنوم يجافيه بالحالتين. تناول سترته العسكرية، أراد أن يرتديها لكن قبل أن يضع قدمه على الأرض دوى صوت هز الأرض وصدّع النوافذ لشدّته.

نهض الرفاق من نومهم مذعورين وأخذوا يمسكون ببنادقهم يتساءلون عما حدث. رمى ماهر السترة أرضاً، وهرع حافياً نحو الخارج "ماهر إلى أين أنت ذاهب؟، جهنم بالخارج" قال جوان. ركض ماهر دون أن يجيب. فتح الباب وهرول مسرعاً لا يرى إلا الدخان والضباب أسرع خطواته وهو يدعو ،غاب وضوح الرؤية أكثر فأكثر، وتتالت أصوات الانفجارات القريبة جداً. لأول مرة عرف ماهر ما معنى ألا تحملك ركبتاك من الهلع، حاول أن يقاوم متابعاً الركض إلى حيث كوّة الحراسة الليلية التي وصلها مقدّرا ذلك حسب المسافة التي يعرفها لأنه لا يتمكن من رؤية شيء، لا شيء سوى الدخان الذي عبق بالمكان وملأ الصدر والرئتين، سمع اختناق سعال أحمد، راح ينادي "أحمد! أحمد! أحمد! رد أرجوك" وبينما انتابته نوبة من السعال وصل إلى الكوّة، أخذ يتحسس مكان وجود أحمد بيديه كلتيهما عندما اصطدمت قدماه الحافيتان بشيء كان بارداً لكنه أكثر سخونة من الأرض تحته، جثا ماهر على ركبتيه لاهثاً تناول المصباح الصغير من جيبه وحاول بيده المرتجفة إشعاله." أشعل تباً لك أنِرْ هيا" أناره أخيراً، فرك عينيه بيديه وكأنما لا يريد أن يصدق ما رأى. شُلّت حركته تماماً، بركةٌ حمراء بدأت تتشكّلُ تحت الجسد الطريّ، وتزداد اتساعاً كلّ ثانية بينما فيضان من دمعٍ أسودَ أعمى عيني ماهر، أصوات الصواريخ المريعة لم تكن أقسى من صمتِ الجسدِ الملامسِ لركبتيه. ضجيجُ العالم كلِّه اجتاح وجدان ماهر.

t.me/yasmeenbook

ضيّعته الأحجية فانحنى قوساً من الرّعب
على أيامه المنحنية...

أدونيس

t.me/yasmeenbook

ثائر

حمص، شتاء 2013

لم يستطع ثائر أن يصدق أن أحمد قد رحل في اليوم نفسه الذي خرج فيه ثائر لإجازة . ووصل حمص قبله بساعات، لم يسمع ثائر نشرات الأخبار، فطيلة الوقت كان متنقلاً على الطرقات في الحافلة حيث يتابع المسافرون الأفلام الغبية والأغاني الهابطة. إنها عبثية القدر، لقد أرسله أحمد إلى بيت أهل سهر، ولم يكن يعلم لا هو ولا ثائر أنه سيصل حمص أولاً، لكن جثماناً بكفن.

تمشى ثائر وجوان خارجَين من محطة كراجات البولمان صامتَين يأخذهما الشرود. لم يستطع أي منهما أن يرى الأخضر الذي لوَن الشجر حولهما، ولم ير أحدهما سوى الموت أمام عينيه. ولم يتنشقا أزهار الزيزفون، فرائحة الحريق والدم والفقد تعبق بالمكان والزمان. عندما اندلعت الحرب كان حزن ثائر على الوطن وأبناء الوطن كبيراً إلى حد أنه ظن أن لا حزن بعد هذا الحزن الأكبر، وعندما أصيب بقذيفة هاون في ساقه وصارحه الطبيب أن ساقه لن تعود كما كانت أبداً مهما بلغت من التحسن، عندها شحُبَ لون الفرح في عينيه وفقد الرغبة بالحياة، عندما تراجع حب لينا له وانتهى حضورها من يومياته كما ينتهي أيّ عرض مسرحي، ظنّ أن لا غمّ يمكن أن يعادل غمّه تلك اللحظات، فالصباحات كلّها اسودت في عينيه، عندما استشهد ابن الجيران مازن، في أول سنة للحرب والتي صادفت أول سنة جامعية

t.me/yasmeenbook

لمازن أحسّ ثائر أن تلك اللحظة التي شيّع فيها ثائر جثمان مازن قد اختصرت حزن العالم كلّه، مازن الشاب الألمعي اللماح، الذي كان يدرّسه ثائر الفيزياء والكيمياء والرياضيات، مازن الطموح الذي وعد الجميع باختراعات سيسجلها له التاريخ، ونجاحات يفخر بها والداه، لم تعده الحياة إلا بالموت، لم تعد إلا باختطافه من كافتيريا كلية الهندسة بدمشق في تفجير إرهابي لم يبقِ ولم يَذَرْ. مازن الذي كان تلميذاً نجيباً وأخاً قريباً، كان ابنا لثائر، شيّعه ثائر بالأمس القريب، واليوم يشيّع أحمد، رفيق الدم وشريك الكدح والحرمان والقهر. في كل مرة كان يعتقد ثائر أنه استغرق حزنه وأنه لم تعد لديه المقدرة على أن يحزن أكثر وينتحب أكثر، وفي كل مرة تفاجئه روحه كم هي مبدعة في تجديد آلامها، وأن نبع القهر لا ينضب .

"وها قد أتيت أخيرا لأزور حمص! أتذكر كم مرة دعاني أحمد إلى هنا؟! لم أكن أعلم أني سألبي دعوته مشيّعا" قال جوان بحزن.

"كان ينتظر عودتي بفارغ الصبر لأجلب له صورة ابنه في رحم سهر، كان يقتات على أمل تحمله صورة ثلاثية الأبعاد، كان سيقبّلها كثيراً، ذاك العطوف، الذي رحل" قالها ثائر بحزن.

قالا كلماتهما وكأن أحدهما لا يسمع الآخر ولا ينتبه إلى شيء. هبّت رياح خفيفة لكنها باردة، شد ثائر سترته على صدره ورفع ياقتها نحو أعلى، فرك عينيه كثيراً ثم كتّف يديه وأخذ يحدق في الأفق متابعاً السير إلى جانب جوان، أخذ ضوء النهار ينحسر كما انحسار الفرح من روحيهما، مشيا طويلاً، لم يشعر جوان بأي تعب رغم أنه لم يذق النوم أو الراحة منذ ثمانٍ وأربعين ساعة، ساعة حصل التفجير، ولم يشعر ثائر بخدر وثقل في ساقه. وكأنّ ألم الروح يغيّبُ أوجاع الجسد مهما عظمت، فالألم لا يذهبْه إلا ألمٌ أقوى منه. أراد ثائر أن يسأل

t.me/yasmeenbook

جوان عن ليلة أمس وتشييع أحمد ودفنه، وعن أم أحمد، عن سهر زوجته، عن أهل سهر، لم يستطع أن ينبس بكلمة. فكيف ستكون حال الأم الثكلى ؟! والزوجة الأرملة في عزّ شبابها وبطنها المنتفخ الذي سيزهر بعد شهور برعماً لا فيءَ له ولا راعٍ؟! شعر بأن أسئلته ستكون سخيفةً جداً وعبثيةً كعبثية أيام الحرب. رنّ جواله فقطع صمت شروده. "نعم ماهر البقية بحياتك، أين أنت الآن؟"!

"العقيد قال سنأتي بالتناوب للعزاء، سأصل غداً وأراك في مجلس العزاء، سلام!" قال ماهر باقتضاب وحزن.

صديق آخر لجوان كان قد قضى في التفجير الأخير الذي أودى بحياة أحمد، وكان على جوان أن يحضر مجلس عزائه. أصرّ ثائر أن يذهب مع جوان، ففي ظل الحروب، يصبح المناضلون لأجل قضية واحدة كلهم أصدقاء وأقرباء وأخوة وكلهم مقاتلون في الخندق الواحد ذاته، الحرب تساوي بين أبناء جيل مسروق، أبناء الدم، فصديق جوان هو ابن الحرب لا يختلف عن أحمد أو ماهر أو جوان.

كان الإنهاك بادياً على وجه ثائر، وقد انعكس في طريقة مشيته التي لم يغفل عنها جوان، كان يسند ساقه بيده ويرفعها عندما ينقلها وكأنه يحملها حملاً. "اسمع ثائر أنا أعلم أنك حزين لأجل جميع الذين استشهدوا من رفاقنا، لا عليك سأنقل تعازيك لأهله وأنت يجب أن ترتاح، أرجوك، ونلتقي بالغد في بيت العم أبو أحمد، عدني أن تأكل وتنام جيداً يا رفيقي" قال جوان ذلك مودّعا ثائر الذي تمشى ببطءٍ إلى أن وصل إلى بيت خاله في حي عكرمة، الحي المكروب الذي شهد عشرات وعشرات التفجيرات وشيّع العديد والعديد من الشباب والنساء والأطفال، وما زال واقفاً، والحياة فيه تصرّ على أن تهزم الموت.

t.me/yasmeenbook

بعد أن افترق الصديقان، تابع ثائر المشي ببطء، كانت برودة الطقس تزداد والمساء يتقدم طارحاً في السماء غيوماً بنفسجيةً تتلاصق هنا كحبيبين متيّمين، وتفترق هناك كعاتبَين حزينَين، فبدا الأفق في عيني ثائر ضريحاً نُثِرَ عليه زهر البنفسج الحزين على من رحلوا. "الرحيل" أصبح عنوان هذا الزمن. لم يكن يرضى بأقل من أن يحمل نعش أحمد ويشارك في دفنه، للأسف فاته أن يكفكف دموع أم الشهيد، أم أحمد الثكلى. تذكر جارتهم أم مازن حين أنزلوا جثمان مازن في القبر. تذكر وجه أم مازن، يا إلهي! أية قسوة تلك التي يختار فيها القدر لأمٍّ أن تعيش تلك اللحظات القاتلة؟! كيف لعقل الأم أن يستوعب الأمر بهذه البساطة؟ وكيف لقلبها أن يحتمل انسلاخ ذاك الجزء، الأحبّ والأهم، ويبقى نابضاً؟ كيف لها أن ترى أمام عينيها تاريخاً كاملاً ينطفئ بلحظة، يدفن تحت الأرض ويغيب غياباً تاماً وما عليها إلا القبول والتسليم! كيف يمكن للنفس البشرية أن تحتمل الفقد بهذه القسوة؟ أليس الوهم هو قانون وجود البشر؟ ما معنى الفرح الذي يعيشه الوالدان بانتظار خروج جنينهما إلى الحياة؟ كم هي سخيفةٌ تلك التفاصيل التي تزول بلحظة ! كيسٌ حمليّ تسكنه نطفة، يدل عليها رقم في تحليل مخبريّ، وصورة بالأمواج الصوتية ترسم السعادة لأبوين لشهور، ينتظران فيها ابنهما كي يبصر النور، يراقبانه عبر مراحل تطوره وازدياد طوله بالميليمتر ثم يأتي ويتشكل وتتشكل معه صورة جديدة للحياة، فيلم طويل البطولة المطلقة فيه للابن، يمرض الطفل فيمرض والداه، يشفى فيشرقان من جديد، يكبر وتكبر مشكلاته وينمو القلق على حاضره ومستقبله، يراهق فيتهوّر فيدمي قلب أمه، ثم يشبّ ويتطلب فينهي جيب أبيه وعقله، ويتسبب بالكثير من الصراعات بين والديه، فهي تدافع وهو يوبّخ ويلقي باللوم على

t.me/yasmeenbook

حنانها المخرّب. ينجح فيبتهجان، يفشل فيمتصان الصدمة ويشجعانه، يحبان من يحبه ويفكران في كسب من يؤذيه، يصليان لتوفيقه ويدعوان ليبعد الله عنه السّيئ من الناس، هو الدنيا لهما، كل العالم والوجود هو، وهكذا ببساطة تحين لحظة يُجبر فيها عقل بشري بحجم قبضة اليد أن يحمل هماً بثقل الجبال؟ لحظة واحدة تعيّنها رصاصةٌ أو قذيفةٌ أو خللٌ مناعيٌّ أو طفرةٌ وراثية أو مصادفةٌ سخيفة أو عبثيةُ قدر، تطفِئُ نجماً، تلغي ببساطة وجوداً حقيقياً امتد لسنوات وسنوات.

تذكر والدته التي كانت كل يوم تأتي عند الفجر لتغطيه وهو نائم عندما كان طالباً في الجامعة، وعندما تجده صاحياً يراجع دروسه، كانت تذهب إلى المطبخ وتعود حاملةً صينية فيها من الدفء والحنان أكثر ما فيها من الشاي المجاور لصحن مربى المشمش الذي صنعته يداها، تربت على كتفه وتدعو له. "ماما والله أنا لم أعد صغيراً، ارتاحي يا ست الكل فأنا قادرٌ على الاهتمام بنفسي" كان يقول لها ذلك وهو يقبّل ظهر كفّها التي تصلح عنواناً للكدِّ والشّقاء. ابتسامتها ونظرة عينيها كانت تقول إنّه مهما تقدم بالعمر فسيبقى ثائر الابن وستبقى الأم، التي مازال منديل رأسها يحمل رائحة ابنها الرضيع. أخذ يفكر بأم أحمد وأمهات الشهداء جميعهن، "أعانك الله يا خالتي! أعانكنَّ! ولعن الله السياسات والحروب".

تابع السير، الطرقات خاوية تماماً، يندر أن تجد أحداً خرج في ذلك الوقت إلا من خرجٍ يحضر دواءً لطفل. أحسّ ثائر بوخز في الساق وكأنّما شوكةٌ مسننةٌ تمتد من أسفل ساقه حتى تصل إلى الركبة وما إن تنهي طريقها حتى تعاود الحركة ذاتها في دورٍ متكرر، انتظر ثائر أن ينتهي لكن بلا جدوى. قبل أن يصل إلى بيت خاله بأمتار اشتد

t.me/yasmeenbook

الألم في ساقه، توقف أخذ شهيقاً عميقاً، أخرج الهواء ببطء من فمه، ثم مدّ يده مدلّكا ساقه من أسفل الكاحل حتى الركبة، كرر ذلك مرات ثم أسند ظهره إلى إحدى السيارات الواقفة على جانب الطريق الفرعي المعتم، أحسّ بحركة داخل السيارة، التفت ونظر من نافذتها، ثم أسرع بالابتعاد تاركا للعاشقَين بداخلها حرية ممارسة الحب وسط ظلمة كل شيء.

"تصرّين على التغلب على الموت يا حياة!"، تمتم...

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

امرأة لا شخصية لها كالخبز لا ملح فيه...

مكسيم غوركي

t.me/yasmeenbook

سهر

حمص، شتاء 2013

لم تكن سهر الأرملة الوحيدة في المدينة أو البلاد كلها، فقوافل الشهداء لم تكن تتوقف، تعلن كل يوم رحيل العديد من الشبان، الكثير منهم متزوج وله أطفال أو ينتظر قدومهم، والحقيقة أن تلك القوافل كانت تشيّع أسرة الشهيد المنكوبة بأكملها بقدر ما تشيّعه. وأن يترك الشهيد أسرةً لا معيل لها ولا سند، فتلك الكارثة وذاك الذّل .

متشحةٌ بالسواد ومنديلٌ أبيض يغطي رأسها، جبينها فتيٌّ يضيء كبدرٍ في سماءٍ صيفيّة، تقاطع كفاها على حضنها وقد جلست خافضة النظرِ وسط أريكة في صالة بيت أبي أحمد تستقبل العزاء بأحمد، وحولها اجتمعت النسوة وفي نظراتهن العطف والحزن والشفقة. نظرةٌ مختلفةٌ كانت في عيني إحدى المعزيات. "البقية بحياتك شدّي حيلك حبيبتي سهر، لا ترددي إن احتجتني في أي شيء، أي شيء" قالت سلاف.

"الحرباء!" تمتمت أم ماهر، فنكزتها ابنتها سماح منبّهةً محتجةً: "ماما"!!.

لم تكمل سهر دراستها الجامعية ولم تكن ترسم أية آفاقٍ للحياة خارج حلم أية فتاة تقليدية ،بيت وزوج هما غاية طموحها. وعندما تزوجت بأحمد حلمت أن تبني معه أسرة جيّدة وتنجب له أطفالاً ذكوراً، هكذا كانت تسمع أمها والنساء يتحدثن، لم يخطر ببالها أو

t.me/yasmeenbook

ربما لم ينبهها أحد أن هناك شيئاً ما أبعد من زواج وإنجاب أطفال ورضاعة وتبديل حفاضات وطهو الطعام وانتظار زوجها. شخص وحيد كان يقول لسهر كلاما لم تسمعه من قبل، لم تعتدْ عليه، وربما لا ترغب في سماعه لأنه يربكها ويحدث خللاً في معادلاتها الحياتية البسيطة. هذا الشخص هو سلاف. عندما كانتا رفيقتين في الصف العاشر بدأت سلاف تستشعر كرهها للدراسة والامتحانات وعدم جدوى استمرارها حتى الثانوية العامة. لكن سلاف لم تكن ترى في الزواج البديل الوحيد المناسب. عندما كانت تراقب أمها التي أفنت سني عمرها لأجلهم فقط وكان يمر الأسبوع تلو الأسبوع وتنقلاتها لا تتجاوز مساحة 140 متراً مربعاً وهي مساحة منزلهم، لم تكن سلاف قادرة على أن تتخيل نفسها محشورة في المطبخ عمراً كاملاً تطهو وتغسل وتنشر الغسيل وحين يجف تكويه، وتصرخ على أطفالها حين يتشاجرون أو يقصّرون في دروسهم، ثم تنتظر زوجها لتتشاجر معه حول هموم الحياة والأولاد ثم تقدّم له فروض الطاعة الزوجيّة. لم تستطع أن تكون أمها أو أم سهر أو غيرهنّ. حتى لو كان زوجها هو حبيب عمرها.

يومها خرجتا قبل حادثة جميل بأيام، سهر وسلاف تتمشيان ببطء وتستغلان ليس فقط الطقس الجميل بل كذلك الهدوء في الشارع بعد أسابيع من الاضطراب، سلاف ببشرتها القمحية وعينيها الخضراوين اللتين تشعّان فطنة وذكاء ومشيتها التي تصرخ غنجاً ودلالاً، يزيدها فتنةً تموج شعرها البني الداكن الذي أتت به من اليسار ونثرته على كتفها اليمنى لتنكشف الجهة اليسرى من عنقها الغض وكتفها المرفوعة بغرور الفتيّة الفاتنة. إلى جانبها تمشي سهر ببياضها الطفولي النقيّ وعينيها الوديعتين الوادعتين وشعرها الكستنائي الذي انهمر على

ظهرها كالشلال وقد انحدر من ربطة سوداء اللون، نظرتها مسالمة، مشيتها خجولة، كلماتها قليلة وأجوبتها مقتضبة جداً.

كانتا كالصيف والشتاء، كالليل والنهار، سلاف المدّ الدائم وسهر الجزر المنكفئ. مرة كان أستاذ الفلسفة يشرح لهم في الحصة علاقة الفلسفة بالدين وعندما سأله أحد الطلاب مستوضحاً ومستفسراً، قال الأستاذ: "يمكنك أن تتخيل أن العلاقة بين الفلسفة والدين كعلاقة سلاف بصديقتها وجارتها، سهر" ضحك البعض، ابتسمت سهر بخجل وقد اصطبغت وجنتاها وبدتا كمشمش صيفي، لم تفهم قصده تماماً لكن كان يكفي أن يذكر المعلم أو أي أحد اسمها حتى تضطرب وتحمر خجلا. أما سلاف ففهمت قصده تماماً كيف لا وهي ابنة أستاذ اللغة الإنكليزية الذي تعلمت منه أكثر مما تعلمته في الحصص، نظرة فيها قوة الأمازونيات ارتسمت على ملامح سلاف.

- "ما رأيك أن تأتي معي عصر اليوم إلى الخيّاطة أم هشام ونتفق على التمرين على يدها، إنها ماهرة جداً يا سهر وإني متأكدة أننا سنتعلم منها الكثير" قالت سلاف وهما تتمشيان.

- "لا أريد ولا أحبّ أم هشام العصبية تلك"!

- "دعكِ من عصبيّتها الآن، ألا تحبين التفصيل والخياطة! وتصميم الأزياء الجميلة! وإلباس السيدات؟".

- "لا، لا أحبّ ذلك كله" ردت سهر.

- "لا أعتقد أنك ستنجحين في الدراسة ولن تكملي دراسة جامعية، حسناً ما الذي تحبينه غير النهوض من السرير الدافئ المريح والمجيء في البرد كل صباح إلى هذه المدرسة الغبية؟ أخبريني هيا! هل تحبين الطهو، الغسيل، ثرثرة الجارات على الغائبات منهن بالتناوب؟!".

t.me/yasmeenbook

- "لا أدري! لماذا أفكر بذلك أصلاً، ماما تقول البنت مصيرها لبيتها وزوجها وأطفالها وهذا كافٍ ماما معها حق".

- "أيتها الغبية أمي أيضا تقول ذلك وفعلت وتفعل ذلك لكن هل تريدين ذلك حقاً؟! هل ستقضين عمرك في المطبخ وبعد عشر سنوات تصبحين بحجم دبابة لزيادة وزنك، وبرأس منكوش كالمكنسة؟! ولا تملكين عملا يمنحك مكانة بين الناس ومالاً تبتاعين به ما يعجبك؟!".

حاولت سلاف عبثاً أن تقنع سهر بالخروج من قوقعة عنوانها (رجل يحمي امرأة). الظروف ذاتها واجهت الجيل بأكمله، والمطرقة ذاتها دقت رأس الجميع، لكنها كانت تزهر القوة في هذا الرأس، بينما تكرّس الضعف في ذاك، إصرار هنا وخنوع هناك، طموح هنا وتسليم هناك.

لم تكن سهر بقادرة على التغلب على ما ورثته من محيطها من مفاهيم كان على رأسها مفهوم الرجل السند. عندما انسحبت سلاف من الدراسة إلى الخياطة تابعت سهر الثانوية العامة وسجلت في الجامعة لكنها تزوجت في السنة نفسها، وعندما تعقدت ظروف الحرب وأصبح الوضع الأمني أصعب مع مرور الأيام، أصبح من الصعب أن يمرَّ فصلٌ دراسيٌّ دون انقطاعات متعددة تحولت لدى سهر إلى انقطاع طويل، ثم نهائي. في حين تحولت سلاف من متمرنة إلى معلمة لها اسمها كخياطة ماهرة في المدينة كلّها.

خرجت سلاف من مجلس عزاء النسوة لتصطدم عيناها بعينيه وهو خارج من مجلس الرجال. لم يصبها ما أصابه من اضطراب، ماهر الذي بدا عليه الإرهاق الجسدي والنفسي. "مرحبا" قال ماهر.

"أهلا ماهر، الله يرحمه لا تجلد ذاتك ماهر، أنت لست السبب، إنه القدر" ردت سلاف.

ودعته خارجة من البناء رافعة رأسها بثقة. استغرب ماهر كيف لها أن تقول ما قالته ومن أين علمت ذلك! على أية حال إنه متأكد أنها لم تقل عبارتها تلك إلا لغاية في نفسها والله أعلم ماهي الغاية.

وبينما هو يتساءل سمع صوتها "آه نسيت هاتفي المحمول في الصالة، الحزن أعمى بصرنا" قالت ذلك وأسرعت إلى الصالة تطقطق بكعبها العالي الأنيق. لا يدري ماهر لماذا ظل واقفاً في مكانه دون أن يدخل ثانية إلى مجلس الرجال. "كي لا توجع رأسك وتفكر كثيراً، عرفت ماحدث لأحمد ليلة الحراسة من صديقك جوان". قالت حين عادت حاملة جوالها محاولة حشره في حقيبتها الصغيرة الأنيقة.

"جوان؟!!" تساءل ماهر متعجباً.

t.me/yasmeenbook

أحبّك بالنيابة عن كلّ الذين رأوك ومضوا ...

دستويفسكي

t.me/yasmeenbook

ماهر

حمص، شتاء 2014

أبصر الصغير النور وأخذ يشتد عوده، شهور مرت كان خلالها الجيران والأقرباء والأصدقاء يواسون عائلة أبي أحمد كما جرت العادة عند استشهاد أحدهم. ويزورون بيت أهل سهر. أصدقاء الحرب وقفوا إلى جانب أهل أحمد وسهر . "أحمد الصغير! اعذرنا تأخرنا في المجيء إليك! أخرّتنا الحربُ! أنت إذن صاحب الركلات الرهيبة، أيّها البطل" قال ثائر حاملاً الصغير بحذر وحيطة شديدين، "لا تخف لقد كبر واشتد عوده، صار عمره اليوم ستة شهور" قالت سهر. أم أحمد تتأمل الصغير وتفشل في وقف شلال دموعها. جوان الذي أصرّ على مرافقة أصدقائه لمباركة مجيء أحمد الصغير خاطبه: "هيا اكبر بسرعة كي أعلمك العزف على الباغلمة!".

ماهر الأكثر شعوراً بالواجب، كان كل أسبوع يحاول بشتى الوسائل أن يتوسّط لدى العقيد ويزيد من إجازاته وزياراته ليطمئن على أهل أحمد وسهر والصغير. ما يزال الذنب أكبر من أن يتجاوزه والشعور بالمسؤولية حيال ما حدث يثقل كاهله.

"من يترك المصائب تحل على رؤوس النساء دون أن يحرك ساكناً، لا يختلف كثيراً عن النساء!" قالت أم ماهر باحتجاج وقد خلعت منديل رأسها باستياء ورمته على الأريكة وجلست صامتةً يبدو عليها الحزن والغضب، كان ذلك عند عودتها من بيت أهل سهر تطمئن

t.me/yasmeenbook

على الأم الثكلى والزوجة الأرملة الوالدة حديثاً والرضيع اليتيم الـذي "رؤيته تقطع القلب" حسب وصفها.

"لكن الجميع يا أمي يقدمون الكثير، هذه استطاعتهم وقـدراتهم"، ردَّ ماهر حاملاً الريموت كونترول يقلب بين القنوات التلفزيونيـة بتـوتر لم يفلح في إخفائه.

"لكنك تستطيع أن تقدم أكثر من الجميع يـا مـاهر، لسـهر وابنـها" قالت أم ماهر ناظرة في عينيه بقوة.

لم يكن ماهر يتوقع أبداً أن يسمع ذلك، ارتجفت يـده، أزاح نظـره عن التلفاز نظر في عيني والدته بتساؤل، ثم أدرك مـا الـذي تعنيـه، لم ينبس بكلمة. أخفض نظره أرضا، عاود النظر إلى والدته التي مـا تـزال عيناها مسمّرتين بعيني ابنها، هزّت رأسها "لا يحتاج الأمـر إلى الكـثير من التفكير، أنا ذاهبة لتحضير العشاء، سماح! اتبعيني".

تركته في غرفة الجلوس وكأنها تريـد أن تمنحـه الفرصـة ليفكـر في الأمر. لحقت بها سماح. وقبل أن تتفوه بكلمـة سـارعت الأم بـالقول: "عليك أن تقنعي أخاك بذلك، دورك مهم جداً، لم يرق لي مـا فعلتـه تلك اللعوب يوم عزاء أحمـد، سـلاف لا تناسـب مـاهر، لـن أدعهـا تخدعه أفهمتِ".

لم تنس سلاف جوالها في الصالة يومها ولما دخلت الصالة قالـت لأم أحمد إنّهـا عـادت لتؤكـد اعتـذارها عـن غيـاب والـدتها وذلـك بسـبب توعكهـا، كـل ذلـك لم يكـن إلا ذريعـة منـها لتعـود وتـرى مـاهر ثانيـةً وتحدثـه، وكانـت متأكـدةً أنـه ينتظرهـا بالخـارج، إنهـا تثـق بحدسـها وتأثيرها، لا لجمالها فقط بل لحنكتها وسرعة بداهتها، هذا مـا أرادت أم ماهر منعه، فما تعبت لمنعه بالأمس لن تسمح بحدوثه اليوم.

t.me/yasmeenbook

لم تجد سماح كلاماً مناسباً ترد به على والدتها. كانت تتساءل عما إذا كان من الممكن أن يقتنع ماهر فعلاً أن يفكّر بسهر؟ هل هو نوع من الشبان الذي يتزوج بهذي الطريقة عروساً اختارتها الأم؟ زواج واجب؟ وهل يقبل الزواج بزوجة صديقه الذي لم يمضِ على استشهاده سنة؟ تساءلت سماح هل يمكن لوالدتها أن تؤثر فعلاً بماهر إلى حد القسر والإجبار أم أنه إكراه بهيئة إقناعٍ واقتناع! وهل ستعلم والدتها ما جهلته طيلة سنين: أن سلاف ليست هي التي تحبّ ماهر فحسب، بل إن ابنها متيمٌ بسلاف أيضا .

"أعتقد يا أمي أن ما تخططين له صعب جداً فماهر قلبه مشغول" قالت سماح بصوت خافت ولم تنظر بعيني والدتها منشغلة بتقطيع الخيار والبندورة. راحت أم ماهر تؤكد لابنتها أن قلب ابنها ليس فيه أيّ حبّ لسلاف، وليس في الأمر إلا إعجاب شاب بابنة الجيران جميلة الشكل التي يحبّها كل الشبان حولها. كان دفاع أم ماهر عن هذه الفكرة دفاعاً مستميتاً لم ترَ سماح مثيله ربما في حياتها كلّها، إلا عندما دافعت أمّها عن ضرورة إكمال سماح لدراستها وان كان بدمشق.

وبينما والدتها تتحدث، شردت سماح لتعود بذاكرتها إلى ذاك المساء في الزقاق خلف بيتهم. كان الجو خريفياً وكان ذلك قبل التحاق ماهر بالخدمة بيوم واحد فقط، بينما هي عائدة من المكتبة وقد اشترت بعض الدفاتر والأقلام، تحضيراً لبداية الفصل الدراسي، سمعت فجأة صوتاً تعرفه: "اصمت! لن تموت لن تفعلها يا حبيبي لن تفعلها اصمت أرجوك" وصمتَ ماهر فعلاً لكن صمته كان على شفتيها. قبلةٌ طويلةٌ، هادئة ومجنونة بآن معاً. وما إن يبعد ماهر شفتيه حتى تبادله سلاف بقبلات محمومة متوالية يتخللها صوتها المخنوق "أحبُّكَ! لن تموت! أحبُّك".

t.me/yasmeenbook

لم يكن فقط الفضول لمتابعة مشهدٍ غراميّ هو ما سمّر سماح في مكانها تراقب، بل كانت الدهشة. لم تستطعْ أن تمنع نفسها عن تأمل ما يحدث، ذاك المشهد كان بالنسبة لها صادماً وغريباً جداً يجمع كل المتناقضات التي تعرفها سماح. الحرب تشتعل والخطر يحيق بهم، وماهر يُرسَل إلى الموت لكنه عاشقٌ، سلاف المعروفة بصلابتها وقوتها، تبكي الآن! تنتحب لغيابه، ضعيفة بين يديه مستسلمة حتى الثمالة ملتصقة بجسده تأبى ابتعادا. أهذا هو الحبّ الذي لم تعرفه سماح إلا في الروايات؟! ماهر أخوها، المعروف بجديّته وحزمه واقتضاب كلماته وسداد رأيه وقوة شخصيته يهدّئ من روع حبيبته يحتضنها يقبّلها، كانت سماح تظن أنه شابٌ من حجرٍ أو جليد، لا يمكن أن يعرف الحبّ طريقه إلى قلبه ولا يمكن حتى أن يعشق. فتاة مثل سماح تظن أن أباها لم يعشق أمها ولم يقبّلها ولم يمارس مع جسدها الحب بشهوة! وكأنها وأخوتها هبطوا من السماء في سلال سحريّة، ولم يكونوا ثمرات لحظات حميمية! وتعتقد أن أخاها لا يمكن أن يذوب كما تراه الآن على شفتَي حبيبته، يلعق دموعها بلسانه ويصبرها ويحتضنها ويسرح بأصابعه شعرها ويمسّد كتفيها وظهرها بحنان بالغ! ما كان من سماح إلا أن مشتْ بصمتٍ وهدوء كي لا ينتبها إليها.

ما الذي سيحدث لو علمت والدتها بحقيقة عشق ماهر؟ ثم ما الذي يمكن أن تفعله كوالدة؟ هل ستقف في طريق سعادة ابنها؟ كانت سماح متوجّسة جداً. ثم خرجت من التفكير بعلاقة ماهر وسلاف وأخذت تفكر بنفسها. تساءلت "هل يعقل أن تمنع أمّي ماهر عن فتاة فقط لأنها لا تراها مناسبة؟ واذا كانت قادرة على فعل ذلك مع ماهر ابنها الذكر، فما الذي يمكن أن تفعله مع البنت؟! ماذا لو كنت أنا

t.me/yasmeenbook

بمكان ماهر واخترت شاباً لا يعجبها؟" كانت قلقةً جداً على ما لا تعرف ومالم يأتِ بعد. وقررت أن تنهي هواجسها وتساؤلاتها ومخاوفها بالكلام: "ماما اسمعيني أرجوكِ! ماهر يحبّ سلاف وهي تحبّه، ويمكن أن تتأكدي من ذلك بنفسك اسأليه ! أعتقد أن كل ما تتمنيه هو سعادة ماهر!" قالت بجرأة.

"أنت لا تفقهين من الأمر شيئاً، ماهر لا يحبّ تلك الحرباء!".

"بل أحبها يا أمي، أحبها جداً، وهي أيضا تحبني!" قاطعها ماهر الذي استمع إلى حديثهما وقد وقف مستنداً بكتفه إلى باب المطبخ.

بعد صمت للحظات ردّتْ أم ماهر بحنق: "ليكن! لن يتزوج ابني بابنة المخطوفة!!".

أبي تعالَ.. ويجري من (تعالَ) دمُ

جاسم الصحيّح

t.me/yasmeenbook

سُـــلاف

حمص، خريف 2014

لم تكن سلاف تتوقّع أن يحدث لها هي بالذات كل ما حدث وأنها هي، التي لم يكن أحد منتبهاً أنّها كبرت ونضجت، ولم يعوّل أحدٌ على دورها، معنيةٌ الآن بأخذ زمام المبادرة. سكتةٌ قلبيةٌ أسكتتْ صوت الحياة في عروق والدها في تلك الليلة التي رفعت فيها الرصاصة صوتها وقتلت جميل، فكان الموت بطل تلك الليلة. أثبت القدر أن هؤلاء الذين لا يعوَّل عليهم في الحياة والتغيير، هم الذين يمارسون أدوار البطولة، هؤلاء وحدهم هم الخيميائيون الحقيقيون الذين يحولون الهوامش إلى متون، وأيّة متون!.

سيّدة خمسينية تقف وسط صالة مشغلها للخياطة، تنتظر سلاف كي تأتي وتسلم عليها، تقدمت منها سلاف والرهبة تملأ قلبها فملامح تلك السيّدة مهيمنة بشكل كبير، نظرتها القويّة جدا، بشرتها السمراء وشعرها القصير وعيناها الضيقتان، صوتها الخشن وطول قامتها، كل مافيها جعل سلاف ترتبك في سلامها، بعد التعارف، سألت الخيّاطة المخضرمة سلاف: هل تعلمين ما الذي يعنيه أن تكوني خيّاطة يا سلاف؟! دعيكِ من كلام الناس السّخيف حول العلم وأهميته كسلاح للفتاة وأن المتعلم أفضل من الحرفيّ.. أجيبي هيا!" قالت الخياطة أم هشام محركةً يدها المليئة بالخواتم الثمينة بكبرياء. نافثةً الدخانَ من بين شفتيها وقد زمّتْ عينيها الضيقتين المحاطتين بالتجاعيد ناظرةً بوجهها اللافت، رغم عدم جماله، إلى سلاف بإمعانٍ وإعجابٍ بآنٍ معاً.

t.me/yasmeenbook

أرادت سلاف أن تثبت للجميع أن خروجها من المدرسة وعدم نجاحها في التعليم لا يعني فشلها في الحياة، وأنّ الخسارة التي مرت بها جرّاء ما مرّ بأسرتها لا يعني أنّها مهزومةٌ. كانت مصممة أنّ تذكرتها إلى النجاح مازالت سارية المفعول وأنّها ستصل بسلام. صحيح أنّها شغوفة بتصميم الأزياء والتفصيل والخياطة والتطريز، لكنّ شغفها بالنجاح كان أكبر، لذا قررت ألا تبدأ العمل إلا بعد أن تصقل موهبتها على أيدٍ خبيرة. ولأن أم هشام، الخياطة العزباء إلى الآن، كانت معروفة بحرفيّتها العالية التي اجتذبت إلى حمص زبونات من دمشق وحماه واللاذقية، اختارتها سلاف دون أن تعلم أن عليها أن تترجاها لتقبلها كمتمرنة نظراً لضيق وقتها وقلة صبرها على المتعلمات الجديدات. لكن بعد أن عرضت سلاف خدمات تساعد فيها الخيّاطة التي تقدمت في السن وثقلت حركتها، وافقت أم هشام لكن بشرط أن تدفع لسلاف لقاء خدماتها لأنها بهذه الحال ستكون أكثر من مجرد متمرنة. موهبة سلاف ستجعل أم هشام غير نادمة على قبولها في مشغلها الفخم.

ذهبت إليها سلاف لتتمرن بينما كانت رفيقاتها على مقاعد الدراسة الجامعية وبعضهن كنّ في السنوات الأخيرة أو تخرجنَ. لم يكن حجم الهمّ والتوتر الذي هطل على رؤوس الطالبات بأشدّ من توتر سلاف، التي رسم يومها هذا بدء مرحلة جديدة في حياتها، لن يكون ما بعدها كما قبلها أبدا.

عندما سألتها أم هشام هذا السؤال لم تكن تمتلك الإجابة عنه فوراً وحتى وإن كان لديها جزء من جواب، فهي لا تجرؤ على الكلام بسهولة بحضرة سيدة كانت معروفة بشخصيتها الواثقة المتسلّطة وانتقادها المعلن الذي لا تخفي منه شيئاً واعتزازها بمهنتها وحرفيتها

t.me/yasmeenbook

وفنها. لكن سلاف كانت تريد أن تقول لأم هشام: "معك حق. فكلام عن العلم بأنه سلاح هو حقاً كلامٌ سخيف". أبوها الله يرحمه كان أكثر علماً وثقافةً من كل من حوله. كانت سلاف تراقبه وهو يقرأ في اليوم الواحد أكثر مما قرأه كل جيرانه ورفاق الحي في حيواتهم كلّها. "ليتكِ كنتِ تحبّين الكتب والعلم كأبيكِ يا سلاف، جيّد أن جميل كذلك، يقبرني جميل سرّ أبيه" كان هذا كلام أم جميل الذي تسمعه سلاف كل يوم تقريبا. "الكتب لا تروق لي والنهوض باكراً للذهاب إلى المدرسة يومياً هو العبء الأثقل في حياتي كلّها" كانت تلك إجابة سلاف التي لا تودّ الأم أن تسمعها.

كان أبوها عندما يحتاج إلى المال يذهب للاستدانة من الحداد أو من صاحب السوبرماركت عند أول شارعهم، وعندما يدخل إلى المنزل كانت سلاف تلاحظ الضيق على ملامحه، شيء ما كان يخبرها أنّ الأمر يتعلق بالنقود، لكنّ أباها كان دائم التهرب من أسئلتها،

"بابا أنا لم أعدْ صغيرة، أنت في ضيقٍ مادي أليس كذلك؟!".

"لا لا أبداً، أنا فقط متعب وأريد بعض الراحة وكوباً من الشاي من صنعك حبيبتي!".

إلى أن حدث ما أكد لها صدق حدسها. ففي إحدى المرات وبينما هي في طريق العودة من المدرسة متثاقلةً مستاءة، ليس فقط من الحقيبة المدرسية التي كانت كتب الصف العاشر تملؤها وتكسر ظهرها وليس كذلك من عبء المدرسة والدراسة، وإنما من أمر آخر سبب استياءها، صراخ أحدهم ينتشر في الشارع.

"طلبتَ إليَّ أن أمهلك حتى نهاية الشهر، وبدأ الشهر الجديد وانتصف الشهر وأنت لم تسدد ما عليك! إلى متى سأتحملك يا رجل؟!" سارعت سلاف خطاها، توقفت عند أحد المحال ومدت

t.me/yasmeenbook

عنقها تسترق النظر لتفهم سبب صراخ جارهم صاحب السوبر ماركت، وإذ بأبيها يقف أمامه يتمتم بصوت خافت خجلاً، يبرر تأخرَّه، وذاك الرجل يصرخ بكل غرورٍ، رافعاً يده مهدداً غير آبهٍ بحرص أبي جميل على ألا يسمعهما أحد! شهقت سلاف حين رأته، وأحست بدوار عاصف، وكأن الكرة الأرضية تمركزت في رأسها الفتي، وفي قلبها كل حبّ الأرض لأبيها تفجر الآن فجأة، دفعةً واحدة وبلحظة واحدة. احمرّ وجهها "بابا بابا ماذا هناك؟!" صرخت بخوف واقفةً بالباب كطفلةٍ تائهة. التفت أبو جميل متفاجئاً غير متوقع وجودها الآن، وهرع نحوها وأشار بيده إلى الجار أن يتوقف عن الكلام، عندها ضمّها إلى صدره بقوة، ومشيا معاً. كانت تلك المرة الأولى وربما الوحيدة التي تذكرت سلاف أنه شدّها إلى صدره على هذا النحو وكأنما جوارحه كلّها تريد أن تقول لسلاف ألا تخشى على أمانها. قميصه الذي لامس خدها، وصدره الذي دفنت وجهها فيه كانا أكثر من مجرد جسد يرتدي قماشا، لقد شعرت أنها في البيت قبل أن تصله، كان حرصُه على خوفها رداءَ روحها، وعبقهُ كان أبعد من مادة كيميائية تخللت الأغشية المخاطيّة لأنفها الصغير. منح ذلك كلّه السكينة لقلبها الذي تسارعت ضرباته دافعة الدم إلى وجنتيها. كانت ستطمئن أن مصدر أمانها بخير وأن أحداً لن يجرؤ على زعزعته، لولا أنه طلب إليها ألا تخبر والدتها ما رأت وسمعت، لم يدخلا المنزل إلا بعد أن حصل على وعدٍ منها بذلك. هذا ما ولّد لديها إشارة استفهام ستدرك معناها لاحقاً.

لا تدري سلاف كيف قفزت إلى ذهنها تلك الحادثة عندما قالت لها أم هشام "كلام الناس السخيف ..العلم سلاح" . فكرت سلاف أنه لو لم يكن كلامهم سخيفا فعلاً لكان ينبغي أن يكون والدها هو الأعظم بين جميع من حوله لأن سلاحه الأقوى، لكن أهل الحي كلهم يقولون: "معك قرش تسوى قرش". لو لم يكن كلامهم سخيفا لما اضطر والدها

t.me/yasmeenbook

الحاصل على الماجستير في اللغة الإنكليزية أن يستدين المال من أبي فلان وأبي علّان، ولما تحمّل أبوها يومها، صراخ ووقاحة ذاك المتعجرف الذي لا يعرف شكسبير من غوته من أحمد شوقي من أبي حسن جارهم. في تلك الأثناء وبينما سلاف تستحضر بعضاً من ماضيها كانت هنالك سيدةٌ تحادث أم هشام وقد أعطتها ظرفاً من الورق المقوى وخرجت بسرعة بعد أن تشكرتها مرات. حسناً جاءت هذه السيدة في وقتها فقد جنّبت سلاف إجابةً عن سؤالٍ صعبٍ جداً.

"اسمعي يا سلاف، الناس منافقة وكاذبة انظري" قالت أم هشام ذلك فاتحةً الظرف وقد أخرجت منه رزمةً سميكةً من النقود الورقية لا تعرف سلاف كم هي بالضبط، شرحت لها أم هشام أن السيدة التي كانت هنا قبل قليل هي صديقة قديمة درست الهندسة البيتروكيميائية في الوقت الذي ابتعدت فيه أم هشام عن الدراسة واتجهت للخياطة، توظفت بعد التخرج وتزوجت موظفاً وأنجبت منه طفلين، وهي ليست الوحيدة التي تستدين من أم هشام بشكل دائم .

"أرأيتِ! إنّها باش مهندسة قد الدنيا، وتتحدث عني في المجالس أنني فاشلة وجاهلة وأنني (يا حرام) مجرد خياطة وأنهم هم (الناجحون والمتعلمون)، لكنهم يطلبون المال كلّ شهر مني أنا الفاشلة هههههه" قهقهت أم هشام طويلاً رامية ظرف النقود على طاولة عريضة احتوت إبراً وبكرات من الخيطان الملونة وقطعاً من القماش ومقصات، ووعوداً لغد سلاف. ضحكت سلاف في محاولة منها لإرضاء معلمتها الجديدة التي تعادل أجرة تفصيل فستان واحد عندها، فستان واحد فقط، الراتب الشهري للمهندسة وغيرها من المتعلمين الموظفين، استمرت في الضحك متأملةً ملامح أم هشام العميقة الواثقة والقوية ومدركة تماماً أن ضحكةَ أم هشام بحد ذاتها، مدرسةٌ.

t.me/yasmeenbook

الإنسان هو مجموع نكباته...

وليم فوكنر

t.me/yasmeenbook

ماهر

ريف دمشق، خريف 2014

لم يستطع أن يتخلّص من الذنب الذي حضر كحضور صوت أحمد في مسامعه كل يوم عندما قالها، وملامحه المشرقة يومها وابتسامته الطيبة. "زكاة حرب" قدمت روحك يا أحمد زكاة حرب. الأقسى من ذلك كان الإحساس المتكرر والمتجدد يومياً بدفء جثة أحمد التي لامسها ماهر بقدميه الحافيتين عندما كان لاهثاً وسط الحريق والدخان باحثاً عنه، متأخراً عن إنقاذه. كان ماهر يصحو كل يوم مذعوراً يتحسس سريره وقدميه والأغطية، تفاصيل تلك الليلة كلها كانت تقض مضجعه كل يوم إلى حد الانهيار.

"لا تضخّم الأمر، أحمد ليس أول أو آخر شهيد فقدناه" قال ثائر

"لقد قتلته أنا يا ثائر" رد ماهر بحزن

"لم تقتله يا ماهر، دعك من هذه الهواجس والأوهام، حرّر روحك حرام عليك" قال ثائر وقد استلقى في سريره بادياً عليه التعب، أمسك ركبته بيده وأدار ظهره بصعوبة وحاول النوم مجدداً، شعر أن ماهر مازال مستيقظاً، التفت إليه وقال: "إن أقلقت نومي ثانيةً، فسألحقكَ بأحمد، ما دمت مشتاقاً له إلى هذا الحد" ابتسم ماهر بحزن.

"أحذرك! فأنا منهك من حراسة أمس أريد أن أنام" قال ثائر غامزاً فابتسم ماهر وبقي صامتاً، حاول أن يستلقي ليرتاح قليلاً قبل موعد

t.me/yasmeenbook

عودته من إجازته، فشعر بثقل شديد في رأسه. مئة فكرة تهاجمه، مئة هاجس. لم يفارق أحمد أحلامه، لا في النوم ولا في اليقظة منذ استشهاده. ولم يتوقف عن جلد الذات منذ تلك اللحظة أيضا. الكابوس ذاته، جسد أحمد المضرّج بالدم يصعد ببطء نحو أعلى وسط دخان كثيف، عينا أحمد تنظران إلى ماهر وتبسمان، يفتح شفتيه بصعوبة ويقول:

"ابني يا ماهر، أوصيك بابني القادم، علِّمه حب الأرض والوطن، أسمعت؟! مهما حدث، يبقَ الوطن هو الوطن يا ماهر، الوطن هو الوطن، الوطن هو الوطن..."

يصحو مذعوراً والعرق البارد يغطي وجهه يبحث عما يدّثر به وهو يعلم تمام العلم أن فراء دببة القطب مجتمعة لن تمنحه الدفء في تلك اللحظات....

في الصباح وعلى طريق العودة من حمص إلى دمشق صور تتكرر في مخيلته، صورة أحمد بجسده الصامت المدمّى، جمال سلاف الذي ازداد في السنوات الأخيرة تماماً كشوقه، والدته وقسوة لم يعتدْها في عينيها. "ابنة المخطوفة" هل هكذا أصبح اسم سلاف؟! كلمة لم يستطع ماهر حتى الآن فكّ شيفرتها والأقسى أن تقولها امرأة مثل أم ماهر، منفتحة قوية تدافع عن النساء وتقف ضد ظلمهنّ. أتقول: "ابنة المخطوفة"؟! والأقسى أنّها أمّه.

استحضرت ذكرى الكلمة التي قالتها أم ماهر، ذاك المساء العصيب حين أتى أبو جميل إلى منزلهم، في شهر ديسمبر 2013 مكدّراً مهموما على وشك الانهيار، يطلب الحل للمصيبة التي حلت ببيته.

t.me/yasmeenbook

فقد أوصل أبو جميل زوجته قبل أيام إلى مدينة عدرا[1] حيث تقيم أختها الصغرى ذات الخمسة والثلاثين ربيعاً مع زوجها منذ عشر سنوات وحيدين. لم يشأ القدر أن يرزقهما بأطفال. اختارت الزوجة أن تكمل حياتها مع زوجها، بعد أن أثبتت الصور الشعاعية ونتائج التحاليل الطبية أن الزوج عقيم ولا أمل له في إنجاب طفل، "لو كنتِ أنت العاقر لتزوج غيرك أيتها الغبية، لماذا تحرمين نفسك من الأمومة" قالت لها نساء الحي. "هذا هو قدري ونصيبي من الدنيا" كان ردُّها.

اليوم تعرضت لحادث سير وأجريت لها عملية في الكتف وحالتها الصحيّة صعبة، سافرت أم جميل إليها لتعين صهرها على ما حلّ بهما.

"هذه أمور نساء أفهم فيها أنا أكثر منك يا صهري، سأذهب أنا وابقَ أنت لترى الطبيب واستعلم منه متى سنخرجها إلى البيت" قالت أم جميل لزوج أختها. لم يكن القدر رحيماً بأم جميل التي ذهبت للبيت لإحضار ما تحتاجه أختها من ملابس داخلية وملابس للنوم، فقد كان ذاك نفسه الذي قامت فيه عناصر من جبهة النصرة بشن هجوم على مدينة عدرا العمالية، أشعلت الحرائق كسرت ودمرت وخربت وقتلت ثم هاجمت المنازل واختطفت العديد من الرجال والنساء والأطفال. شاءت المصادفة اللئيمة أن تكون أم جميل من بينهم.

ثلاثة أيام لا خبر ولا معلومة عن أم جميل، زوجها كالمجنون، صهرها يأكله الذنب "أنا المذنب كان علي أن أتدبر أموري وحدي، أعادك الله بالسلامة يا أم جميل، لعن الله الحرب، لعن الله الحرب"

---

(1) مدينة عمالية سورية تقع على بعد 25 كم من دمشق العاصمة، حدثت فيها مجزرة مروّعة في الحرب الأخيرة عام 2012 راح ضحيتها عشرات واختطف عشرات.

t.me/yasmeenbook

قال لأبي جميل على الهاتف. أختها في المستشفى صدَّقت زوجها عندما أخبرها أن أم جميل عادت إلى بيتها وأسرتها بعد إصرار منه.

"اهدأ أبو جميل، إن شاء الله كل شيء سيكون على ما يرام، سيتم تحرير المخطوفين والمخطوفات بلا شك" قال أبو ماهر مواسياً.

في الحافلة، مازال ماهر يذكر تماماً كيف كان أبو جميل يجلس على الأريكة في صدر صالون بيت أبي ماهر، لا ينظر في وجوههم، يشبك يديه، ثم يفكهما ويضع يداً على ركبته التي لا تتوقف عن الاهتزاز بينما يده الأخرى على فخذه، ثم فجأة يضرب كفاً بكف ويقف "كيف حدث ذلك، لا أصدق، أنا المخطئ ما كان يجب أن أرسلها، إنها لا تعرف أول الشارع من آخره، ترى أين هي الآن وما الذي حدث لها؟!" قال ذلك ثم وقف ونظر من النافذة كمن ينتظر قدوم أحد، جلس مجدداً كتَّف يديه، وركبتاه تهتزان بسرعة. وقفت أم ماهر مسندةً كتفها إلى باب الصالون عندما أتت سماح تحمل صينية فيها فنجان قهوة وكأس ماء، " أعانكَ الله يا أبا جميل على هذه المصيبة" قال بصوت خافت، نظرت إليها سماح ثم تابعت نحو أبي جميل، أشار بيده أن تضع القهوة جانباً وهو يقضم شفتيه بتوتر واضطراب. "جئت أشكو همي لأنني كدتُ أنفجر، لكني أرجوكم! لا أريد أن يعلم أحد غيركم بالأمر، لم أخبر الأولاد، جميل وسلاف يعلمان أن والدتهما عند خالتها في المستشفى" قال أبو جميل بصوت ملؤه الحزن والترجي والاضطراب.

كان مساءً عصيباً ليس على أبي جميل فحسب بل على ماهر الذي لم يفكر إلا بسلاف الابنة الفاقدة والدتها الآن، والتي لا تعلم الحقيقة، كان متيقناً أن فطنتها وحدسها الشديدين لن يرحماها تلك الليلة، تمنى لو أنه كان بقربها ليخفف عنها.

t.me/yasmeenbook

"هل أنت متأكد أن أمي بخير؟! الأخبار تقول إنّ هناك كارثةً في عدرا وأمي لا جوّال لديها ولا تتصل بنا من هاتف أرضي، خالتي مرمية في المشفى وزوج خالتي كلما اتصلت أجاب أنها نائمة! أظن أنها ذهبت لتساعده لا لتظل نائمةً! ما الذي حدث؟! أخبرني الحقيقة" صرخت سلاف بغضب، لكن دون جدوى فأبوها لا يجيب.

عندما علم ماهر أن بعض مختطفي عدرا قد تمكنوا من الفرار، أول ما فعله هو التقصي حول أم جميل إن كانت من بين المحررات. امتلأ قلبه سعادةً عندما أخبرته سماح أن أم جميل في بيتها وأنها زارتها مع والدتها للاطمئنان عليها. حاول الاتصال مباشرةً ببيت أبي جميل، لم يجبْه أحد، لكنه كان مطمئناً أن سلاف تحتفل بعودة والدتها من بيت الخالة التي تماثلت للشفاء، كما تعتقد.

وعند أول إجازة بعد الحادثة، جاء ماهر إلى بيت أبي جميل قبل أن يدخل بيته. فرح كثيراً عندما فتحت له أم جميل الباب "أهلا بالغالي أهلا وضمّته بحنان وراحت تدمع" توقفت فوراً مكفكفةً دموعها عندما رمقها أبو جميل بقسوة، إنه حتى الآن لا يريد أن تعرف سلاف شيئاً. وأم جميل تقاوم الحزن والدمع بصعوبة وتنفجر حين تكون وحدها في المنزل بينما سلاف وأبو جميل في المدرسة.

"الحمد لله على السلامة خالتي كيف حال أختكِ الآن هل هي أحسن؟" سأل ماهر كأنّما لا يعرف عن الأمر شيئاً وعيناه تراقبان سلاف التي دخلت الصالون تواً. كانت ترتدي بنطالاً من الجينز الأزرق الغامق وكنزة صوفية رمادية وقد لمّت شعرها إلى الأعلى فأظهر جمال وجهها ونضارة ابتسامتها "الحمد لله على سلامتك ماهر كيف حالك؟" قالت وهي تمشي متثاقلة.

t.me/yasmeenbook

"لم أمُتْ بعد، هذا الجديد الوحيد، أما أنت فيبدو عليك الفرح" لم يبدُ عليها ذلك لكن أراد أن يفرحها قليلاً. بعد أن أنهى ماهر كوب عصير قمر الدين الذي يحبّه من يد أم جميل، عرضت عليه سلاف أن يتمشيا معاً ليصل إلى البيت فتسلم على سماح. خرجا رغم برودة الطقس لكنها كانت تريد أن تبوح له بشكوكها وهواجسها. لفّت شالها الصوفيّ الأبيض حول رقبتها وارتدت معطفاً رمادياً. "الطقس بارد هل أحضر لك ما تلبسه يا خالتي؟!" سألت أم جميل.

"لا يا خالة تسلم يداكِ، الجيش لا يشعر بالبرد" قال مبتسماً لأم جميل التي طالما أحبته كابنها جميل تماماً. ردت بابتسامة.

كان يعلم أن سلاف مستاءةٌ جداً وأنها لن تصدق رواية أبيها، إنها لمّاحة ولا تنطلي عليها تلك الأكاذيب، ولا يمكن خداعها كما يعتقد أبوها.

"حتى الآن لم يخبرني والداي الحقيقة أنا متأكدة أنها لم تكن بخير هناك" قالت سلاف.

" المهم أنها هنا الآن، وأنها بخير" رد ماهر.

أرادت أن تخبره أن أمها ليست بخير وأنها تراقبها جيداً منذ أن وصلت. سلاف لا تصدق ما حاولت أمها أن تقنعها به، بأن دموعها كان سببها الحزن على صحة خالتها المرمية في المشفى حتى اليوم. بسبب ضغط زوجها كانت أم جميل تحاول أن تقنع سلاف أنها حزينة لأجل خالتها التي لا ولد لديها يقف بجانبها في محنتها، وأن لا أمل أن يكون. لكن سلاف تشكّ في ذلك، وما حدث بالأمس أكد لها شكوكها.

"لماذا لا تريد أن تصدّق يا أبا جميل" قالت أم جميل بصوتٍ مقهور.

عندما سمعت ذلك، لم تمنع سلاف نفسها من النهوض من فراشها للتنصت على والديها. مشت بهدوءٍ وأنصتت..

"والله لم يمسَسْني أحد يا أبا جميل قلت لك ذلك مراراً، أخذوا خاتمي وأقراطي فقط، هذا كل ما حدث وأنت لا تصدق، ماذا أفعل كي تصدقني؟!" قالت أم جميل منتحبةً، فهزَّ بكاؤها وجدان سلاف التي لم تستطعْ أن تحتمل ما يحدث.

"ابتعدي عني الآن، لا أريد التحدث في ذلك" ردّ بقسوة، وخرج رغم برودة الطقس إلى شرفة غرفة النوم الصغيرة، وأشعل سيجارة راح يدخنها بغضبٍ شديد.

تبعته أم جميل مواصلةً رد الاتهامات والدفاع عن نفسها بشتى الطرق، اقتربت سلاف من باب الغرفة أكثر وأكثر واضعة أذنها على الباب مباشرة لتسمع: "طلبوا إليّ أن أرتدي الحجاب وأن أحفظ آياتٍ معينة من القرآن، لم يحدث أكثر من ذلك، وحين تمكنّا من الهرب، أحدهم ساعدنا بأن غضّ نظره عن هروبنا حتى وصلنا للجيش، لقد رويت لك ذلك مراراً! لماذا تصرّ على تكذيبي؟!" ظلّ أبو جميل صامتا.

"وإلى متى ستظل هاجراً سريرنا؟ إلى متى ستنام على الأريكة؟! ما هو ذنبي أخبرني؟ هل أنا من قلت لهؤلاء: تعالوا واختطفوني؟ ألا يكفيني حزني وغمّي؟ حرام عليك! والله حرام!" قالت ذلك بصوتٍ مخنوقٍ بالظّلم وأبو جميل صامتٌ كتمثال الثلج.

أحست سلاف بدوارٍ في رأسها واضطرابٍ في جسمها وكأنّ عشرات الضفادع تقفز في بطنها، برودةٌ قاسيةٌ حلّت بقدميها الحافيتين، وأصاب أصابع يديها خَدَرٌ شديد. ما حدث لأمّها كسر قلبها نصفين، لكن الأصعب والأقسى كان ردّ فعل أبيها، كيف يجبر

t.me/yasmeenbook

أمّها على إخفاء جرحها عن ولديها؟! كيف يخفي عن ابنته ذلك، ولماذا يمنعها من مواساة أمّها المكروبة؟ ثم فوق ذلك يعاقبها بهجر فراشهما؟! ماهي تهمة أمّها؟ أرادت سلاف أن تصرخ بوجه أبيها وتوبخه وتلعن كل الثقافة التي تثقفها. تملكتها رغبة شديدة أن تأتي بكل الكتب التي اقتناها وأن تمزقها وترميها أمامه أو تحرقها ولكنها تعلم أن هذا لن يجديَ نفعاً، وقفت وقد تجمدت ساقاها عند باب غرفة والديها. لم تستطعْ أن تتحرك، انهمرتْ دموعها بسخطٍ وغضبٍ، أرادت أن تفتح باب غرفة والدتها، مدّت يدها المرتجفة، أمسكتْ بمقبض الباب، ثم سحبتها ثانيةً إلى الخلف، عادت إلى غرفتها، تمددت في سريرها وغطّتْ رأسها إلى أن غاب النور عن عينيها كما غابت الطمأنينة تلك الليلة.

روت سلاف لماهر ما حدث وبكت، كان ماهر يعلم أن سلاف ستغضب وتخاصمه لأنه أخفى عنها أمراً كهذا وهي الأحق منه بأن تعلم ما حدث لوالدتها. لم يتظاهر أنه لا يعرف بل روى لها ما حدث ليلة قدوم أبيها ذاك المساء. "سلاف حبيبتي أنا رجل وعيب على الرجل أن يفشي سراً اؤتمن عليه، وتلك كانت رغبة أبيك: ألا نخبر أحدا بالأمر!" قال لها .

"ألا تخبروا أحداً بالأمر؟! هل أنا أحد ما؟ وأنت؟ أنت رجل! والرجل لا يصارح حبيبته في أمر يتعلق بوالدتها هي! نعم وأبي أيضا رجل من حقّه أن يفعل ذلك بي وبأمي! برافو ماهر شكراً جزيلاً لأنك تركتني أسيرةَ الشكّ طيلة الوقت ولأنك أخفيت عني ألم أمّي. لكن عليك أن تعلم أنّ أمي أشرفَ النساءِ، وضفرها عندي أغلى من نساء ورجال الأرض كلّها. أفهمت؟!" قالت سلاف ذلك ومشتْ باكيةً بغضب تاركةً ماهر يناديها بلا جدوى.

t.me/yasmeenbook

لم يكن ذكاؤها بغافل عن السبب الذي دفع أباها للذهاب إلى بيت أبي ماهر تحديداً دون غيرهم. الأمر لم يكن مجرّد ضيقٍ أراد أن ينفس عنه، كان من الممكن أن يذهب إلى غيرهم، وليس لأنهم موضع ثقة عنده أبدا، سلاف التي لم يدرك أبوها يوما أنها كبرت ولم يعرف يوماً كيف تفكر، تدرك تماماً كيف يفكر هو، لقد أراد أن يوصل رسالة لهم تقول: "الفتاة التي يحبّها ابنكم، أمها الآن "مخطوفة" فهل سيغير ذلك من موقفكم حيال خطبتها لابنكم أم لا؟!

في الحافلة، ماهر يستحضر تلك اللحظات العصيبة عليهم جميعاً، قطع شروده بكاء طفلةٍ في الحافلة تتذمر ممسكةً بيد أمها وقد أصابها سأم الطريق، التفت إليها، أمها تكلمها: "اهدأي يا حبيبة قلب ماما سنصل، خذي هاتفي اسمعي هذه الأغنية" قالت الأم لطفلتها مبتسمةً محاولةً تسليتها بجوالها. نظر إليهما ماهر وتذكر والدة سلاف الطيبة، أم جميل التي ضحّت بعمرها لأجل أسرتها، ألا يشفع لها ذلك أن يرحمها الجميع؟! أم أنهم لن يتذكروا من حياة تلك المسكينة ومسيرة تعبها وتفانيها إلا أنها اختفتْ ساعةَ نحسٍ وتوقيتٍ أسود ذهبت فيه لمعونة أختها، فأصبح ذنبها أنها خُطفتْ فصار اسمها "المخطوفة" وابنتها "ابنة المخطوفة"؟! ومن أطلق تلك التسميات؟ امرأة أخرى مثلها؟!

t.me/yasmeenbook

أولئك الذين يعِظون بالسّلم لا يملكون السّلم، أولئك الذين يعظَون بالسّلم لا يملكون الحبَّ...

بوكوفسكي

t.me/yasmeenbook

سهر

حمص، خريف 2014

أشياء كثيرة لم تتوقعها سهر من قبل. لم تكن سهر تتوقع أن يحمل ابنها رجل آخر غير أبيه، لم تكن تتوقع أن تقدم لخطيبها الجديد، ماهر، القهوة الآن وهو يحمل ابن زوجها الشهيد! ابنها وابن أحمد بين يدي ماهر الآن! ولم تكن تتوقع أن تتزوج ثانية! لماذا عليها أن تتزوج أصلا؟! لكن هذا هو الصحيح وتلك هي الأصول. وهذا سيكون أفضل لها ولابنها في الحاضر والآتي. هذا ما قاله أهلها. ماهر الذي كان رفيق الدراسة يكبرها شهرين فقط، لم تكن تعتبره يوما إلا أخاً لها، فبينهما مسافة تقف في منتصفها سلاف، لم تكن سهر لتتوقع أن تلك المسافة ستضمحل. كانت تفكر في سلاف رفيقتهما في الصف! المتيّمة بماهر! "يا إلهي كم ستكرهني عندما تعلم! ستعدّني سارقةَ حبيبها!". كانت تفكر بأختها حياة التي توفي زوجها بلال غارقاً في القارب المطاطي (البلم) في محاولةٍ مستميتةٍ للهجرة، لماذا لم تتزوج؟ لماذا لم تفكر أمي أن تقنعها بالزواج ثانية؟ آه صحيح هي موظفة وليس لديها أطفال! حاجتها إلى رجل في حياتها أقل من أم لطفل وغير موظفة!

أحمد الصغير بين يدي ماهر، رفعه عالياً فوق رأسه وأخذ ينظر إليه بتمعن، له عينا أحمد تماماً ولون بشرة سهر، راح يتذكر أحمد الشهيد "ابني يا ماهر، أوصيك به علمه حب الأرض والوطن، أسمعت؟!"

t.me/yasmeenbook

في هذه الأثناء كانت سهر تتذكر ما قالته أمها يوم خطبتها على أحمد "زوجكِ سيحبكِ أكثر عندما تنجبين له أطفالا ويفضل أن يكونوا ذكوراً، إذا حمل ابنه مرة، فسيحبكِ ألف مرة".

"لم يحمله أحمد ولا مرة ولم تمنحنا الحياة وقتاً أطول ليحبني وأحبه أكثر" قالت في سرّها.

"سهر لقد اتصل الشاب التقنيّ وقال إنّ هاتفك المحمول سيكون جاهزاً عصر اليوم لقد أصلحه لك، لماذا لا تتمشيا معا وتستنشقا الهواء المنعش مع الصغير الجميل؟ خاصة أن الأمور اليوم هادئة أمنياً" قالت حياة وقد انحنت تدغدغ قدمي أحمد الصغير.

* * *

"كيف تقوم بما لم أطلبه منك؟ كيف تقرر فرمتة الجهاز دون أن تأخذ إذني ما هذا التصرّف الغبي؟! ماهذا الاستهتار؟ إنّك لا تعلم ما الذي فعلته! يا إلهي لا أصدق ما حدث؟".

"لو سمحت يا سيدتي لم يكن بالإمكان إصلاح مشكلة جهازك دون إجراء الفرمتة، أعتذر فعلاً ، اعتذر بشدّة،كان يجب أن أسألك، لا أدري كيف حدث هذا الخطأ لكنني اضطررت، كيف يمكنني أن أعتذر أنا جاهز لما تريدين" قال الشاب لسهر التي استمرت بالصراخ والانفعال دون توقف.

"تعتذر؟! وماذا يفيد اعتذارك الآن؟ وكيف يعيد كلامك الذكرى التي مسحتها؟ لن أستفيد شيئاً ولن أردّ ما ذهب حتى لو قتلتكَ الآن!" ردّت سهر بعصبية لم يعهدها أحد بها من قبل.

بدأ ماهر يهدِّئ من روعها وكانت فاقدة السيطرة على أعصابها تماماً. مدّ يده وأمسك ذراعها التي قاومته ولكن بان عليها الوهن.

t.me/yasmeenbook

سنة تقريبا مرّت على رحيل أحمد، لم تتجاوز سهر حزنها عليه. الولادة والرضاعة ونومها المتقطّع، كل ذلك أوهن جسدها وسبب لوجهها شحوباً غاب معه تألق وجنتيها وتناقصت نضارة بسمتها وبريق عينيها. "لابد أن تقاومي فقدَ الشهيّة لأن ذلك سوف يضرّ بصحتك، فكّري بطفلك الذي سيكون توقف رضاعته محتملا جداً إن بقيتِ على هذا النحو" قال الطبيب لسهر التي كانت أمها تشتكي أن ابنتها المرضع لا تتناول إلا وجبة واحدة في اليوم وذلك بعد محاولات جهيدة.

عادت سهر إلى البيت ماشيةً إلى جانب ماهر الذي صَمَتَ صمْتَ من لا يجد كلاماً مناسباً. كان يعلم أنه لم يكن من السهل على سهر أن تفقد كل ذكرى من أحمد ،كان محو الشاب لما بقي لها من تسجيلات بصوته وصور وفيديوهات كان ذلك بالنسبة لسهر فقدا بعد فقد. أحست أنها تائهةٌ لا تجد أيّ خيط تتمسك به. كانت تفكر في تلك اللحظة كيف أن زراً حقيراً في جهازٍ أحمق يكبسه شخصٌ أخرق في لحظةٍ غير مسؤولة، فيمحو ذاكرةً بأكملها، يمحو دفئاً كانت تحتاج إليه بل وتتنفسه.

استمر الصمت لحظاتٍ كانت سهر خلالها تدفع عربة أحمد الصغير وترد على مكالمة من والدتها وتطمئنها أنهما سيعودان إلى البيت حالا. مشاعر غريبة كانت تجتاح ماهر، لأول مرة في حياته يشعر بالغيرة على سهر، كان يريد أن يقول لها كفّي عن غضبك! وضعي خاتمةً لحزنك، فأحمد قد رحلَ ومن المعيب أن تشتاقي لرجل، أيّا كان، بوجود رجلٍ آخر ينوي خطبتك الآن. هو الماضي وأنا الحاضر والمستقبل، لكنه كان يحتقر ذاته كلما خطر بباله هذا الجنون. "هل أغار من أحمد؟ صديقي؟ الذي قتله

تكاسلي عن الحراسة يومها؟! أحمد الذي غاب بسببي أنا والذي كان ينبغي أن يمشي هو إلى جانب سهر الآن دافعا عربة ابنه هو؟ هل أغار على أنثى لم أحبَّها يوما ولم تكن لي أصلاً وأتت خطبتي لها كالواجب وتكفير عن خطأ كان من صنع القدر ؟ هل نسيت أنّ هذين اللذين أمامي الآن هما زوجة أحمد وابنه؟ وأن ركلة الصغير لجدار بطن أمّه كانت كفيلة بملء قلب أحمد بالفرح يوم ودّع الحياة والوجود؟".

قطع شرود أفكاره صوت قذيفة تبدو قريبةً جداً. "سأساعدكِ ولنسرع، هذا أفضل لكِ وللصغير" قال ماهر ساحباً العربة من يد سهر الهزيلة المتراخية ودفعها إلى الأمام بسرعة بقدر ما دفع تهيؤاته إلى الجحيم بينما يسترق النظر إلى وجه أحمد الصغير، الذي يغط في النوم غير واعٍ لكل ما يدور حوله من ضجيج الحرب والعقل والقلب والضمير.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

إذا أردت شيئاً فخذه بذراعيك وكفيك وأصابعك...

غسان كنفاني

t.me/yasmeenbook

سلاف

حمص، شتاء 2015

"الشغف"، كان جوابها عندما سألتها أمّها عن سر هذا الاندفاع. أعادت سلاف الكلمة بالإنكليزية مقلّدةً طريقة أبيها رحمه الله في اللفظ "Passion" فاتحةً ذراعيها أمام المرآة بطريقةٍ مسرحية.

كان المشغل عند سلاف يعادل لها الوجود، لم يكن مكاناً للتفصيل والخياطة بقدر ما كان فضاءها الذي تصمم فيه على النجاح. لم يسبق لوالدتها أن رأت هذا الاندفاع كلّه وتلك الحماسة كلّها لدى سلاف، فهي تنهض عند الصباحِ تسارع في تحضير نفسها للذهاب إلى العمل في مشغل أم هشام، أحياناً تنسى حتى الفطور. كان شعورها بالمسؤولية حيال المحيطين الذين لا يتوقفون عن تذكيرها أنها تركت الدراسة يزداد يوما بعد يوم بقدر ما تزداد ثقتها بحسن قرارها بترك المدرسة والعمل بالخياطة. فشل آخرين وأخريات في الدراسة وفي مجالات أخرى في الحياة كان يعزز إرادتها على النجاح أكثر فأكثر، أم هشام كانت أحد أهم العوامل التي عززت ثقتها بقرارها، إعجاب النساء بما تقدمه سلاف من فن وتبادل الحديث عنها في المجالس جعلها تحلّق فوق السحاب.

بينما كانت بالنسبة لكثيرين "ابنة المخطوفة"، وبالنسبة لآخرين "الجميلة الفاتنة" وبالنسبة لأم هشام "الفنانة الجنيّة" لكنّها بالنسبة للجميع كانت الخيّاطة الماهرة سلاف ذات المكانة الاجتماعية المميزة، الصبيّة المحبوبة من قبل الجميع.

t.me/yasmeenbook

لم تبدأ عملها في مشغلها بعد، فمازالت تعمل مع أم هشام، لكنّها لا تذهب إلى المشغل كمتعلّمة اليوم بل كمعلّمة، ليس فقط لأن مشغلها الخاص بها مازال يحتاج إلى بعض الرتوش والديكورات بل لأنها أرادت أن تبقى إلى جانب أم هشام التي تعاني حاليا من أوجاع في مفاصلها والزبونات كثيرات، والعمل الطويل على الماكينة مجهدٌ جداً، كانت سلاف قادرة على ضرب عصافير عدة بحجر واحد. هذا الحجر هو فطنتها اللامحدودة ومرونتها الكبيرة وتكيفها مع الظروف والأشخاص.

"بابا ورد معي هذا المثل ولم أفهمه، هل من الممكن أن تشرح لي:

When in Rome do as Rmoans do" سألته سلاف يومها كانت في الإعدادية.

"يا ابنتي هذا يعني: عندما تكون في روما فافعل ما يفعله أهلها، وهذا يقابل المثل الشعبي الذي نتداوله في بلادنا أي: "لما تكون بين العوران حط ايدك على عينك حتى لو ما كنت أعور".

"يعني يا بنتي حاولي أن تتكيفي وتراعي من حولك، فمن يخرج عن الناس يشقى" قالت والدتها وهي ترمق أبا جميل بطرف عينها في محاولة منها لتثبت له أنّها قادرة على الفهم والاستيعاب. "أصابت أمّك، من يخرج عن عقائد الناس ليس من الناس!" قال أبو جميل.

عرفت سلاف أنها يجب أن تكون المتكيفة التي تراعي عقل المحيطين وأفكارهم، فعلت ذلك لكن بحنكة والتفاف لا بانهزام، وعلمت أن عليها أن تدرك سر التميز والوصول. حين بدأت بالعمل، كانت تريد تعلّم الخياطة، الآن تريد أن تحتفظ أم هشام بصورة جيدة عنها وتروّج لهذي الصورة بين كثيرات وكثيرات من

ذوات الألسن التي لا تتوقف عن الثرثرة طيلة النهار وفي الجلسات النسائية التي كان أبوها رحمه الله يسميها (راديو وومن إف إم) وتسأله أم جميل كل مرة ليترجم ما قال. منذ حادثة اختطاف والدتها، وسلاف تحاول وتعمل لمحو صفة التصقت باسمها لتكرّس بدلاً منها صفةً بل صفات أخرى.

لذا كان قرارها بالبقاء مدة مع أم هشام لمساعدتها قراراً صائباً صبّ في هدفها مباشرة فراحت النساء يتحدّثن عن الصبيّة الوفية والمخلصة التي قررت البقاء لمساعدة معلمتها في الوقت الذي يمكنها العمل بشكل مستقل. أن تكون سلاف بنت الأصول وليست فقط الخياطة الشاطرة النشيطة، أمر يعمل على تعديل وتجميل الصورة الظالمة التي رسمها لها مجتمعٌ تبغضه سلاف لكنها تؤمن بقوة قانونه وظلم أحكامه.

"المجتمع في الشرق عبارة عن محكمة تفتيش رهيبة وقاسية وظالمة، كل منا تهمته جاهزة وكأننا نحمل عبوةً نفطيّةً أينما ذهبنا وكيفما تحركنا، وأيّة حركة غير محسوبة، ستكون عود الثقاب الذي يشعل سمعتنا ناراً، وقد يتطلب الأمر ربما عمرنا كلّه لنطفئها، نحن نمشي في حقل ألغام، لا نعلم متى سينفجر بنا اللغم وما هو الثمن، والمصيبة أننا نحن الجلادون ونحن الضحية، الجميع يتربص بأخطاء الجميع والجميع يريد محاكمة الجميع والخاسر هو الجميع أيضاً ولا نتعلم ولا نتعظ" هذا ما قرأته سلاف في دفتر مذكرات لوالدها، وكم تمنّت لو أنه منحها الفرصة لتنهل منه أكثر في أحاديث وحوارات وهو على قيد الحياة، لا أن تقرأ في دفتر للمذكرات وهو راحل. انتبهت إلى تاريخ تلك المذكرة، 12 ديسمبر 2013 كان ذلك يوم اختطاف والدتها في عدرا، أخرجت من صدرها تنهيدةً عميقة ونهضت.

t.me/yasmeenbook

ولأن سلاف كانت بصدد تجهيز مشغلها الخاص الذي استأجرته في حي الدبلان الراقي الآمن نسبياً بحمص، فقد أرادت أن تزيد من المردود المالي الذي ستتقاضاه من أمّ هشام لقاء الأعمال التي أنجزتها عنها طيلة شهور مرضها. صحيح أنها أخبرتها أن ما تقدمه سيكون مجانياً وبلا مقابل لكن سلاف كانت تعلم تماماً أن أم هشام لن ترضى بذلك بالقدر نفسه الذي علمت فيه أم هشام أن سلاف متأكدة أنها ستتقاضى كل مستحقاتها. تتمتع الاثنتان بفطنة جعلت علاقتهما سويّة جداً وجيّدة جداً ومتوازنة وهذا نادر بين النساء. كانت سلاف لطيفة ودمثة جداً مع زبونات أم هشام وكانت تغرقهن بالمديح والإطراءات على عكس اللسان السليط لأم هشام، فنجحت في تكوين هويتها المميزة البعيدة عن تقمص معلّمتها، كما يحدث عادة. فاكتسبت شعبيةً واسعةً بينهنّ. "سلاف قادرة أن تقنع أية زبونة أن لها جسد عارضات الأزياء وأن كل الفساتين تليق بها حتى لو كان جسدها متل كيس الإسمنت" هذا ما قالته أم ماهر عنها مرةً.

وبذلك نجحت سلاف أن توصل رسالة إلى الزبونات أنها خليفة أم هشام التي باتت تدرك تماماً مدى احتراف سلاف المهني ونضجها الاجتماعي: "لماذا لا تبقين في مشغلي يا سلاف لم يبق من عمري الكثير أصلاً سيأتي اليوم الذي تختطفين فيه زبوناتي كلهن أيتها الجنيّة" قالت أم هشام بمحبة ومزاح.

"ربي يطوّل بعمرك يا معلمتنا كلّنا، ويبعد عنك كل مكروه، أنت الأصل وأنا تلميذتك مهما طال الزمن، العين لا تعلو على الحاجب" قالت سلاف فشكرتها معلمتها بابتسامة خبيثة ثم ربتت على كتفها: "آه منكِ يا دبلوماسية، جنيّة أنتِ ومحتالة جميلة، اسمعي! إن مللتِ التفصيل يوما، فاذهبي للسياسة ستبرعين، فأنتِ عفريتة!" قالت أم هشام ذلك وقهقهتا معاً.

t.me/yasmeenbook

تماثلت أم هشام للشفاء، وآن الأوان لتكون البداية الجديدة إذن. اليوم كان اندفاعها أكبر ونشاطها أكبر، ستذهب لحزم ما تبقى من أشيائها لتبدأ من الغد في مشغلها الجديد الأنيق. قبّلت وجنتي والدتها بحبّ، ودّعتها واختارت أن تتمشى اليوم كما اعتاد أهل المدينة أن يفعلوا حين يكون الوضع الأمني مستقراً. الطقس شتويّ لكنه لطيف، كما مزاجها اللحظة، مرتدية فستاناً طويلاً من الصوف الأسود الرقيق أكمل أناقته حذاء خمري اللون بكعب عالٍ، حقيبة يد جلدية باللون نفسه وقد تركت شعرها متموجاً علىَ كتفَيها مستلقياً على شال حريري فاخر. لم تكن تمشي بل تطير كفراشة على الرصيف المؤدي إلى مشغل أم هشام. سعدت بمعاكسات الشبان لها. وفي لحظات الغبطة أو الغمّ يتذكر المرء رفيق الروح، تناولت سلاف هاتفها المحمول من حقيبتها الأنيقة وطلبت رقم ماهر "هيا هيا! رنّ رنّ! أريد أن يعرف حبيبي أن حبيبته ستكون بعد أيام في مشغلها الخاص. هياا!" تمتمت وروحها تتراقص طرباً. "الرقم المطلوب لديه مكالمة أخرى.."

"تباً" أرادت أن تعيد طلب الرقم لكنها كانت قد وصلت إلى المشغل فأجّلت ذلك راميةً هاتفها في الحقيبة كيفما اتفق ودخلت، وفجأة تبدّلت ابتسامتها النقيّة إلى كدر، تصلّبت يداها وتجمد الدم في عروقها وحلّ في أطراف أصابعها صقيع.

"ماهر أنا لا أريد لا حفلات ولا فساتين لكنّها أمي وأمك! ولا طاقة لي بمعارضة أي منهما أقنعهما أنت يا ماهر أرجوك!" كان ذلك صوت سهر الذي سمعته سلاف في بهو المشغل.

* * *

t.me/yasmeenbook

كما تصمم الأكمام والياقات بأناقة ودقة وعناية، صممت سلاف كل زاوية وكل ركن في مشغلها الخاص، الرخام الفاخر، ورق الجدران عاجي اللون بديع الرسوم، الأريكة الحمراء ذات الأطراف المتعرجة، كانت تراها في كاتالوجات المفروشات وتعجبها وشاءت المصادفة أن تجد مثيلها في سوق المفروشات المستعملة، السوق التي كان العديد من السوريين المهاجرين على وجه السرعة يبيعون مفروشات بيوتهم فيه، وكما تضيف سلاف على كل شيء لمستها الخاصة فتزيده جمالا ،رمت فوق الأريكة الحمراء وسائد مربعة الشكل ذهبية اللون منفوخة كفطائر الجبن الناضجة، الأضواء المخفية النقطية (السبوتات) والستائر الأنيقة أضفت جواً دافئاً محبباً.

لم تدّخر سلاف شيئاً من عملها عند أم هشام إلا ووضعته في مشغلها الذي كان حلمها وغدها، ليس هذا فقط بل حتى العقد الذي كان هدية أهلها قبل الحرب في عيد الفطر، وخاتم نجاحها في الشهادة الإعدادية، باعت ذلك كلّه، لتكمل تجهيز مشغلها. حياة جديدة دفعت سلاف ثمنها أكبر من مدخرات وعقد وخاتم.

رغم أنها كانت معتادة ألا يولد شيء في حياتها قبل أن يقتل شيئاً، وألا يدخل الفرح قلبها إلا وقد اصطحب الحزن وكأنّه ممسكٌ به لا يفارقه، إلا أنها تفاءلت هذه المرة وتمنت ألا يصدق حدسها، وسرعان ما اكتشفت سذاجتها تلك اللحظة. فكرت كيف أنها كانت للتو تودّ أن تحادثه لم يخطر ببالها أن هاتفه المشغول سيكون مشغولاً مع سيدة أخرى ومن؟ سهر! جارة الحي وصديقة الطفولة وزميلة مقاعد الدراسة! لماذا لم يخطر لها ذلك؟ ولماذا افترضت وفاءه أصلاً؟! ومتى كان الرجال أوفياء؟! وما هو الفرق بين سهر أو غيرها مادام الأمر حدث؟ لا لا، الفرق كبير جداً، فسهر هي رفيقتهما منذ

t.me/yasmeenbook

الطفولة وتعلم بحبهما منذ أيام الدراسة، يعني أن جريمتها في سرقة ماهر أتت مع سبق الإصرار؟ والآن يريد أن يفرح معها ولها، "بينما أنا الغبية أريد أن أفرحه بأخبار مشغلي الجديد؟! المياه كانت تجري من تحتي وأنا لم أدرك ذلك!" هكذا كانت تتمتم.

ككتابة عاصفة لا تتوقف عن إبهار قارئيها سطراً من بعد سطرٍ، كانت الحياة تذهلها بالمصائب مرةً إثر مرة! بدا الفرح في عينيها أشبه بطائر حلّق بها إلى سماءٍ سابعة، وفجأة، دون سابق إنذار، ألقى بها على غفلةٍ لترتطم بالأرض ارتطاماً يجهز على روحها، وكأنها لا تستحق الفرح كاملا! وكأن بدايتها الجديدة كان ثمنها، لا محالة، خسارة جديدة! أخذت تتذكر كم من الأثمان دفعت لقاء لحظات سعادة اعتقدت أنها تستحقها دون مقابل، لكن هذا ما لم يحدث أبداً، فالحياة لا ترضى بالمجان! وما تمنحه باليد اليمنى تأخذه باليسرى. لم تنس سلاف بعد أن أمّها اختُطفت في اليوم ذاته لبوح ماهر بحبّه لها. ولم تنس ولن، أن رصاصةً سكنت رأس أخيها جميل واضعةً السطر الأخير في حكايته وحكايتها في اليوم نفسه الذي وعدها أنّه سيقنع أباها باصطحابها إلى دمشق لتبدأ حياة جديدة في عالم تصميم الأزياء تحت رعايته. ولن تنسى كذلك أن قلب أبيها، بعد لحظات فقط، قرر أن يصمت ليرافق الأب ابنه إلى عوالم أخرى كان من المبكر جداً زيارة الاثنين لها!.

أي جشع هذا أيتها الحياة؟! واليوم كم من الوقت والعمل والمال والحلم صرفته سلاف لقاء يومها الأول في مملكة خاصة بها تكون فيها الآمر والناهي؟! كم من دروب وأحلام ووعود وخيبات وحسرات! جاء هذا اليوم لكن ليس قبل أن يقبضَ الثمن.

t.me/yasmeenbook

وحيدة في مشغلها كانت تفترض أنها ستكون بداية السعادة الحقيقية، كانت ترتب بعض الأقمشة وتنسق الأعمال التي لم تنهها بعد وتلك الجاهزة للتسليم للزبونات. رنّ هاتفها " ألو أهلا أم هشام معلمتي الرائعة أنا بخير، لا تقلقي".

"اسمعي يا حلوتي! أم هاني اتصلت وأخبرتها أن فستانها جاهز ستمر عليك لتستلمه. الزبونات التي بدأتِ معهن، ستكملين لهن الطلبات، هذا تعبكِ، أكمليه واحصدي ثماره اتفقنا؟!".

"حسناً اتفقنا، أريد أن أشكرك على كل ما فعلته بالأمس لأجلي، لولاك كان انهياري وشيكا" قالت سلاف ذلك وبدأت بالبكاء..

أمسِ لم تستطعْ أم هشام أن تعي ما يجري حولها تماما، لكنها استطاعت بحدسها أن ترى اضطرابا أخفاه وجه سلاف التي تكابر على ألمٍ بادٍ ليس على وجهها فحسب بل على كل حركاتها وسكناتها منذ أن دخلت وسلّمت على أم ماهر وأم سهر.

"حسناً هل أنهت عروستنا مكالمتها لنأخذ لها مقاساتها" قالت أم هشام فشعرت سلاف بوخزة في الصدر.

شهقت سهر عندما دخلت ورأت سلاف "أنت؟!".

"نعم أنا! سبق لي أن أخبرتك أني آتية لتعلم الخياطة عندما رفضتِ، أتذكرين؟" قالت سلاف فلم ترد سهر.

"جاءت تتعلم فأصبحت بسرعة قياسية معلّمة، إنها مبدعة! لا يشقّ لموهبتها غبار" قالت أم هشام واضعةً يدها على كتف سلاف.

"نعم، هي بلا شك مبدعة وموهوبة، فقد استطاعت إقناع كثيرات أن لهنّ جسد العارضات بينما أجسادهنّ مثل كيس الاسمنت" قالت أم ماهر ساخرةً، دون أن تعطي الفرصة لسهر أو أمّها لتقولا أي شيء. فابتسمت سلاف ابتسامة باردة دون أن تنبس.

t.me/yasmeenbook

رغم أن أم هشام كانت سليطة اللسان إلا أنها لم تستخدم ذلك يوما بقصد إيذاء مشاعر أحد كما فعلت أم ماهر اليوم. كانت توبّخ زبوناتها إن زاد وزنهنّ وتحرضهن على أزواجهنّ وتصف الواحدة منهنّ بالغباء والخنوع إن هي سكتت عن حقها ومطالبها، وكانت تهدد بعضهنّ بقسوة بعدم اكمال فساتينهن قبل خسارة وزن معينة، إلا أن أسلوبها كان مختلفاً عن أسلوب أم ماهر، ولم يعجبها ما قالت الأخيرة خاصةً عندما رأت وجه سلاف قد تبدّل. لكنّها كانت ماهرةً في تعديل الأجواء وقلب الموازين. وهذا ما تعلمته منها سلاف ببراعة.

"سأخبرك شيئاً يا أم ماهر! الخيّاط مثل الكاتب مثل الشاعر، كالرسام، يظن من يجهل الشعر والأدب والفن أنه يكذب، لكنه الخيال. الخيال يا أم ماهر، والخياطة فن وصنعة وخَلْق" قالت أم هشام ذلك بهدوء فامتعضت لجوابها أم ماهر بينما جاء كلامها بردا وسلاما على قلب سلاف فاستردت تماسكها وقالت:

" أما أنت يا خالة فلن أقنعك أن جسدك كالعارضات لأنك حقاً كذلك! ما شاء الله لم يتمكن الزمن من جسدك ورشاقتك مع أنَّك في العقد السادس من العمر!" قهقهت أم هشام كساحرة عجوز في كهفها المسحور يرنّ صوتها في الأرجاء سعيدة بجواب تلميذتها النجيبة. "إيّاك أن تحدثي امرأةً عن سني عمرها" أردفت وهي تقهقه.

عندها قاومت سهر ضحكاتها الساخرة وكأنها عادت بلحظة إلى مقعد الدراسة بجانب سلاف حين كانت سلاف تسخر من المعلمين والمعلمات وتقلدهم ببراعة، فتكتفي سهر بكتم ضحكتها بخجل وحياء لكن بقلب طفل يتراقص شغباً.

t.me/yasmeenbook

"جيّد أنكم تخططون لاحتفال وتفصّلون الثياب. قليل جداً ما نخيط للأفراح. كلّه للأسف تعازي وأحزان، الأسود ملأ المشغل، الله يلعن هذه الحرب، تعبنا والله هلكنا!".

قالت أم ماهر: "في الحقيقة إنه ليس احتفالاً بقدر ما هو إشهارٌ لارتباط سهر بماهر، فسهر أرملة كما تعلمين، وماهر يتردد على بيت أهلها ويهتم بأمرها وأمر طفلها. ولا نريد لألسنة الناس أن تنطلق، هكذا أفضل فسهر غالية علينا ولا نريد ثرثرة حولها".

هزت أم سهر برأسها موافقة، بينما أم ماهر تسترق النظر إلى سلاف وكأنها تسبر ردّ فعلها على ما قالت، لكن سلاف كانت تحدّق بسهر بعينين ثابتتين وقلبٍ مضطرب، أما سهر فبدت في تهربها من عينيّ سلاف، كلصّ خارجٍ من شقّة وإذ بصاحب الشقة يقف خارجاً يحدق بيديه التي حملت أشياءه وممتلكاته.

اتصال من حياة أخت سهر أن أحمد الصغير يبكي بشدة غير راضٍ بزجاجة الحليب ولا المصاصة، جعل أمّه وجدته وأم ماهر يُسْرِعْنَ في الذهاب، لكن ليس قبل اقتراح من أم هشام أدهش ليس سلاف فحسب بل الجميع.

t.me/yasmeenbook

ليس عشقاً، إنّه درسٌ متأخرٌ في الندم...

هاني النديم

t.me/yasmeenbook

ماهر

حمص، شتاء 2015

لم يكن الشتاء القارس أقسى من أيام الحرب. في غرفة جلوس بيت أبي ماهر مدفأة مازوت وضعت عليها سماح إبريق الشاي الذي بدأ يغلي لكن ليس كأعصابها، الامتحان على الأبواب والحرب دخلت الباب، كانت تقضي عطلة ما قبل الامتحان في حمص مع أسرتها لتعود إلى دمشق قبل يوم أو يومين من بدء الامتحانات حسب الظروف الأمنية وشروط التنقل على الطرقات. لم تكن الامتحانات السبب الوحيد في امتعاض سماح، بل كان قرار ماهر وأمّها الذي مثّل طعنةً في ظهر براءتها ومثلها العليا عن الحياة والحب والناس وأهلها. نجحت سماح بفضل قرار سديد من والدتها بالوصول إلى السنة الثالثة في كلية الآداب في حين كثيرات من زميلاتها كانت لا تزال تنتظر الفرصة للحصول على الشهادة الثانوية، بعضهن استسلمن للتراخي واليأس ينتظرن عريس المستقبل، ويقضين أيامهن المتشابهة جداً بلا هدف.

دخلت سماح الغرفة مرتدية بيجامة كحليّة اللون وجوارب شتوية سميكة رمادية، ولفّت على كتفيها شالاً ملوّناً سميكاً نزل إلى منتصف ظهرها تمسك بيدها ليمونة وسكيناً، "لا أريد الزكام، علينا بفيتامين (سي) هو الأساس وقت الامتحانات كما كان يقول سلام ،أتريد شاي؟! احححح برد" قالت سماح مخاطبة ماهر المستلقي على الأريكة مستسلماً لخمول الإجازات.

t.me/yasmeenbook

أومأ ماهر برأسه موافقاً على مشاركتها الشاي. "هذا برد! تعالي وجرّبي البرد عندنا في الثكنة؟!" قال ماهر باسماً.

"الفرج قريب، أو بالأحرى الدفء قريب، هاهي سلاف تبرّعت للجيش بعدد كبير من البطانيات السميكة بعد أن سمعت عن البرد هناك يوم عزاء أحمد. بنت أصول يا سلاف" قالت سماح ببراءة يعرفها ماهر جيداً.

تحولت ابتسامة ماهر إلى عبوسٍ شاردٍ دون أن يشعر. كان هناك ألف سبب يجعله مضطرباً هذي اللحظة. يكفي أن يذكر أي شخص اسم سلاف حتى يجتاحه غليانٌ موجعٌ، حاول مؤخراً أن يتخلص منه وفشل فشلاً ذريعاً، تذكر حين تمشيا معاً مرة قبل الحرب خارجين من المركز الثقافي عقب معرض متواضع للكتاب استمتعا فيه كثيراً بوجودهما معا ولا يذكر أنهما اهتما بأيٍّ من الكتب الموجودة. حينها كانت سلاف ترتدي سترةً شتويةً سميكةً جداً وشالاً صوفياً حاكته والدتها، بينما كان ماهر يرتدي ملابس خريفيّة لا تتناسب وبرد الشتاء، وأثناء سيرهما، اشتكى ماهر من البرد فرفعت سلاف الشال الصوفي عن كتفيها ورقبتها ووضعته بسرعة واهتمام حول كتفي ماهر "سترتي التي اقتنتها ماما تكفيني حتى لو كنت في القطب المتجمد، ولم تكتف خالتكَ أم جميل التي تخشى علي من البرد فلفتني بهذا الشال، والله أكاد أختنق" قالت وهي تتأكد أنها وضعت الشال بشكلٍ جيّدٍ ليمنح ماهر الدفء. "يا إلهي من المفروض أن تبردي أنتِ فأخلع أنا معطفي، ثم ألبسك إيّاه، أليس هذا ما يحدث عادة في الأفلام والروايات" قال ماهر ممازحاً سلاف وهو يلف أطراف الشال على عنقه جيدا ويقرّبه من ذقنه.

فقالت سلاف: "من جملة الأشياء غير الاعتيادية في قصتنا" كانت تقف قبالته ومازالت يداها ترتّب لفّ الشال حول رقبته، نظر في عينيها

t.me/yasmeenbook

طويلاً ثم أمسك بكفيها بقوّة كما يتكمش الطفل بيد والدته. لم ينس ذاك الخليط العجيب الذي رآه يومها في سلاف. كانت سماح تصبّ الشاي في الكوب الذي غرق فيه عود القرفة كغرق ماهر في تلك الذكرى التي لم يستطع يوماً أن ينساها. يا إلهي كيف يمكن للأنثى أن تكون كل شيء بآنٍ معاً؟! وحين تحب، فإنها تكون الطفلة الوديعة والمراهقة المتهورة، والراشدة الناضجة، والأم الحنون، إنّها الحكيمة الحمقاء، والرزينة المجنونة والعاقلة الخرقاء والعفريتة والإلهة، والملاك والجنيّة كل ذلك معا. إنها الأرض والسماء والجبال والثلوج ومافوقها من غيوم وما تحتها من أنهار وبحار، ومابينهما من زهور وطيور وفراشات، هي الشمس والقمر والمد والجزر، حب ودفء واحتواء وجنون وسخط وغضب وهدوء وعطف وخصب وعطاء. تلك هي الأنثى وتلك كانت سلاف. الدفء حينها لم يأتِه من صوف الشال بل من رائحة سلاف التي تشبّث بها الشال، الطمأنينة كانت كفيها اللتين كان يقبل باطنهما بظمأ.

تذكر حديثاً هاتفيا بينهما السنة الفائتة، أخبرته فيه أن حمص باردة جداً هذا الشتاء، ووعدها أن الشتاء القادم سيكون دافئا جداً جدا. حينها أحسّ ماهر من صوت أنفاسها على الهاتف أن الأمل سرى في عروقها فنجح في منحها الدفء.

أمسكت سماح بشريحة الليمون ورمتها في الكوب ثم أذابت فيه ملعقةً من السكر قبل أن تقدّمه لماهر، هكذا كم تشبه قصته مع سلاف كوب الشاي هذا، حامض وحلو، فرح وحزن، لذَة وألم.

تكوّرت سماح على نفسها على السجادة تكاد تلتصق بالمدفأة، "على فكرة أمّكَ لم تنم بعد! إنّها تبكي وتتساءل أين عساهُ يكون سلام في هذا البرد القارس...حقاً يا ترى أين أنت الآن يا سلام. ااااه كم أفتقدكَ" قالت دون أن تنظر إلى ماهر.

t.me/yasmeenbook

نظر إليها ماهر بحزنٍ ولم يعلّق، راح يفكّر في سلام الذي لا ترد عنه أية أخبار والذي لا يفقدون الأمل في عودته، تذكّر الليلة الباردة التي قضى فيها أحمد، تذكر شتاء قلب سلاف الآن، تناول رشفةً من الشاي ومع سقوط الشاي من فمه إلى جوفه كان ماهر يسقط بعين نفسه ويحتقرها: ما الذي فعلته أنا؟! أخي مفقود حتى اللحظة ولم أحرّك ساكناً، صبيّة بهيّة الطلعة والقلب والوجدان، أحبتني وأحببتها كما الأساطير، حطّمْتُ حلمَها بلحظة؟!! وعدتها أن الشتاء القادم سيكون دافئاً! فنزعت عنها الغطاء! أخذ رشفةً أخرى بغضبٍ أكبر متابعاً جلد ذاته: سرقتُ منها الغد هكذا ببساطة قلتُ: اعذريني سأتزوج! ومن؟ صديقتها، أرملة صديقي الذي قضى بسببي أنا؟ وبسبب تكاسلي؟! والآن أتزوج زوجته لأحميها هي وابنها وأقدم لهما الحصانة؟! والله برافو! أنا حصانة لهما! من أنا لأكون كذلك؟! ليتني خرجتُ للحراسة واستشهدتُ ليلتها وتركته لزوجته وابنه وحاضره وغده، كان ذلك أشرف لي بكثير مما اقترفت! ليتكَ هنا يا سلام لكنت أخرجتني من هذي الورطة!.

غفتْ سماح على السجادة بقرب المدفأة المشتعلة كاشتعال أفكار ماهر ووجدانه، غطّاها ببطانيةٍ كانت قد وضعتها أم ماهر على جانب الأريكة. عاد إلى مكانه، جلس وتناول كوبه الفارغ إلا من شريحة الليمون وعود القرفة، مدّ إصبعه في الكوب وتناول شريحة الليمون ووضعها في فمه، بدأ يمضغها بسخطٍ، وتابع في شروده: وهل كنت أنا صاحب هذا القرار أم أنها كانت أمي التي لم ترَ في سلاف إلا ابنة المخطوفة؟! ولم تستطع أن ترى أنها ضحية الحرب، في حين أنّها رأت ذلك في سهر. ما الفرق بين سلاف وسهر أليستا ضحيتين؟! سبحان الله كيف لم تسامح سلاف على ذنب لم ترتكبه! كيف تناست

t.me/yasmeenbook

أنها فقدت أباها وأخاها في الليلة نفسها بسبب الحرب، وتناست أيضا أن أمّها التي اختُطِفت يوماً، كانت ضحيةَ الحرب أيضاً، هل كان استشهاد أحمد عندها أقوى من كل ذلك، وهل هو الشهيد الوحيد؟ هل هو الأول أو الأخير؟ كان ذلك قدره ولا يمكن لأحد أن يرد القضاء والقدر! فلماذا أتحمل أنا وزر كل هذا؟! لماذا ظلمت أمي سلاف إلى هذا الحد! لماذا تقف امرأة ضد أخرى بكل هذي القسوة! ثم تهاجم الرجال! ومتى كانت أمي تأبه لكلام الناس ونظرة المجتمع! الآن فقط أصبح كلامهم عن سلاف مهماً؟! كيف سأصدق أمي بعد اليوم حين تتحدث عن المرأة المظلومة؟ أليست هي الظالم؟! ألم تطلق على سلاف اللقب: ابنة المخطوفة ؟! هل تخشى المجتمع وكلام الناس أم أنها تخشى سلاف ذاتها؟ بالتأكيد فلا خوف من أنثى مثل سهر، الابنة المطيعة الخنوعة الصامتة التي يأكل القطّ عشاءها! هكذا تصفها وتقول ذلك بكل غبطة وسرور! ضاربةً عرض الحائطِ بقراري وحبّي وأمسي وغدي. نتحدث عن الظلم ونحن من نمارسه، ونحارب الجلّاد ونحن الجلاد، ونقول إنّه المجتمع ونحن المجتمع.

لم تظلم أمي سلاف فقط بل ظلمتني وظلمت سهر، فسهر لن تعارض قرار عائلتها رغم أنها تعلم أن قلبي لسلاف.

أم أنها ربما سعيدة بما حدث لتثبت لسلاف التي سحرت الجميعّ بذكائها وجمالها أنها استطاعت أن تسلبها أملها؟! تناول عود القرفة من قعر الكوب وقضمه بأسنانه متابعاً شروده في أفكاره: وهل ستنتحر سلاف حزناً على أمسها معي؟! ومتى قتل الحبُّ امرأة؟! ألم تهجر لينا ثائر بين عشية وضحاها؟! أين تبخّر كل ذلك الهيام؟ صدقت يا ثائر حين قلت أن للنساء قدرة هائلة على النسيان وطاقة رهيبة في النهوض من الأزمات، لن يطول انتظار سلاف حتى تعشق شابّا غيري

t.me/yasmeenbook

وستختاره بكل تأكيد أحسن مني وأكثر وسامةً وثراءً لتغيظني أنا وعائلتي وتعلن انتصارها على الجميع. أنا أعرفها تماماً أكثر من نفسها لم نكن طوال السنين الفائتة نحفظ دروسنا معاً فحسب، كنت أحفظها هي، وقد حفظت سلاف جيداً. جيداً جداً وعن ظهر قلب.

عضّ على عود القرفة بقوّة حتى كادت أسنانه تتكسّر، كحلمه، كأمله في إصلاح ما حدث. كان ماهر حينها كمذنب يبحث لنفسه عن دليل يبرؤه مما ارتكب، وعندما لا يجده، يبدأ باتهام الجميع، كي لا يكون المتورّط الوحيد. وكل تلك المحاولات تلاشت جدواها بلحظة حين رأى على شاشة جوّاله اسم سلاف وقد أرسلت له رسالة نصيّة. ارتجفت يده وتسارع نبضه وتدفق الدم إلى رأسه قبل أن يفتحها.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

ولا قدماك تدقّان قلبي كبندقة حين تغلق الباب...

محمود درويش

t.me/yasmeenbook

سلاف

حمص، شتاء 2016

"هيا قفي يا عروستنا سهر! أنا سآخذ مقاساتك، لكن من سيخيط لك فستانك هو حلوتي، المبدعة سلاف!"

هذه العبارة التي قالتها أم هشام في مشغلها، ظلت مثارَ عتب سلاف لشهور طويلة كان يتم فيها تأجيل ارتباط ماهر وسهر بسبب احتدام الأحداث وكثرة أعداد الشهداء المشيّعة يومياً في المدينة. شهورٌ كانت سلاف خلالها تعاني تقبّل الوضع الجديد، فالمحتل صار صاحب الدار! هكذا ببساطة وبلحظة أصبحت شخصاً غريباً عمّا يجري، كان ما يجري حولها أشبه بمزحة ثقيلة كريهة، أو كابوس يجثم على صدرها وتنتظر انفراجاً بيقظةٍ أو حدث! كيف أصبحت على غفلةٍ شخصاً غريباً عن قصة كانت بطولتها المطلقة لها؟! وكأنها كانت تؤدي دوراً في فيلم وفجأة قرر المخرج، في منتصف الفيلم أن يزيحها بلا رحمة ويأتي ببطلة أخرى، وأن تكون (كومبارس) فهذا أمر مرفوضٌ بالنسبة لها، فلن يرضي غرورها كنجمة ولا يرضي قلبها كعاشقة أن يُسندَ إليها دور آخر: صديقة البطلة؟! خياطة العروس؟!

"تخيلي أنني أصبحت أتقصّى أخباره ممن كنت أعدهم غرباء عنه! سهر وأمها!! تخيلي أنني أسترق السمع إلى حديثهما في المشغل علّني أفهم شيئاً عنه؟!" قالت سلاف ودمعةٌ على خدّها سقطت كورقة خريف حزين.

t.me/yasmeenbook

يومها كانت أم هشام في زيارة لها في مشغلها الجديد تجلس على الأريكة الحمراء تضع ساقاً فوق ساق، ومسندٌ خلف ظهرها " آخ قتلني الروماتيزم!" بيمينها سيجارتها المشتعلة كاشتعال الذكاء في ملامحها، أخذت تنقّل بصرها في أرجاء المشغل بإعجاب، لم تترك زاوية إلا وأشبعتها تحديقاً. كانت ملابسها واسعةً فضفاضة وطويلة تغطي كاحلها وشعرها القصير ردّ إلى الخلف بشريط أسود. تناولت فنجان القهوة من يد سلاف فانتبهت إلى ملامحها بعد أن أنهت تفحّص أركان المشغل. كانت سلاف تمشي متثاقلةً ببنطال جينز وكنزة وردية فشلت في إضفاء بعض اللون على ملامحٍ عكست شحوبَ قلبٍ غابت عنه شمسُ قلبٍ آخر. لم تبدُ بهذا الحزن منذ ذاك اليوم الأسود، يوم رحيل والدها وأخيها. لم تكن تسمح لما بداخلها بالظهور إلا أمام شخصين فقط: ماهر في الماضي، وأم هشام في الحاضر. حتى والديها كانت تخشى على شعورهما بقدر إخفائهما الكثير من الأمور عنها خوفاً عليها. عندما لمحت أم هشام دموع سلاف ورأت ما هي عليه من كربٍ، أسندت سيجارتها إلى منفضة الكريستال الفخمة، ورفعت ساقها عن الأخرى ووقفت بصعوبة قبالةَ سلاف ثم أمسكتها من كتفيها محدقةً فيها بثقة: "اسمعي! أنا لست حزينة لبكائك الآن، أتعلمين لماذا؟ لأن الأنثى عندما تبكي رجلا أحبته، فإنها تكون قد أخرجته من قلبها على هيئة دمعة أي أنها قتلته! وعندما تمسح دموعها.." في هذه الأثناء أمسكت أم هشام بكفّ سلاف ووضعتها على خدها وأشارت لها أن تمسح دموعها، ففعلت سلاف كتلميذةٍ مطيعة...تابعت أم هشام: "وعندما تمسح دموعها تكون قد مسحته من الوجود، دفنته، شيّعتهُ وعادت من جنازته. وهكذا حزنها كل يوم يصبح أقل، وروحها تشرق من جديد، وعيناها تضيئان الأملَ بغدٍ جديد! مازال أمامك الكثير من الفرح، أفهمت؟!"

t.me/yasmeenbook

كانت سلاف تنصت بتركيزٍ شديدٍ في نبرة الصوت الواثقة متمعنةً في نظرة العينِ الحادة التي امتلكتها أم هشام، متلقفةً كلامها الذي ثمّنته عالياً جداً. ربما الآن أدركت ماذا تعنيه عبارة رددها والدها كثيراً لكنّه لم يعمل بها: (الأنثى هي الأصل!)

وكأن البدايات تستدعي البدايات وتستحضرها. تذكرت سلاف يومها الأول عند أم هشام للتمرين حيث كان حزنها على أبيها وأخيها في أوجه.

يومها سألتها أم هشام هل تعلمين ما الذي يعنيه أن تكوني خياطة؟!

الإجابة عن هذا السؤال كانت تتكوّن وتتشكّل يوماً بعد يوم خلال السنوات التي قضتها سلاف مع أم هشام إلى أن عرفت تماماً لماذا تقول أم هشام أن "الخِياطةَ خلْقٌ". وأن تكوني خيّاطة يعني أنك "خالقةٌ".

وكأنّما ذاكرة سلاف بدأت تجري مسحاً على كل ما مرّ بها خلال سنوات ممارستها الخياطة حيث وجدت في ذلك تحققاً لكلام معلمتها. أخذت تتذكر كم كانت تشعر بالرضا في كل مرة تطلب إليها زبونة أن تفصل فستاناً عندها، وخاصة عندما تمتدح أم هشام عملها أمام الزبونات. كان هناك شيء من السطوة تحسّه عندما تقف الزبونة أمامها باستعداد لتأخذ مقاساتها. تبدأ بإعطاء الأوامر: ارفعي يدكِ، أخفضيها، مدي ذراعكِ، اممم هكذا طول الأكمام جيد، ذقنكِ إلى فوق، حسناً، افتحي يديكِ لنقيس محيط الصدر، والآن محيط خصركِ، ثم محيط الوركين، أعتقد أنه عليك أن تتوقفي عن تناول الحلويات والمعجنات! كانت الزبونات عموما طائعات على نحو يبعث السرور ويرضي الغرور المتأصّل للأنا المتعطشة للسطوة. وعندما يصبح الثوب أو العباءة أو

t.me/yasmeenbook

القميص أو البنطال شبه جاهز، يشتعل لدى سلاف فضول لا يهدأ إلى أن تأتي الزبونة حسب موعد البروفة. كانت تستاء جداً إن اعتذرت زبونة عن موعد البروفة لأنها كانت تتلهّف لرؤية خلْقِها متجسّداً. كم كانت متعتها كبيرة خلال متابعة عملية "الخلق" في مراحلها الإجرائية وتتبعها خطوةً من بعد خطوةٍ بمتعةٍ وحماسةٍ كبيرين. وعندما تنتهي من العمل كلِّه ويصبح "المخلوق" وليداً أبصر النور، كانت تنظر إلى نتاج يديها، وترتعش سعادةً عندما تتأمل كيف تحوّلَ مستطيل من قماش، الجوخ أو القطن أو الحرير أو المخمل، إلى كيان فنيّ جميل يحاكي جسداً.

قبل مجيء الزبونات لاستلام أشيائهنّ الجاهزة، كانت سلاف تُلبِس المانيكان ما فصّلت، تلمسه بيديها كلّه جيداً مرّات ومرّات، وتبتعد إلى آخر صالة المشغل لتتأمله من بعيد ثم تقترب وهي تتخيل أن صاحبة الثوب ترتديه وتمشي به بين الناس. عندما تسلّم الزبونة العمل، تشعر بغصّة كأمّ تودّع ابنتها ليلة الزفاف، أو ككاتب عشية إنهائه رواية رافقته أياماً وشهوراً وربما سنيناً. إنّه الفرح الممزوج بالحرقة حين يفارق المخلوقُ خالقَه. عندها تبدأ التفكير بالخطوة التالية: الصدى والمردود النفسي قبل المادي. كان يعنيها جداً أن تقول أخريات ويقول آخرون هذا الثوب من صنع سلاف. وكانت تسعد كثيراً للتحوّل الذي يحدث لا للقماش فحسب أو للجسد الذي يحمله بل لمزاج صاحبة الجسد وكيانها النفسي الذي يعكس جمالاً ما كان سيظهر لولا احتراف ومهارة الصانع. أن تكون قادراً على تحويل القبيح إلى جميل والجميل إلى فاتن فهذا خلقٌ بديع. "أتعلمين يا سلاف! لقد طرت فرحا بالأمس، لم يرني أحد إلا وقال أنّي أبدو فاتنة! منذ زمن لم يغازلني زوجي كما فعل بالأمس، والفضل لأناملك السحرية طبعا" قالت إحداهن وقد ارتعش صوتها سعادةً لا تقل عن ارتعاشة قلب سلاف غبطة ورضىً. هو نوع

t.me/yasmeenbook

من الشعور ينطوي على اقتسامٍ رهيبٍ غير مفهوم للفرح بين طرفين، يشبه ربما لحظات الحبّ الحميمة التي تسعد اثنين! وربما يشبه لحظات نجاح الأولاد وتلك الغبطة التي تستبد بالوالدين بنفس المقدار الذي يغمر الابن، و ربما يشبه ما يحدث لقلب الأم عند قدوم المولود الثاني إلى الحياة، بلحظة ينقسم الحب واللهفة والخوف والحرص قسمين بين ولديها. ربما لا يشبه شيئاً من هذا كلّه، بعض المشاعر لا تفسير لها وهنا يكمن سرّها وسحرها.

نوع آخر من المشاعر واجهته سلاف لكن هذه المرة وهي تخيط ثوباً يختلف عن كل ما خاطت لأنه سيحاكي جسداً صاحبته مختلفة بالنسبة لسلاف عن كل السيدات والصبايا اللاتي تعاملت معهنّ وفصّلت لهنّ فساتين وأثواب. ليس لأنها سهر بماهي كذلك ولكن لأنها أصبحت خطيبة ماهر ومناسبة الفستان لقاء عائلي يتم فيه الاتفاق على عقد قرانهما، وفي اليوم التالي سيتناقل الجميع الخبر: سهر ستصبح زوجة ماهر، "يا إلهي! كيف سأستوعب ذلك أنا أخيط فستاناً لرفيقة مقعد الدراسة التي سيتزوجها حبيب عمري!!: سهر ستصبح زوجة ماهر؟!"

قالت سلاف ثم أخذت تكرّرها كطالبٍ يتمرّن على لفظ عبارةٍ بلغة صعبة لا يفهمها : "سهر زوجة ماهر، م ا ه ر، م ا ه ر، ماهر الذي قالت أم هشام أن دموعي قتلَتْه! وأنني سأخرجه من داخلي؟! آه يا معلمتي إنك لا تدرين ما الذي حلّ بي" تمتمتْ بحزنٍ وهي تقلّب القماش على طاولتها لتبدأ بالعمل. أخذت شهيقا عميقاً وزفرته من أنفها رويداً رويداً وبدأت.

أمسكت بالمقصّ العريق الذي أهدتها إيّاه أم هشام في الأيام الأخيرة لها في مشغلها، ليست عادة أم هشام حين تودّع المتمرنات،

t.me/yasmeenbook

لكن سلاف لم تكن متمرنةً عاديةً، لذلك كانت هديّتها غير عادية كذلك.

" أترين هذا المقص يا سلاف؟ إنه هدية أبي الذي عمل بالخياطة طيلة عمره وعلمني ليبقى محله من بعده. كان جدي يعمل حداداً بدمشق صنعه له بدقة ومهارة. انظري ما أجمله، تستحقه يدٌ بارعةٌ مبدعةٌ كيدكِ أنتِ" كانت مفاجأة أذهلت سلاف وأربكتها ولم تجد طريقةً تشكر فيها معلمتها، تعطّلت لغة كلامها تماماً، فما كان منها إلا أن ركضت إلى أحضانها كطفلة سعيدة بهدية العيد فضمتّها أم هشام بين ذراعيها: "أنت ابنتي التي لم ألدْ" استوقفتها كثيراً هذه العبارة وأدركت أن الحياة ترسلنا إلى النور عبر أبوين بيولوجيين، لكننا نكتسب يوماً بعد يوم أناساً جدداً وأخوة جدداً وأباً وأماً جدداً نشبههم أكثر مما نشبه أهلنا الأصليين.

فتحت إصبعيها ففتح المقصّ حدَّيْهِ كفم تمساحٍ يلتهم فريسته، وبدأت تقصّ القماش. كل قطعة تقصّها كانت تذكرها بانشطار حياتها قسمين ما قبل ماهر، وما بعده، الدرب الذي كانت ترسمه الماكينة على طول القماش، كان يقول لها لا دروب لتمشيها مع ماهر بعد اليوم، صوت الدرز طق طق طق طق كان يأخذها إلى ليالٍ طويلةٍ لم تذقْ فيها النوم وهي تتخيل الرصاص يعلو رأس ماهر طق طَق طق طق وتدعو له بكل ما أوتيت من حبٍّ أن ترحمه الحرب، وتتكبد مرارة اللا جواب عندما كان الاتصال في الحرب ينقطع لأسباب، وكذلك التواصل. كلما ركّبت جزءاً على جزءٍ، الكم على الظهر، الياقة على الصدر، الصدر على الظهر، كان اتحاد القطع المختلفة، يجعل قلبها ينزف ولسانها يقول: "سيتّحدُ جسدُ ماهر بجسدِ سهر". اعتقدتْ يوماً أن هذا الاتحاد سيكون التحاماً هي وماهر طرفاه، واعتقدت كذلك أن القدر توقف عن مناكفتها ومعاكسة أحلامها، لكن الحياة فصلٌ واحدٌ!

t.me/yasmeenbook

تذكرت هذه العبارة القديمة الجديدة التي تصرّ على الإفصاح عن ذاتها مراراً، إلى أن تحولت في حياتها إلى حقيقة.

انعكاس النور والظل على القماش، كان في عينيها صباحات التقيا فيها ومساءات أمضياها معاً في حلم، لم تنلْ منه الحرب رغم قسوتها. كلما لمست القماش الذي سيرتديه جسد سهر، تخيلت يد ماهر مكانه. انتهى عمل الماكينة جاء دور ما يجب حياكته باليد بالخيط والإبرة وبدقة. حملت القطع جاءت باللون المناسب من الخيطان وعلبة الإبر. جلست على الكرسي الهزاز المصنوع من الخيزران.

كلّ خيطٍ تدخله في سمّ الإبرة كان يقطع خيطاً من أملٍ لغدٍ لها مع ماهر، بدأت تخيط. فكانت الغرز في وريدها لا القماش. قصاصات القماش الفائضة عن الزوايا والتي تقصها وترميها جانباً، كانت ترمي معها ذكرى من ذكرياتها مع ماهر. قطعةٌ من خلف قطعةٍ، وذكرى من خلفها الذكرى. الآن هي أفضل من قبل، هل هو سرّ المقصّ العريق؟! أم أنها حقاً شيّعته حين بكته كما قالت أم هشام؟! هل تخدع ذاتها لتتعايش مع ما حدث؟ هل من المعقول أن تتعافى بهذي البساطة؟! ربما كل ذلك، ربما. لم تنتهِ من الفستان بعد، لكن كلما اقتربت نهاية العمل أحسّت أن قلبها يعلن نهاية هذا الحب . سينمو العشب على حكايتها مع ماهر وسترعى الغزلان.

ماهر الذي حفظ سلاف ويعرفها جيداً فهم قصدها من تلك الرسالة، عتابٌ قاسٍ وتذكير بخيانته لوعوده، ومحاولة لتجاهله وإثبات قوتها رغم ألمها، تخيّل ملامحها عندما يستبد بها الغرور وتقرر الانتقام، تخيلها أمامه تقف رافعةً سبّابتها مهددةً، وكأنّه سمع صوتها الذي طالما عشق نبرته الدافئة: "اسمع! إنّ كرسيّاً واحد في مشغلي الجديد الأنيق أفضل منك ومن عشرة من أمثالك أيها الخائن!"

أعاد قراءة الرسالة مرات ومرات، وكلما فتح أيقونة الرد ليكتب لها شيئا، لم يجد كلمات! أراد أن يكتب لها سامحيني ما حدث كان فوق طاقتي، كتب سامحيني، ثم حذفها سريعا، أحسّ أن أي ردّ سيكون سخيفاً، أيطلب السماح منها؟! تخيّل ردّها، ستقول: "وهل يُجبَر الرجال على الزواج في زمن لم تعد فيه البنت تخضع!"

أعاد قراءة الرسالة، فوصلت منها رسالة أخرى: "صدقتْ نصفُ نبوءتِك! هذا الشتاء سيكون دافئاً جداً جداً، لكن ليس بفضل حبّك! بالمناسبة، فستان عروسك شبه جاهز، مبروك يا عريس الهنا!"

اضطرب ماهر، وتذكر وعوده لسلاف بدفء القادم، ارتبك ولم يعرف ما الذي عليه فعله، أما الذي لم يفهمه هو أمر الفستان، راح يفكّر: "أي فستان يا إلهي لماذا لتخيط هي فستاناً لسهر؟! ولم الفستان الجديد؟! ولم الاحتفال أصلاً والحرب تغتال البيوت والأرواح! وتلك الأخرى، سهر، ألم ينبهها أحد إلى ذلك! أنسيت أنها دفنت زوجها! أبهذه البساطة تحتفل وتخيط الأثواب الجديدة؟! وتعلن بدايتها الجديدة! لكنه سرعان ما استدرك، فمثل هذه الأمور ليست من تخطيط سهر. أمّها وأمّه تتحكمان بها كما تشاءان، وهي تطيع فحسب. لكن ألمِ تجدْ أمي إلا سلاف؟! هل تغيظها بلا رحمة بهذي الطريقة؟ فعلاً إن كيدهنَّ عظيم! لا يعلم إلا الله ما برأس النساء!"

لا تعلم سلاف ما الفائدة من مراسلة ماهر بهذه الطريقة، ورغم أنها وعدت أم هشام ألا تفكر بماهر أو بالتواصل معه أبداً وأكّدت لها أنّها انتزعته من قلبها، وأنها قتلتْ وشيّعتْ ودفنتْ ونستْ، لكنها لم تستطعْ أن تفي بالوعود دفعةً واحدةً، ولم تمنع نفسها على الأقل من ردّ فعلٍ بسيط.

t.me/yasmeenbook

يومها جلست في سريرها بعد أن أرسلت لـه الرسـالة لا تنتظـر رداً ربما كما كانت تنتظر ردوده بالأمس القريب جـداً، أصـلاً مـا الفائـدة المرجوّة من ردّه؟ "رسالة لي، وزواج بها!" تمتمتْ.

"عيبٌ على الرجل أن يفشي سراً اؤتمن عليه" هزّت رأسها بسخرية واستهزاء عندما تـذكرت موقفـه يـوم اكتشـفت أنّـه أخفـى عنـها خـبر اختطاف والدتها بذريعة أن والدها ائتمنه.

"فعلاً يا ماهر عيـب علـى الرجـل خيانـة الأمانـة، عيـب!" نظـرت سلاف من النافذة، شدّت الغطاء على صدرها، إنّها المرة الأولى التي تشعر فيها أن ذاك القمر الذي ينير السماء بالخارج لا يعني لهـا شـيئاً، وأن الغيوم التي تعانقه أشـبه بفتيـاتٍ حمقـاوات الـتفنْنَ حـول شـاب وسيمٍ يلعب على عشرين حبـل! لأول مـرة تحـسّ أن النجـوم منطفئـةٌ وأن الليل فاقدٌ سحره ! وأن السذّج فقط هم الذين يساهرونه ويترقبـون الغسق وطلوع الفجر، لأول مرة تشعر أن العزلـة تخنقهـا. اعتـادت أن تشكو همومها البسيطة والمعقدة لأشخاص قلّة، أما اليوم فهي وحيـدة تماماً، لمن ستشكو ألمهـا: لأمّهـا المسـكينة المظلومـة أكثـر منـها؟! لصديقتها سهر التي تستعد اليوم للزواج بحبيبها؟! لصديقتها الأخـرى سماح، أخت العريس، التي لا تحلّ أمراً ولا تعقد آخر، والتي كانـت أمها تبذل قصارى جهدها لعرقلـة لقاءاتهمـا لأسـباب عرفتـها سـلاف متأخرة؟! لمن؟ أم أنها ستشكو همّهـا لمـاهر! مـاهر؟ مـاهر الـذي لا يخون الأمانة؟! ماهر الذي بـدأ رصـيده في قلبـها يتنـاقص تـدريجياً! صحيح أنّ حولها العديد، لكـن الوحـدة تقتلـها، شـعرت وكأنهـا في غابة، لكنها الشجرة الوحيدة في تلك الغابة.

"ألمْ تنمي بعد يـا حبـة عـيني!، إنهـا الثالثـة صـباحاً، انظـري إلى شحوبك!" قالت والدة سلاف التي نهضت مـن سـريرها لتتنـاول دواء

t.me/yasmeenbook

الضغط . أصابها المرض بعد اختطافها بشهر واحد فقط، اعتبر الطبيب ذلك نتيجة الصدمة العصبية التي تعرضت لها حين الخطف وإبانه، في حين اعتبرت سلاف أن والدها هو السبب، فقد جعلها تعاني العذاب مضاعفاً، مرة حين اختُطِفت بلا ذنبٍ، وأخرى حين عوملت كآثمة، وممن؟ من زوجها المتعلم المثقف! وقضت عمرها تكفّر عن ذنبها وهي البريئة. حين لمحت سلاف والدتها بباب غرفتها، همّت بالنهوض من سريرها متظاهرةً بالنشاط والفرح مدعيةً أنها أخذت حاجتها من النوم لأنها نامت الثامنة مساء. "أي شحوب هذا يا أمي أنت اعتدت أن تري وجهي بالميك أب هذا كلّ ما في الأمر" قالت ممازحة والدتها ثم ضمتها وطمأنتها. أمّها تصدق كل ما تقوله حبيبتها ووحيدتها سلاف التي لم تترك لها الدنيا سواها. كانت سلاف كلما نظرت مليّاً في ملامح وجه والدتها وكلما فكّرت فيها، اغتالها حزنٌ شديدٌ ممزوجٌ بسخطٍ أشدّ. كانت تختصر لها كل معاني الألم والظلم، لهذا قررت منذ سنوات ألا تخبرها إلا ما يبهج قلبها وينعش روحها التي جففّتها الهموم.

أكثرت أم هشام من التردد على مشغل سلاف مؤخراً بحجة أنها تريد الاطمئنان أن انطلاقتها بالعمل على مايرام، لكن الحقيقة أنها كانت تعلم ما يعتمل سلاف من حزن، وكأن القدر اختار لسلاف أن تكون خساراتها بالجملة، فعلاً لا تأتي المصائب فرادى، فكما خسرت أباً وأخاً في اليوم نفسه، هاهي تخسر ثلاثة من أصدقائها فجأة وبلحظة: سهر، سماح، وماهر الذي كان فعلاً صديقا لا حبيبا فحسب. من ناحية أخرى كانت أم هشام تعلم تماماً ما تتمتع به سلاف من عزّة نفس تمنعها أن تبوح بحزنها لأحد، ورغم ثقتها بقوة قلبها إلا أنها قررت أن تبقى بقربها.

t.me/yasmeenbook

فهؤلاء الذين يبدون أقوياء أشدّاء، هم في الحقيقة الأكثر احتياجاً لمن يقف بجانبهم، فعزّة نفسهم تسكتُ لديهم طلبَ العون، على عكس أولاء الذين إن واجهتهم أزمة بدأوا بالتباكي والتوسّلِ والترجّي أينما ذهبوا. فأن يكون المرء قادراً على عبور الجسور وحيداً، لا يعني أنه بغير حاجة لوجود شخصٍ محبّ موثوق إلى جانبه، لكن لا ليكفكف دمعه، وإنما ليأخذ بيده وليقول له فقط: "أنت لست وحيداً" ولا ليكشف مواطن ألمه ونقاط ضعفه، بل ليذكره بمكامن قوّته ويسلط الضوء على قدراته ويعيد إليه الثقة التي لم يفقدها وإنما أعماه حدثٌ أليمٌ عنها، لذلك يغدو بحاجةٍ لقريب موثوق ينفض الغبار عن جوهره ويذكره أنّ ماسةً ثمينةً بداخله يمكنه اكتشافها وأن الحياة لا تقف عند أحد.

دخلت من الباب صباحاً بكل حيوية وابتسام: "صباح الخيرات على سلاف ست الصبايا، كيفك!"

"بأحسن حال يسعد صباحك" ردت سلاف محاولة التظاهر بفرح لم يكن كثيره في قلبها.

وبعد التداول في شؤون الزبونات وأعمالهن وبعد بعض الاستشارات من سلاف. وبينما سلاف ترتب بعض القماش، سألتها أم هشام: " هل كلمتِهِ أو راسلتِهِ؟!".

السؤال أربك سلاف التي بدأت تنشغل بالقماش كي تتجنب النظر في عيني أم هشام "أكلم من؟ أراسل من؟ لم أفهم" حاولت التهرب.

"من؟ أبو حسن النجار؟ من يعني برأيك؟! ماهر طبعا!"

"لا لا أبداً انتهى أمره، ولماذا أراسله، انتهى أمره!" قالت وقد أدارت نصف ظهرها منشغلةً بالستارة تحاول فتحها.

t.me/yasmeenbook

ليست وحدها التي تظاهرت بعكس ما بداخلها، فأم هشام كذلك تظاهرت أنها اقتنعت بجواب سلاف "فعلاً انتهى أمره، حسناً فعلت كنت متأكدةً أنّك أنهيتِ أمر ذاك الأحمق، من لا يقدر النعمة يستحق خسارتها، برافو سلاف! برافو ياحلوتي"

زاد جوابها اضطراب سلاف ربما هذه هي المرة الأولى التي تكذب فيها على أم هشام. كانت أم هشام متأكدة تماماً أن سلاف حاولت على الأقل أن تتواصل مع ماهر، حبّ بهذه القوة، لا يمكن أن ينسى بسهولة، وشخص مثل ماهر لا يمكن أن تنساه سلاف بقرار آنيّ، وأنثى مثل سلاف لا يمكن أن تقسو كما أعلنت، على الأقل إلى حين.

حاولت سلاف تغيير الحديث: "لن أقدم لك القهوة اليوم، سأقدم لك شراباً ساحراً، سيعجبكِ، إنّه مشروب السيدات الأكابر، نساء المجتمع المخمليِ، زبوناتي الفاضلات، كركديه أحمر" قالت سلاف غامزةً مهرولةً إلى الركن الجميل في مشغلها والذي يفترض أنه المطبخ. خزانات أنيقة وردية اللون بعضها مغلق والآخر صمم ليكون رفوفاً مفتوحة، فوضعت فيه سلاف زهوراً صناعيةً بنفسجية وحمراء ساحرة، ومنحوتات من البورسلين أحدها كان لبرج بيزا المائل، منحوتة أخرى خشبية تجسّد فتاة تعزف على غيتار أنيق الأوتار طويل العنق. بين الرفوف أنوارٌ خافتةٌ تشي برقيّ ورقة المصمم. على الرّف المقابل تماماً لوجه سلاف وهي تغلي الماء، منحوتة لرجلٍ عجوز بنظارة طبية وإلى جانبه امرأة عجوز يفترض أنّها زوجته ويقرآن جريدة، كان العجوزان هدية ماهر في عيد الحب الفائت حين وعدها أنهما سيظلان معاً حتى آخر العمر وحين سألته: حتى الهرم والشيخوخة؟! أجابها "الأبدية لا تكفيني معك!" شردت سلاف في العجوزين المتكئين بحبٍّ على كتفيهما

t.me/yasmeenbook

منتظرةً الكركديه حتى يغلي "الأبديةّ! ذهبتَ قبل الأبدية بكثير يا ماهر! بكثير" أشاحت بوجهها كي لا تدمع، لا تريد أن توبّخها أم هشام الآن.

"أحلى كركديه لأحلى أم هشام" قالت سلاف وهي آتية من المطبخ حين تفاجأت بضيفٍ لم تتوقع وجوده مع أم هشام في الصالة.

"أقول له فستان عروسه لم يجهزْ بعد، ويقول أنّك أخبرتِهِ بالأمس عكس ذلك!"

"شبه جاهز، نعم، على وشك الانتهاء من العمل به!" ردّت سلاف باضطراب

"انتهى أمره؟! أليس كذلك؟" قالت أم هشام هامسةً لسلاف

"أقصد الفستان لا الكركديه!" أردفت باسمةً وقد اجتمع في عينيها مزيجٌ من عطفٍ وذكاء نساءِ الأرضِ، وهي ترمق سلاف التي تلون وجهها أكثر من الكركديه الذي تحمل.

t.me/yasmeenbook

لا تشتم سبعة أشخاص .. إذا كان مسدسك
لا يتسع سوى لـ 6 رصاصات فقط ..

خوسيه مارتي

t.me/yasmeenbook

جـوان

ريف دمشق، صيف 2016

في هدأة المساء، لم يكن يسمع إلا وزيز صرصار الليل الريفـي وأزيـز رصاص بعيد، وهدير الأفكار. أما زميلـه الجديـد فبالتأكيـد لا يسـمع أي صوت ولا حتى صوت وازع من ضمير، فقد علا شخيره محطماً الـرقم القياسي في سرعة نومه. صوتٌ آخر كسـر الهـدوء، كـان جـوّال جـوان، قبل أن يرى اسم آكري على شاشته لم يكن يرغب بـالرد، "أهـلا آكـري، صرت هنا ولم أرتحْ منك يا رجل! كيفك وكيف الشباب؟".

"أردت الاطمئنان عنك فقط! مكانك خالٍ يا جوان افتقدتك كثيراً! " قال آكري بلهفة أخ أصغر أو ابن.

ردّ جوان: "أنا قادم بالغد، جهزوا لي المناسف".

"حدد لي نوع اللحم الذي ترغب فقط" ضحك الاثنان معا.

اليوم كان دور جوان في التفتيش على الحاجز التابع لناحيـة الكسـوة[1] جنوب العاصمة دمشق. حين اقترب المساء وقلّ عـدد السـيارات وأمكـن له أخذ قسطٍ من الرّاحة، جلس ليشرب المتة على كرسـي خشـبي يشـبه عقل وكلام هذا الزميـل الجديـد الـذي يسـاهره، والـذي يصـرّ علـى أن الصراع سببه الاختلاف والتنوع في حين حاول جوان أن يشرح له، عبثـاً، أن حـل الصـراع إنمـا يكـون بـالاختلاف والاعتـراف بـالتنوع والعـيش

(1) ناحية سوريّة تابعة لمحافظة ريف دمشق تبعد عن العاصمة دمشق حوالي 18 كم.

t.me/yasmeenbook

المشترك الواحد. وعلى الرغم من أن جوان مرنٌ عادةً في النقاشات ولديه قدرة ساحرة على الإقناع إلا أنه كان حينها مرهقاً مشوشاً لا طاقة له بالمتابعة في جدل عقيم، وعندما رأى جوان الطريق أمامه مسدودا لا محالة، أشعل سيجارةً، وحاول التهرّب ناهضاً عن كرسيه، متظاهراً أنه يرغب بالمشي. في تلك اللحظة، لمح على الطريق قبل الحاجز سيارة رمادية اللون تسير بسرعة، أشار جوان للسائق أن يقف، ثم مرة أخرى بالضوء ثم مرة ثالثة بالضوء لكن بعد أن وقف في عرض الطريق رافعاً يديه أمام السيارة أنْ: قفْ! وعندما لم تتوقف السيارة عند الحاجز وأكملت بسرعة، اضطر جوان إلى إطلاق النار على إحدى العجلات. هرول باتجاه السائق "ما بالك يا رجل ألا ترى الحاجز؟!"، عندها كان السائق يترجل ويركض نحوه رافعاً ذراعيه عالياً في وضعية المستسلم "احترامي! احترامي! اعذرني والله من شدة تعبي وضجيج الأولاد في السيارة لم ألحظ شيئاً".

اقترب جوان من السيارة بحذر، كان في المقعد الخلفي ثلاثة أطفال، أحدهم غطّ في نومٍ عميق رغم ضجيج أخويه المتشاجرَيْن دون توقف، صمت أحدهما حين أصاب النور من مصباح جوان عينيه فأغمضهما "اااه مزعج" قال الطفل. الآخر لم ينبس بكلمة . في المقعد الأماميِ امرأة يفترض أنها زوجته، وتبدو ممتعضة بما يوحي أن شجاراً عنيفاً دار للتوّ، وبينما جوان يراجع أوراق السيارة، كانت الأم تنهر الطفلين بغضب شديد : " اصمتا، اصمتا إلى الأبد، ولا حرف! وأنت ياشقي! ارفع يدكَ المغموسة بزيت الشيبس عن شعري" بمقدار غضبها كان الطفلان يقهقهان. بعد أن تأكد جوان أن أمور السائق ووثائقه على مايرام لم يستطعْ إلا أن يدعه يكمل طريقه بعد أن ساعده في تبديل الإطار الذي استقرت فيه الرصاصة: "لا تفعل هذا ثانية!

t.me/yasmeenbook

إيـاكَ أن تتجـاوز حـاجزا، هـذا قـد يعرضـك للخطـر، وأنتمـا كونـا شاطرَين، لا تعذبا بابا وماما، بأمان الله" قال جوان.

حين أدار الأب المحرك ومشت السيارة راقبها جوان حتى اختفت كلياً.

"وتركته يغادر بهذه البساطة، لو كنت مكانكَ لكان في جيبي الآن بضعة آلاف فقط" كان صوت زميله ذي الرأس الخشبي.

حينها اجتاح جوان حزن متعدد الأسباب، وأخذ يلعن الحرب التي جعلت الشّكَ أقرب من الطمأنينة، والقلق أسرع من الأمن، والكره أقوى من الحبّ. احتمال أن السيارة مفخخة كان عند جوان 99 بالمائة، ويساوي كذلك احتمال حتفه حين ركض ووقف في عرض الطريق معترضاً السيارة، واحتمال أن يرى شيئاً آخر غير الأطفال الثلاثة، كان كبيراً، أما الصفر هو احتمال أن يكون الأمر مجرد أسرة خرجت مساء لأمرٍ ما رغم الحرب، فحصلت مشادّة كلامية بين الزوجين، وتشاجر الطفلان ونام ثالث وقد غطّاه الأب بسترته، كل هذي التفاصيل التي كانت اعتيادية متكررة قبل الحرب كان احتمال حدوثها اليوم يقارب الصفر. الحرب شوّهت النفوس وكشفت أخرى هي بالأصل مشوّهة، لكنها كانت تتوارى متجمّلةً تحت غطاء السلم العام. فانكشف جوهرها حين اضطربت الأجواء من حولها. المعدن الحقيقيّ لا يكشفه جوٌّ آمن، الخطر هو الذي يزيل الأقنعة وهنا يظهر الأصيل من الزائف.

"حسناً سأترك لك مكاني المرة القادمة كي لا أقطع رزقك" قال جوان باستياء وهو يضع الإبريق على النار ليسخنه من جديد في محاولة لقتل البرد والوقت والهروب من القلق وصوت العقل.

"أمازحك يا رجل، ما بك؟!" قال زميله.

t.me/yasmeenbook

أراد جوان أن يقول له أنه لا يؤمن بالمزاح لأن أغلب المزاح كلام جادٌّ مقنّعٌ، أراد أن يقول له أعلم أنك لا تقول ذلك اعتباطياً، وأنك تفعل وفعلت مسبقاً وستفعل كلما سنحت الفرصة! أراد أن يقول له أن الحرب سببها أنت وأمثالك، وأن المنتصرين تكتيكياً خاسرون استراتيجياً وأن المتذاكي اليوم يمهّد طريق الخيبات لأولاده بالغد، أراد أن يقول له أن غيرك قبض ثمن أرواح أخوته قبل أن يمرر سيارات مفخخة! أراد أن يسأله ما الذي يمكن أن يعادل دم السوريين ؟! لكن الصمت كان أقوى.

إبريق الماء الذي تسمّرت عليه عيناه على النار حمله إلى مساءٍ هادئ في قامشلو، وعشاءٍ آمن في بيت مع أسرة وإبريق الفضة الذي تحبّه أمه والذي ورثته عن أمها. "تأخر العشاء كثيراً، كل الحق على إبريقك الفضي الأثري"، كان يدخل المطبخ متذمراً من تأخر والدته في تحضير العشاء. "ااااخ أنا وحدي يا ابني، مسكينة التي لم تنجب بنتاً، على الأقل تساعدني"

العديد من الأمور التي تبدو اعتيادية وغير لافتة وغير ثمينة تصبح في لحظات الفقد والحرمان والمصائب أموراً قيمة جداً بل تتحول إلى حلم. الأشياء الموجودة حولنا والتي لا ننتبه لها، يخنقنا فقدها كما يفعل نقص الأوكسجين بنا. راح يفكر بالأسرة التي غادرت، إن التفاصيل التي يراها هذان الزوجان سخيفةً واعتياديةً ومتكررةً هي بالضبط ما ينقصه، بل هي الآن حلم بالنسبة لجوان، تخيل كيف سيدخلان المنزل وترمي الزوجة بحقيبتها على السرير أو الأريكة بغضب، ثم توبّخ الأولاد وتحادثهم بعصبية وحين تبدل لهم ثيابهم تشفق على نظراتهم البريئة فتعتذر لهم وتطلب منهم وعوداً بسلوك جيِّد المرات القادمة، تأخذهم إلى النوم ثم تأخذ حماماً دافئاً

t.me/yasmeenbook

وهي تلعن حظها نادمةً على اختيار هذا الرجل ربما، وبالوقت نفسه تتمنى أن يبادرها بالحديث حين ستدخل بعد قليل إلى المطبخ لتعد شيئاً ساخناً تشربه فيحاول الزوج استرضاءها فيحتضنها من ظهرها بينما تحضر الشاي الأخضر مثلاً، ربما يمارسان الحب بعد ذلك أو يشاهدان التلفاز معا، أو يبحثان مشاكل أولادهما في المدرسة، وبعض الفواتير وبعض الحياة.

استسلم جوان لشروده، تحول الشرود إلى نعاس والنعاس إلى نوم والنوم استدعى حبيبته هيف في المنام. كانت تلومه تعاتبه، تدمع ثم تهدأ فتعود للبكاء ثم تغضب، فتصفعه، ويصحو مذعوراً، تحسس وجهه ويديه نظر حوله، الليل هنا بارد، فشل بحثه عما يمكن أن يتغطى به، جال بنظره ثانيةً علّه يفلح، دون جدوى، تذكر ما قاله ثائر في عزاء أحمد : "إن نجونا من الموت على الجبهات، سيقتلنا البرد!" وجوهٌ عديدة حضرت في مخيلته حينها، وجهٌ واحدٌ طرد الوجوه كلها ليداهمه بقوة، كان قريباً جداً وحقيقياً إلى حدّ أخافه وأقلقه، لكنه منحه شيئاً من الدفء والكثير من التفسير لمنامه، ولغضب هيف!

إن تعلّقتُ بامرأة فسأفضل قتلها على أن أتركها لرجلٍ آخر...

فلاديمير بارتول

t.me/yasmeenbook

ماهر

ريف دمشق، خريف 2016

ليست سلافِ من يسمع خبراً فيمر عليه مرور الكرام، ولا سيما عندما يكون الخبر مشكلة، عندها لا تسمع بأذنيها فقط وإنما بقلبها وبكل جوارحها، فتراها متفاعلةً مع الحدث، ومتحمسةً لفعل ما يقدم حلاً. وكانت أم ماهر تخفي إعجابها بطريقة تفكير سلاف وحماستها ومبادراتها: "ما الذي ينقصكِ كي لا تكوني مثل سلاف؟، أخت الرجال؟!" كانت تلك زلّة لسان من أم ماهر خاطبت بها ابنتها سماح التي لم تكن بعد قد أصبحت أخت الرجال برأي أمّها. كانت سلاف تشعر بإعجاب أم ماهر بقوة شخصيتها وفطنتها، فقد كانت ترسل سماح معها إلى الأماكن التي تتطلب حنكة وسرعة بداهة وحسن تصرف.

الشتاء الذي لم يرحم الشبان في الثكنات وعلى الحواجز وفي الحراسة الليلية وهم يحملون روحهم على كفهم، جعل سلاف تخجل من برد قلبها رغم ألمها. ولطالما اعتادت إخفاء ألمها واستمتعت بتحويله إلى سعادة للآخرين. كانت تسمع مراراً أن مخصصاتهم من البطانيات والمعاطف والسترات والأغطية غير كافية في هذا الصقيع، فهم يتجمدون وكأنهم في القطب.

ليس فقط من أجل ماهر الذي يواجه لعنات الحرب وبرد الشتاء، وإنما لأنها وعدت أن تقدم ما يلزم "كي أكون صريحة معكم شباب،

t.me/yasmeenbook

لست انا الوحيدة التي سأتبرع، فزبوناتي يسألنَ دوماً عن أيّ شيء يمكن أن يقدمنه للجيش. سأخبرهنّ وسأعمل على توفير ما يلزمكم قدر المستطاع" حينها شكرها الجميع لصدق ما طرحت.

"سأقضي إجازتي القادمة في حمص، يمكنني أن أمرّ على مشغل الخياطة سلاف وأحضر الأشياء التي تم تجهيزها هناك" قال جوان حين تم تداول مسألة التبرعات لا سيما أن البرد يشتد يوما بعد يوم.

لم يستطع ماهر أن يخفي امتعاضه عندما سمع جوان يقول ذلك، تفسير ذلك معروف عنده لكنه يتهرّب. لماذا سيقضي جوان إجازته هناك؟! إنه لم يزر حمص إلا مرّة حين استشهد أحمد؟! ولماذا يقترح أن يمر هو على المشغل ويجلب التبرعات؟ إنه لا يعرف المدينة جيداً ولا يعرف أحداً هناك، ولا يملك سيّارة لنقل التبرعات أصلا؟! شعر بثقل رأسه، لعبت المصادفة دوراً في اشتداده.

ترك جوان جوّاله بجانب كوبه عندما ناداه العقيد فقطع جلسه الشاي مع ماهر. وبينما جوان يتحدث مع العقيد بشأن إجازة قريبة، ورده اتصال، كان الاسم Dirunkara Xwesik دورونكارا خوتشيك هو الظاهر على شاشة جوّال جوان.

جوان ذو النصف العربي من والدته، لم يكن يستخدم الكردية لا في الحديث ولا في الكتابة. فوالدته العربية لم يخفف عشقها لأبيه وإتقانها الكردية، من عشقها لقوميتها ولغتها فقد اهتمت بتنمية العربية لدى أولادها حتى أنها لم تكن تحادثهم إلا بها. وفي المدرسة والجامعة لم يصدق أحد أن جوان كردي لأنه كان متفوقاً في النحو والصرف حتى على أقرانه من العرب.

t.me/yasmeenbook

فأن يكتب جوان اسماً بالكردية، كان هذا محط تساؤل ماهر الذي قاطع تمعّنه في العبارة دخول جوان إلى الغرفة. وبينما يحاول ماهر أن يتهرب من اضطرابه بالسؤال "ماذا عن الإجازة" رنّ الجوال مرة أخرى، لكن هذه المرة لم ينجح ماهر فقط في نقل الاسم إلى ذاكرته البصرية، بل كذلك في نقل الاضطراب إلى جوان الذي أمسك بالجوّال وبدا عليه الارتباك حين رأى اسم المتصل، لكنّه لم يردّ. وامتلأت تلك الثواني بإشارات الاستفهام وفاحت منها رائحة الشّك، ارتسمت في عينيهما نظرتان محيّرتان وحائرتان: فالأول غير متأكد مما رآه، والثاني غير واثق أن الأول فهم ما قرأ.

لم يجد ماهر تفسيراً لما فعل، أو ربما لم يرد أن يعترف لنفسه بالسبب. ما الذي دفعه لاستراق النظر إلى جوّال جوان؟! ثم في المرة الثانية إلى حفظ ما قرأ؟ لماذا سارع للبحث عن ترجمة الاسم في غوغل؟! ولماذا اجتاحه ذاك البرد في أطرافه وتلك الرجفة في قلبه، حين قرأ ترجمتها إلى العربية "الخيّاطة الحسناء" !!. لا يدري ماهر ما الذي دفعه إلى هذا الفعل الأحمق كيف يتجسس على جوّال غيره؟ هل كان ارتباك جوان حين رأى شاشة جواله هو السبب؟! هل كان امتناعه عن الرد على الاتصال؟ هل كانت تلك النظرة التي رمق بها ماهر بطرف عينه حينها؟! . هل كانت الرسالة التي أعقبت الاتصال، وتأجيل قراءة جوان لها ؟ ولماذا أصلاً يقوم ماهر بذلك كله؟ هل من حقّه أن يتعقب تصرفات أحد؟ لكنها ليست أي شخص! ثم لماذا هذا كلّه؟! ألا توجد خياطة غيرها في سوريا؟ ماذا لو كانت أية صبية غيرها من بلدته أو غيرها؟ وماذا لو كانت هي أصلاً ؟! هل من حقّه أن يكون شرطيا على سلاف بعد أن تركها وهجرها حتى دون أن يخبرها أو يعلمها مسبقا؟ هل من حقه أن يحاسبها؟

t.me/yasmeenbook

وبينما انضم ثائر إلى جلستهما وبدأ يتحدث إلى جوان، لم يستطع ماهر أن يسمع أو يفهم شيئاً متابعاً حيرته وتساؤلاته: "بل هي ولا أحد غيرها". لم ينس ماهر طبعا أن سلاف ذكرت اسم جوان يوم عزاء أحمد، ولم ينس أن ذكرها له تضمن أن حديثاً دار بينهما حول استشهاد أحمد، وأن جوان قد أخبر سلاف يومها حول ما حدث لأحمد! ما الذي كان يقصده جوان من إخبار سلاف ذلك؟ ومتى وكيف استطاع جوان الذي لا يعرف سلاف أن يخبرها بذلك؟! بدأت الأسئلة تدق رأسه، واستسلم لهواجسه. أليس محتملاً أن يكون جوان قد وقع في حبّ سلاف؟ ولم لا؟ من هذا الذي لا يفتتن بها؟ وما الغريب أن تقع في حبه أيضا؟ فجوان ليس شاباً عادياً.

كان ماهر يعلم مدى قدرة جوان على إزالة الحواجز كلّها بينه وبين أشخاص يراهم للمرة الأولى في حياته، كان يتحدث بأريحية وبمنتهى السهولة وبدماثة يفتقدها ماهر. ما إن يأتي ضابط جديد أو عسكري إليهم حتى يبدأ بالتعارف ثم يخوض نقاشات طويلة لا نهاية لها فتراه بعد أيام يعرف عنهم كل شيء وكأنه صديقهم منذ الطفولة. بالأمس كان جالساً مع العقيد الذي جاء قبل أسبوع فقط إلى كتيبتهم فكان جوان يمازحه ويضحك ويتحدث معه عن الأكلات الشعبية الشهيرة في طرطوس. "حين تنتهي الحرب ستدعوني إلى أكلة سمكة حرّة على البحر وسنشرب نخب النصر" كان يتحدث وكأنه ابن بلدته وقضى معه أياما ولهما مغامرات مشتركة. كانت له شخصية آسرة فعلاً، فضلا عن ذلك كانت لدى جوان فراسة قوية بالأشخاص وهذا ما أدركه ماهر منذ الأيام الأولى لهم معاً. وكان يعلم ماهر أن مثل هذا النوع من الرجال له أثره على الجنس اللطيف. الأمر الذي أقلقه عندما ورد اسم سلاف على لسان جوان، فشاب له هذا الميل للتودد والتعارف

t.me/yasmeenbook

والمجاملات والتقرب ليس غريبا أن تنجذب إليه أية فتاة يضاف إلى ذلك وسامته وحسن طلعته، ونظرته الثاقبة التي تنم عن مخزون روحي غنيّ وقامته التي تشبه الرمح، ووجهه المحبب المألوف الذي يشعر أي شخص حين يحادثه أنّه يعرفه منذ سنوات. وفوق ذلك كان رسّاماً بارعاً، وشغوفاً بالعزف على نحو جعله يخترع آلته الجديدة. الدماثة والفن واللباقة مع الآخرين لم تطغَ على مواقفه البطولية والرجولية مما زاده اقترابا من الكمال.

حاول الهروب من شروده بأفكاره فقال: "يا شباب ما هذا البرد! والله لم أعرف أقسى منه في حياتي" .

قال آكري: "الفرج قريب والدفء قريب، أترون لقد تبرعت لنا النساء؟!" أراد جوان أن يقول شيئاً فقاطعه ماهر:

"أنا ذاهبٌ بكافة الأحوال لأستلم فستان عروسي من المشغل، وسأجلب التبرعات حين عودتي" قال ماهر دون أن ينظر إلى جوان الذي لم يردّ. عينان ترمقانه بألم الحبّ والفقدِ الذي اختبرته بالأمس القريب، كانت عينا ثائر.

t.me/yasmeenbook

والحبُ يُعطى إلى مالا نهايته لا يعرف الحبّ من يُعطي بمقدار

جاسم الصحيّح

t.me/yasmeenbook

سـلاف

حمص، خريف 2016

"اسمعي يا سماح! مـن يحـبّ لا يمكـن أن يكـره أو يحقـد أبـداً، أصلاً ليس الكره هو نقـيض الحـب، وإنمـا اللامبـالاة، وأنـا لـم أعـدْ أبالي، أتفهمين ذلك؟! لذلك أخبري خالتي أم مـاهر أنـه مـا مـن داعٍ للامتعاض من مجيء ماهر لأخذ فستان سهر، الأمـر عنـدي سـيّان إن أتيت أنت أو سهر أو ماهر، كلكم أصدقائي. وصدقيني سأفرح لمـاهر وسهر يوم زفافهما".

"سلاف! لا تستخفي بذكائي أنا لم أعدْ صـغيرة! أعلـم مـا يحـدث لقلبك الآن، قلبك الذي ينبض في صـدر مـاهر اللحظـة! ثم مـا هـذا الذي تقولينه؟! كيف تفرحين يوم زفافهمـا؟! وكيـف تسـمحين لـه أن يذهب بهذي السـهولة؟ لم لا تـدافعين عـن حقـك؟ حقـك في مـاهر كلّه؟! كيف!".

كانـت سمـاح تتحـدث بحماسـة واندفاعـة لافـتين، الأمـر الـذي استوقف سلاف التي كانت تتكلم وهي تعمل وتقص وتقلّب الأقمشـة. توقفت عن العمل للحظة، تركت المقص يستلقي علـى طاولـة العمـل التي كانت تقـف أمامهـا، أسـندت يـديها إلى حافـة الطاولـة ورفعـت كتفيها ثم مالت برأسها والتفـت إلى سمـاح، صـمتتا لبرهـة، حـدقّت سلاف ملياً في وجـه سمـاح. لم تكـن نصـيحة سمـاح بضـرورة دفـاع سلاف عن حقها في ماهر هي ما لفتها، أمرٌ آخر يشـغل فضـولها هـذه

t.me/yasmeenbook

اللحظة، ليس كحبيبة لماهر بل كصديقة لسماح. رفعت يديها عن الطاولة ومشت باتجاه سماح، اقتربت منها أكثر، بينما سماح ترد خصلات شعرها عن جبينها ثم تمشي بأصابعها بارتباك على فنجان النسكافيه الذي طلبته أول زيارتها للمشغل، أخذت تنظر في عيني سلاف نظرةَ تلميذةٍ تنتظرُ التقييم.

"أنت عاشقة أليس كذلك؟!" سألتها سلاف وقد ارتسمت على وجهها نصف ابتسامة بينما عيناها مفتوحتان على نحو أربك سماح:

"أحدّثها في الشرق تجيب في الغرب، ياربّي!".

"لابد أنه شاب غير عاديّ! أخبريني من هو هذا الشامي الذي خطف قلبك يا ابنة حمص هيا" قالت سلاف وهي تشدّها من خدّها كطفلةٍ.

"تعالي يا خالة أم ماهر وانظري! ابنتك تعشق الشامي. الله الله يا فرحتك!" أردفت سلاف ممازحةً كعادتها حين تقلب الأجواء لتخفّف من حدّة الشحن والانفعال. فابتسمت سماح وهزت برأسها وقد أشاحت بوجهها.

سلاف التي لا يستهان بخبرتها في الحياة والتي تملك حدس الأنثى في أقوى أشكاله، لم يكن من الصعب عليها أن تستشف التغيير الذي طرأ على سماح التي تقف أمامها الآن. سماح فعلاً كما قالت، لمِ تعد طفلة، ربما تجربتها الجديدة بدمشق جعلتها فتاةً جديدةً مختلفةً عن تلك الخجولة الخاضعة أمام أمها ذات الشخصية المتسلطة. لكن صوتاً ما كان يخبر سلاف أن الأمر لا يتعلق فقط بإقامتها في دمشق للدراسة، كان دفاع سماح عن قضية سلاف وماهر يشي بأنها تنتمي إلى المناضلين من أجل القضية ذاتها، كان هذا واضحاً في صوت سماح

t.me/yasmeenbook

ونبرته المرتجفة حين تحدثت عن قلبين أحدهما ينبض في صدر الآخر، كان قلب سماح ينبض أيضاً، وأنفاسها تتسارع، احمرارٌ في وجنتيها وبريقٌ في عينيها لا يخطئهما من اختبر الحب وعذاباته. كانت تتحدث فيرنّ صوتها في جوف العاشق، لم تكن مجرد مراقب خارجي. الحب، هو وحده القادر على صنع المعجزات، لاشيء غيره. كانت سلاف متأكدةً أن ماتراه من تغير بدا على سماح، هو التجلي لقلب عاشقٍ وليس شخصاً يعيش تجربة انتقال جغرافي فحسب.

"أهلاً أهلاً بأخت العريس، ألن نخيط لك فستاناً جديداً لزفاف أخيك؟!" قالت أم هشام التي دخلت للتو إلى المشغل.

"أهلا بك، لا يا خالة شكرا، سأرتدي أي ثوب من خزانتي، فالأمر أصلاً ليس احتفالاً كما تعلمين" ردّت سماح.

"معك حق يا ابنتي، الاحتفالات ليست لنا، يا حسرتي كل يوم شهيد، الآن أتيت من تشييع ابن صديقتي، ربّته خمسا وعشرين سنة، وفجأة قتله تفجير" قالت أم هشام بحزن.

"البقية بحياتك ورحم الله شهداء سوريا كلّهم" قالت سماح.

"العمر الطويل لمعلمتي، أتمنى ألا أراك بالأسود أبداً، سأعدّ لك الشاي الذي تحبين" قالت سلاف متجهةً إلى المطبخ.

دخلت المطبخ وأحضرت الإبريق الكهربائي وملأته بالماء وشغّلته، وقفت تتأمل من نافذة مطبخها الصغيرة ريثما يغلي. "يا إلهي ألا يوجد غيرها لأراها الآن وفي هذه اللحظة؟! ما الذي أتى بها إلى شارعنا البعيد عن مسكنها أصلاً؟" تمتمت سلاف حين رأتها تتمشى على هدىً وبيدها أشياء كثيرة لا بد أنها تحضّر لزفافها وحياتها الجديدة، وأتت لتتسوق من شارع الدبلان المعروف بمحلاته الجيدة

t.me/yasmeenbook

والفخمة. كلّما ظنّت سلاف أنّها تجاوزت ألمها، اكتشفت أن أية كلمة وأي حدث قادران على نكء جرحها. نظرت إلى سهر وكلمات سماح ترنّ في مسمعها: "لم لا تدافعين عن حقك؟ حقك في ماهر كلّه؟!" نعم إنّه كان حقي، حقّي أنا وحدي. سأدافع عن حقي لكن بعد أن أعرف حقوقي أكثر، وبطريقتي يا سماح. تذكرت سلاف ماحدث في المشغل قبل يومين حين أتى ماهر ليأخذ فستان سهر.

"وعدت الشباب أن أحضر لهم معي ما كنتِ قد وعدتِ به من تبرعات، فالبرد هناك قارسٌ وقارص" قال ذلك محاولاً أن يتظاهر أن الأمر فعلاً بهذه الشفافية والبساطة وأنّ المسألة تتعلق بالبرد ليس إلا، وحين أجابته، لم يقتنع أن التبرعات والمعونات للجيش لم تكن جاهزة بعد، إنه لم يصدقها، ظانّاً أن سلاف تريد أن تؤجل الأمر بقصد ولغاية ما بنفسها. عندما تذكرت سلاف وجه ماهر الذي يحاول أن يخفي غضبه لتأجيل استلام التبرعات، شعرت بشيء من الغبطة والرضا وتمنت لو أن ظنّ ماهر كان صحيحاً، فماهر يعتقد أنها تفكر بانتقام ما كما كانت تفعل في المدرسة حين تثير غيرته متجاوبةً مع غزل الصبية ومزاحهم في المدرسة، فماهر لم يصدق بعد أن حبّها له سيخبو. تمنّتْ للحظة لو أن هذا صحيحاً، كما لو أنها تدافع عن حبها أو تنتقم، ولو أن ذلك صحيح. كانت تتساءل لمَ لمْ تفكر في الانتقام كما يفترض ماهر، ولمَ لمْ تدافع عن حبها كما قالت سماح؟! كان يجرحها جداً ذاك الشعور الغريب، إنها لا تبالي الآن إن كان ماهر سيتزوج بسهر أو بغيرها مادامت توقفت عن الدوران في فلكه. سماح التي اعتقدت أن سلاف تكابر على جرحها، لا تعلم حقيقة ما يحدث بعد غدر الحب أيا كان الطرف الغادر ومهما كان سبب ودافع هذا الغدر! إنّ سماح العاشقة الآن، كما يبدو ذلك وبلا شك، لا يمكنها فهم سلاف

t.me/yasmeenbook

المفارقة لعشقها. فالمسافر المغادر الممسك ببطاقته على متن الطائرة لن يفهم ما سيرويه العائدون للتو؟! سألت نفسها كثيراً لماذا لم تدافعِ بشراسة عن ماضيها الجميل؟! لماذا سمحت لذلك أن يحدث! ولم تغدو سهر الغريبة عن أرض عشقها، أقرب إلى ماهر منها!

كانت حينها أشبه بمريضٍ توقف قلبه فجأة عن العمل، ولا يمكن أن تعود إليه الحياة والنبض، إلا بصدمة كهربائية، لكن ماذا عساها تكون هذه الصدمة؟! حاولت أن تحيي شيئاً ما في داخلها حيال ماهر، ذكرى لقبلة أو كلمة أو هدية، حاولت سلاف المستسلمة أن توقظ سلاف العاشقة الناريّة، حاولت أن يعود لها انفعالها وتوقف عن تلك اللامبالاة، لكن دون جدوى. إنّها لا تصدق ما الذي يحدث، هل حقا إنها اللامبالاة؟! أم أنّها فعلاً قتلت ماهراً وشيّعته كما قالت أم هشام؟ لا تدري لماذا قفز إلى ذهنها فجأة حديثٌ قديمٌ بينها وبين والدها، كانت سلاف يومها في الصف الحادي عشر، تقلّب في موسوعة الأساطير يوم عطلة، حين استوقفتها صفحة معينة، سألت والدها عن أسطورة سيزيف، وتذكر أنه قال لها أن الحياة في هذه الأسطورة أشبه بصخرة ثقيلة يحملها المرء على ظهره ويدفعها إلى أعلى جبل وما إن يصل حتى تعود الصخرة للتدحرج إلى أسفل ويعود الإنسان إلى دفعها للأعلى مجدداً في عملية لا تنتهي. شعرت سلاف حينها أن الحياة لا تريد فعلاً لصخرتها أن تصل! وكلما اعتقدت أنها وصلت إلى ما تريد أعادتها الحياة إلى فصلٍ جديدٍ من فصول الحزن، وهذه المرة سلبتها الحياة عنف الحبّ الذي كان في قلبها وبالتالي عنف الرغبة في الانتقام لأجله. لم يكن يجرحها غدر ماهر بقدر ما جرحها موته داخلها، حينها فقط تيقّنت أنها قتلته، حين يخبو انفعال العاشق حين تبرد ناره وتهدأ ثورة غضبه، وحين يقول

t.me/yasmeenbook

"كل شيء انتهى" دون أن يضطرب الدم في عروقه، فهذا يعني أنّه قد شفيَ، شعرت حينها أن ماهر سقط على رصيف عمرها كما تسقط ورقة خريف. وأصبح صعود صخرة سيزيف، تلك التي حدثها عنها والدها، أسهل بكثير من صعود ماهر ثانيةً إلى عينيها وقلبها.

بدأ اليقين ينسل خارج شعورها تدريجياً، ويحلّ محله الشك بكل الثوابت والبديهيات والمسلمات. لم تكن تؤمن بشيء قدْر إيمانها بهذا الحبّ، كان عندها أشبه بالمطلق أو المقدس الذي لا جدال فيه ولا نقاش، وهاهو يتهاوى، تمتمت "يا إلهي كيف يغدو كل شيء سخيفاً مهما كان هاماً في السابق!" هو الذي كانت تثور ثائرته إن لفظَ شابٌ اسمها على لسانه، سيتزوج بغيرها، سيمارس الحبّ مع امرأة أخرى، وهي التي كانت تنهار إن هو ابتسم لغيرها، لايهزّ زواجه الآن شعرةً من رأسها؟! كم أن الإنسان كائنٌ تافهٌ سخيفٌ! وهواجسه مجرد أوهام، أوهام مرتبطة بالزمن، وعندما يمرّ الزمن تمر معه آثاره، الزمن هو المحتال الأكبر.

"سلاف يا حبيبتي هل تصنعين الشاي أم أنكِ تزرعينها وتنتظرينِ الموسم؟ هل ذهبتِ لجلب الماء من النبع؟" قالت أم هشام ممازحةً سلاف وقد توقعت مزاجاً مضطرباً بعد أن رأت أخت ماهر ضيفتها في المشغل.

ابتسمت سلاف: "أنتظر الإبريق ليغلي ولم ألحظْ أن الكهرباء مقطوعة، نسيت فضائل الحرب علينا، آسفة" قالت وهي تملأ الإبريق العادي بالماء وتدير مفتاح الغاز تحته بسرعة.

قالت أم هشام: "سماح تريد أن تذهب تقول أنها تأخرت، اذهبي إليها وأنا سأحضر الشاي".

خرجت سلاف إلى الصالة مسرعةً: "أرجوكِ اعذريني يا سماح، لكن لا كهرباء كما تعلمين.." قاطعتها سماح: "لا عليكِ، سأودّعكِ عليّ أن أذهب".

"ليس قبل أن أبارك لكِ وقوعكِ في الحبٍ وحياتكِ الجديدة، إياكِ أن يضعفكِ الحبّ، اتفقنا!" قالت سلاف وقد ضمتها بمحبة وفجأة سمعت عبرة وحشرجة يختنق بها صدر سماح التي تنوح، أبعدتها عن صدرها أمسكتها من كتفيها وحين نظرت في عينيها وسمعت زفراتها عرفت أن سماح لم تقع في الحبّ فحسب، بل إنها تحت وطأة عشقٍ مضنٍ.

رنين جوّال سماح جعلها تهرول مودعةً سلاف بسرعة ومكفكفةً دموعها، من نافذة الصالة نظرت سلاف إلى سماح المسرعة في الخارج: "ما بك حبيبي؟ لم أنت غاضب أنا عند سلاف". حينها تأكدت سلاف أنّ درباً جديدة تحمل آثار قدمَيْ سماح.

t.me/yasmeenbook

فمتى تَضَعُ الحربُ أوزارها كي نفُكَّ خُصُورَ النساء على التلّ..
من عُقدة الرَّمز في السنديانْ؟!

محمود درويش

t.me/yasmeenbook

حياة

حمص، شتاء 2017

"صواريخ، قذائف، صداع، آخ يا رأسي لمْ أنمْ، الحمد لله اليوم عطلة" قالت حياة.

"صباح الخير، اسمعي فروحة! لا تقولي ذلك حين تأتي سهر، ستظن أنّك تتذمرين من بكاء أحمد الصغير ليلاً" قالت أمّها بصوت خافت.

هزّت حياة رأسها مومئةً بالموافقة دون أن تنبسَ بكلمة، وقفت عند الباب ثوانٍ وهي تسند صدغيها بكفيها وتفركهما وقد أغمضت عينيها السوداوين الواسعتين وشدتهما، فتحتهما ثانيةً ودخلت غرفة الجلوس ماشيةً بقامتها الممشوقة على السجادة العجمية السميكة ذات الألوان الترابية، مرتديةً بيجامة وردية اللون وجوارب شتوية، جمعت شعرها الأسود الطويل إلى الخلف ثم جلست متناولةً دلة القهوة من أمام والدتها وعيناها تبحثان عن فنجان فارغ.

دخلت سهر غرفة الجلوس متثاقلةً في مشيتها "الحمد لله نام حمودة أخيرا".

"ممتاز، أعطني فنجاناً من المطبخ وتعالي نحتسي قهوتنا معاً"، حين قالت حياة ذلك، نهضت والدتها بسرعة: "أنا سأحضر الفناجين لكما، تعالي ارتاحي يا سهر فقد أتعبك أحمد طوال الليل" دخلت الأم المطبخ بينما جلست سهر وقد بدا عليها الإنهاك من الرضاعة والسهر لكن ما زالت جاذبية عينيها حاضرة. جلست قبالة حياة كانتا

t.me/yasmeenbook

مثل قصيدتين للشاعر نفسه أو لوحتين أبدعتهما يدٌ واحدة، لا يمكنك أن تحدد بسهولة أيهما أجمل، لكل منهما نصيبها في الجمال ولجمال كلّ منهما هويّته الخاصة. كانت حياة تشبه المرحوم والدها قلباً وقالباً.

ليس غريبا على قانون الحياة أنها تعطي وتمنح وتسلب وتهب بغير قانون أولاً وبخلاف رغبات الأشخاص وإراداتهم ثانياً. وبالنتيجة ما من أحد راضٍ. فما يظنّه هذا لعنةً عليه وقدراً أسودَ، يراه آخرون نعيماً مقيماً. تبدو الناس في تنوعاتها واختلاف مقاديرها كالألوان المتباينة، فالأبيض يحسد الأسود على سرّه وغموضه والأسود يغبط نقاء الأبيض وهلمّ جرّاً. الجميع ينشد الرضا والسعادة ولا يرى إلا ما سقط وما تسرّب من بين الأصابع. وكأنّ السعادة أشبه بحجر كريم يتوسّط قلادة علّقها كلٌ في عنقه ولا يراها إلا حين تُخلع!

"أخبريني كيف حالك؟ هل نمتِ جيداً؟!" سألت الأم سهر بينما تضع الفناجين على الطاولة، في حين لم تسأل حياة عن الصداع الذي اشتكت منه حين استيقظت.

كانت سهر دوماً محطّ اهتمام وتعاطف والدتها، ليس فقط لأنها الصغيرة وإنما لاختلاف شخصيتها وإمكاناتها عما تراه الأمّ والجميع في حياة. أول كلمة وأقرب كلمة إلى لسان سهر هي: "لا أعرف، كما تريدون، كما تودّون" في حين حياة التي تكبرها بثلاث سنوات فقط، كانت "الشاب الذي لم تنجبه أم حياة" على حدّ تعبير نساء الحي. لم تنجب أم حياة الذكور، أو بالأحرى لم يمهلها القدر لتنجب ذكوراً، فالورم الذي أصاب البانكرياس لدى أبي حياة اختار ألا يكون حميداً، وكما ينتشر جيش الاحتلال في الأرض المستعمَرة، انتشر واستبد بجسده وفتك به بسرعةٍ هائلة. فاسودّت الشمس في عيني الزوجة ذات الثلاثة والثلاثين عاماً، لم يمهلها

t.me/yasmeenbook

القدر أكثر من شهر حتى وجدت نفسها وحيدةً مع البنتين، حياة عشر سنوات وسهر سبع سنوات، لكن كما يقول المثل: "لا يترك الله وحيداً"، فقد أحاط بعض الأقارب والجيران الأسرة بالكثير من المحبة والاحتواء والدعم، لكن ما إن وصلت البنت الكبرى حياة إلى المدرسة الثانوية حتى أخذت على عاتقها الكثير من المهمات التي لم تكن أمها ذاتها تتوقع منها القيام بها، فكانت فعلاً الرجل الذي لم تنجبه. حتى أن الجيران والأقرباء راحوا يتناقلون الأحاديث عن البنت اليتيمة الشاطرة التي تارةً تبتاع الخضار والخبز، وتارةً تتخلص من قمامة المنزل، وتارة تلمّ الغسيل حين يلوح المطر ثمّ تنظف الشرفات بعده. لكن الحادثة الأكثر إبهارا وتداولاً بين الجيران كانت حين سرق أحد الصبية طعام سهر من حقيبتها المدرسيّة، وتركها تبكي في باحة المدرسة. حين علمت حياة بالأمر، فتّشت عن الصبي مصممةً أن تجده وأتت به وقد جرّته من ذراعه وأجبرته على شراء فطيرة من مصروفه الشخصي وقدمها لسهر مع الاعتذار.

ولأنها الكبرى والأذكى كان يجري على حسابها الكثير والكثير من الظلم وهضم الحقوق، فكانت الفرد المعوّل عليه في التفكير والقرارات والتنفيذ وحسن تقدير الأمور وإدارة شؤون الأسرة الصغيرة وحتى شؤون سهر في البيت والمدرسة، وهكذا اعتادت أن تكون الوعاء الذي يستوعب من حوله من أفراد وما حوله من أحداث. عملها في الدروس الخصوصية منذ سنتها الجامعية الأولى منحها شخصية مستقلة متماسكة على عكس شخصية سهر المهادنة الاتكالية المسالمة وشخصية الأرملة المكسورة فكانت الرافعة الحقيقية للأسرة: "أمي نحن لسنا أرملة ويتيمتين، نحن ثلاث نساء غير عاجزات عن تدبر شؤوننا".

كانت تقول ذلك لأمها حين يزعجها بكاؤها بضعفٍ أمام الناس وبالتالي نظرة الجميع لهنّ كعائلة ضعيفة بحاجة للشفقة والمساعدة وهذا ما لم يرُق لحياة أبداً.

"يا سهر يا سهر، يبدو عليك تعب السهر، فعلاً لكل امرئ من اسمه نصيب، إلا أنا واسمي المعكوس المنحوس" قالت حياة.

"أنت منحوسة يا حياة! ما هذا الكلام!" ردت سهر بتعجّب بينما كانت الأم تهمّ بصبّ القهوة في الفناجين، فخطفت حياة الدلة منها وصبّت القهوة لكليهما.

كانت حياة تعلم أن سهر تعني تماماً ما تقوله حين تعجبت من وصف حياة لنفسها أنها منحوسة. فسهر تنظر بإعجاب وغبطة كبيرين لأختها الكبرى التي تخرجت من قسم اللغة العربية بمعدلٍ عالٍ وتابعت دراستها العليا رغم أنها كانت تعمل منذ سنوات في التدريس لتعين الأسرة التي لا معيل لها. كما أنها حين أحبّت كانت سهر تغبطها على ما تحيا من مشاعر وعلى جرأتها في أن تعرِّف أمها على الشاب الذي تحب والذي خطبها وتزوجا قبل أن يلقى حتفه فوق قاربِ مطاطي في المتوسط، هارباً من موتٍ في ظلّ الحرب لينتظره موتٌ أكثر شناعة. "يا ويلي حتى النحس يورّث؟! أنا أرملة، وأصبحتِ وأختكِ أرملتين؟!" قالت الأم يوم استشهاد أحمد حين عادت البنتان إلى بيت الأهل بلا رجل وبلا سند وكأن القدر يأبى إلا أن تكنّ وحيدات.

صحيح أنهما الآن أختان أرملتان مع الوالدة في بيت نشأتا فيه معاً يتيمتي الأب، ربتهما الأم ذاتها، إلا أنّ عالم حياة مختلفٌ جداً عن العالم الذي تنتمي إليه سهر التي لم تكمل دراستها الجامعية، والتي آثرت انتظار العريس في بيت أهلها. حياة التي لم يقف طموحها يوماً والتي تنجز أطروحة الماجستير في اللغة العربية رغم الاضطرابات في البلاد

t.me/yasmeenbook

والحرب وصعوبة التنقل بين المحافظات ورغم الكارثة التي حلّت بها في السنة الأولى لزواجها بعد وفاة زوجها، لم تستسلم يوما لعراقيل الحياة التي وضعتها في بيت لتكون فيه الأرملة الثالثة في مجتمعٍ جلاد وزمن لا يرحم وحرب تقهر. كلّ هذا لم يمنعها من المضي بكل إقدام وإصرار، فهي اليوم المفضّلة الأولى بين المدرّسات في محيطها. هاتفها المحمول لا يهدأ، الجميع يريدون أن تدرّس أولادهم، حصلت على وظيفة في جامعة خاصة أكسبتها مكانة اجتماعية وأصدقاء كثر وأصحاباً طيبين، كلّ هذا كان عالماً تكنّ له سهر إعجاباً شديدا لكنّها لا تجرؤ على دخوله، وتغبط حياة عليه وتتمنى لو بإمكانها تذوق هذا الطعم، لكنّها لا تمتلك من الجرأة ما يكفي. في حين كانت حياة تغبط سهر على هدوء حياتها وأيامها المتشابهة الخالية من الهموم والمشاكل المتعلّقة بالعمل، كانت تحسدها على سلامها الداخلي فهي لا تبحث عن شيء ولا تطمح إلى شيء ولا تريد شيئاً ولا تعترض على شيء. حتى في دروسها كانت تتكل على حياة التي تنظم لها برامجها وتحثّها على المتابعة وتشجعها دوماً. وحين التزمت بتدريس سماح ابنة أبي ماهر حرصت على أن تكون سهر حاضرة كي تستفيد من الدروس. وهكذا تمكنت حياة من بناء جسور المودة مع المحيطين وعلى رأسهم عائلة أبي ماهر التي استطاعت حياة أن تنشئ معها علاقة جيّدة توطّدت بشكل جيد بعد أن تكفلت بتدريس سماح وتحضيرها للبكالوريا دون أي مقابل، كانت تعود عصراً من عملها منهكة، وتمر على بيت أبي ماهر قبل أن تذهب لترتاح في بيتها، ولا تنسى أم ماهر العبارة التي كانت حياة ترددها دائماً : "يا خالة أم ماهر لا تقلقي فأنا يريحني التعب صدقيني، وتتعبني الراحة أكثر" ولأنها أصرّت على مساعدة سماح بالدروس دون مقابل فهذا ما كانت تثمّنه أم ماهر عالياً وكانت تحار كيف تردّ هذا الجميل.

t.me/yasmeenbook

حياة أذكى من أن تجهل طبيعة المجتمع ليس لتعليمها وثقافتها فحسب بل نظرا لتجربتها غير العادية. كما أنها كانت أعلم بمنطق وتفكير النساء لأنها ولدت وتربّت وكبُرت في بيت تزوره النساء وتدور فيه الأحاديث المختلفة عن عقولهنّ التي لا تترك شاردة ولا واردة إلا وتتناولها بالتحليل والنقد، صحيح أنها كانت محط تقدير وإعجاب الجميع. فقد شدّت كل من عرفها بنشاطها وشخصيتها القوية وحديثها المتّزن وثقافتها الواسعة، فضلا عن إطلالتها المشرقة وقامتها ال ووجهها الصبوح، لكن هذا كلّه شيء، وحين يتعلق الأمر بالزواج شيء آخر. فأيّة أمّ شرقيّة تريد تزويج ابنها فإنها ستختار له الزوجة المناسبة من وجهة نظرها.

وحياة نوع من النساء مهددٌ للنساء وللرجال على حد سواء. كانت تمثل العقل الجامح في طموحه، أحبّت وتزوّجت بمن أحبّت دون أن تنتظر قبول أحد غيرهما، وحين اندلعت الحرب، اختلفت في العديد من آرائها الجريئة مع كثر وصرّحت بذلك دون تردد أو تخاذل أو ضعف، وحين اشتدت الحرب أكثر وأكثر، وبات الخطر أقرب من سواد العين إلى بياضها، صمّمت على البقاء في الوطن حين قرر زوجها الهجرة، كان لديها من القوة ما يكفي لتعلن لزوجها رفضها قرار الهجرة، وهاجر وحيداً على أمل أن تقتنع يوما وتلحق به، دون أن يعلم أن للسماء تقديرات أخرى، وحين أصبحت أرملة وعادت إلى العشٍّ الذي حلّقت منه يوماً، عادت لتنتصر من جديد، وحققت ومازالت تحقق الكثير. مجتمع شرقي كهذا الذي نشأت فيه حياة يفضل نوعاً من النّساء أكثر مرونة وسهولة من حياة، لا تروق له الأنثى التي تناقش بصوت عالٍ، ولا يقبل أن تكون لها استقلالية لا في الوجود ولا في الرأي، بتعبير آخر يريد امرأة مطواعاً لا جدال معها

t.me/yasmeenbook

ولا نقاش، وبتعبير أدقّ يريد الشرق في الـزواج المـرأة التـابع. ورغـم إعجاب النساء بحياة إلا انها بالنسبة للنساء اللاتي يردن تزويج أبنـائهن لم تكن حياة ضالتهنّ المنشودة.

"حياة تعالي ماما أريد أن أحادثـكِ في أمـرٍ هـام" قالـت أمهـا ذات مساء، أنصتت حياة حين رأت الجديّة التي ارتسمت على وجه والدتها حين بدأت بالحديث:

"أحدهم قد يطلبكِ للزواج مني قريبـاً، أردت فقـط أن أتأكـد أنـكِ لا ترفضين فكرة الارتباط مجددا".

t.me/yasmeenbook

الضحايا تَمُرُّ من الجانبينْ، تقول كلاماً أخيراً وتسقط في عالَمٍ واحدٍ
سوف ينتصرُ النسْرُ والسنديانُ عليها.

محمود درويش

t.me/yasmeenbook

ثائر

ريف دمشق، ربيع 2017

الساعة السادسة صباحا، على أوتوستراد المزة في دمشق، سيارة بيجو بنمرة غير واضحة تماما، تتبعها درّاجة ناريّة يقودها شاب يضع كاسكيت بيضاء، زاد سائق السيارة من سرعته حين لاحظ اقتراب الدراجة، أسرعت الدرّاجة أكثر حتى صارت بمحاذاة السيارة من الجهة اليسارية حيث النافذة غير مغلقة تماما، عبر النصف المفتوح من الزجاج تشابكت نظرتان، إحداهما مريبة والأخرى قلقة، يد السائق التي تحسست زر إغلاق النافذة كانت أبطأ من تلك التي أطلقت رصاصة على إثرها اصطدمت السيارة بالمنصِّف، علا بوق السيارة معلناً صمت الرأس المرتطم به، لم تمضِ ثوانٍ قليلة حتى تلوّن المقوَد بالأحمر.

أصابعه الممسكة بسيجارته متاقلة بيأس، تارة يضعها بين شفتيه وينظر إلى الأفق البعيد شاردا بألم، وتارة يهملها مشتعلةً على الطاولة الخشبية الصغيرة فتتحول إلى رماد حزين، نقّل نظره بين النار المشتعلة أمامه وسيجارته والأفق. فشعر أن رأسه أشبه بقطعة حطب تمنى لو أنه يلقي بها في النار فربما تشتعل بفكرةٍ تحقق له الخلاص، فالعالم الحالي عالمٌ رتيبٌ بليدٌ لا يأتي إلا بالموت والبرد والفقد والقهر والكذب والأفكار العقيمة، ومثل هذه الأفكار خير للرأس الذي يحملها ويعجز عن الإتيان بغيرها، أن يتحوّل إلى رمادٍ يرقد أسفل السافلين، أو يتناثر في الهواء هباءً منثوراً. تمنى لو أن فأساً لديه يقطع بها هذا "الرأس الحطب" يجهز عليه، يحوّله

t.me/yasmeenbook

إلى أي شيء آخر، شيء نافع على الأقل، أو يلقيه في نهر، في بحر، فإما أن يطفو وينجو وإما أن يغرق في اللامكان واللازمان. هذا ما أحسّ به ثائر يومها، لم يكن يسمع الحديث الدائر بين رفاقه الذين اجتمعوا ذاك المساء. كانوا أربعة، اثنان يتحادثان ويحللان حادثة الاغتيال، ماهر وجوان، اثنان آخران صامتان، ثائر الذي لم يشاركهم الحديث على غير العادة، أما رابعهم آكري الذي يثرثر عادةً بين الفينة والأخرى ، كان شارداً لا ينطق بحرف.

"رغم أنه أمرٌ محزن للغاية، لكنه متوقع نحن في حرب، الاغتيالات والتفجيرات والمجازر كل ذلك متوقع، مع الأسف" قال ماهر بغصة.

"الله يرحمه كان من القلة القليلة الشريفة، لكني سمعت أن العقيد البديل عنه ليس من هذه القلة، بل من الكثرة الكثيرة جداً جداً! والله أعلم" قال جوان.

ما كان من الممكن أن ينجح اغتياله لولا الخيانات، لقد حصل مرتكب الفعل بلا شك على معلوماتٍ دقيقة جداً حول تحركاته، الله يرحمه ويصبِّر أسرته ويلعن كل خائن" قال ماهر.

أخذ ثائر شهيقاً طويلاً من سيجارته ثم نفث الهواء من أنفه وفمه ببطء شديد فارتفعت حلقات الدخان أمام وجهه وفوق رأسه، فراح يدخل إصبعه في إحداها.

"أنت تصنع لي خواتم من الدخان وأنا ألبسها، اممم ما رأيك بهذا جميل؟!"" قالت لينا ذات مساء وقد ألبست إصبعها دخان سيجارة ثائر خاتما، ضحكت ضحكةً عذبةً وطويلةً، كانت تقف قبالة ثائر المتكئ على سور حديقة يسترق الدقائق ليرى وجهها وينصت إلى صوتها وحديثها، أيّا كان هذا الحديث.

t.me/yasmeenbook

"الحمدلله أنها خواتم من دخان يا لينا وليست قصورا من رمال!" قالها محتضنا كفيها الناعمتين يقبلهما بحبّ.

"رتبي لي موعداً مع أهلكِ! سيكون خاتماً من ذهب" كان صوته دافئاً ينضح عشقاً، أمسك ببنصرها الأيمن مشيراً إلى مكان الخاتم، باسماً لعينيها اللتين ضمتا ثائر قبل أن تلفّه ذراعاها، غابت أصابعه في شعرها، حلّقت بهما اللحظات مع سحابة دخان علَتْ وعلَتْ بينما هوت السيجارة عند قدميه الكبيرتين وقدميها اللتين ارتفعتا لتطالا قامته.

خجل ثائر من نفسه، "ذانك يتحدثان عن اغتيال العقيد وأنا أتذكر لينا؟! ما الذي أفعل؟ هل جُننتُ؟! وما الذي استحضرها الآن! ربما الأمران ليسا بعيدين عن بعضهما البعض كثيراً! فالخيانة هي القاسم المشترك، وهي التي جرّت كل تلك التداعيات! ألم تخن لينا تلك البدايات العذبة! ألم يخن أحدهم نفسه قبل أن يخون العقيد حين أخبر مالا ينبغي أن يخبر؟!. كان ثائر مأخوذاً جداً ببشاعة ما يحدث ورافضاً قذارة الكائن البشري حين يكون خائناً! شعر بالاضطراب واللايقين، وراح يحدّث نفسه: كيف يمكن أن تعيش مع عدوكَ وأنت لا تعلم؟! هل من المعقول أن تعيش مترقباً حذرا؟! كيف يمكن أن تبقي إصبعك على الزناد في السلم قبل الحرب وفي النوم أكثر من اليقظة؟! ماهي قيمة الحياة وأنت لا تأمن جانب أحد؟! وما هي قيمتك كإنسان حين تعلم أن إنساناً آخر مستعدٌ لمقايضة روحك بالمال؟! حينها تخجل من كونك وإياه تنتميان إلى الجنس البشري ذاته! أين الطمأنينة؟ في الأديان؟ وما الذي بقي من الأديان حين يبارَك القتل باسم الإله؟! كان يتساءل بم يفكر القاتل حين يقرر قتل أحدهم؟ ألا يفكر بصورة أولاد الضحيّة التي ستزور مخيلته لحظة مفارقة الروح الجسد؟! وبِمَ يفكر الخائن في اللحظة التي يقرر فيها أن يخون؟ وهل هو قرار فعلاً؟! هل تتم الخيانة كجريمة مع سبق الإصرار والترصد أم أنها تحدث فجأةً

t.me/yasmeenbook

كجرائم الدفاع عن الشرف مثلا؟! هل يرتكب الخائن فعله بتخطيط مسبق أم أن الأمر لا شعوري يحدث بشكل اعتباطي ؟! هل ينظر الخائن في عيني من يقرر خيانته ويعتبر أن هذا امراً عادياً؟! نعم بالتأكيد لأن من أخبر عناصر إرهابية عن موعد إجازة العقيد وتوقيت خروجه من بيته بالساعة والدقيقة كان بلا شك يراه باستمرار، وربما كان يأخذ معه الشاي ويتبادل معه الأحاديث أيضاً. ألم تكن لينا تراني ونخرج معاً؟! صحيح أنها كانت قد تبدلت نحوي وأنني شعرت بتغير مشاعرها، لكن هذا لا يعني أنها بريئة، لقد كانت تحفر قبري ليلاً بيديها اللتين تقدمان لي القهوة عند الصباح والحب عند المساء! إنها مجرد أنثى حمقاء كغيرها من الإناث اللاتي حين تخرج إحداهنّ مع شاب يهمّها تسريحة شعرها أكثر مما تعي أن رائحة شعرها تعني له السكينة، بالتأكيد لم تكن تعلم أنني حين أطيل التفرّس في عينيها فليس كحل جفنيها ما يلفتني، وإنما أبحث فيهما عن نظرة تقول لي: "أنا معك وأنا لك اطمئن..!". هل هناك أصعب وأقسى من أن تكون روحك على كف عفريت ومصير وطنك كذلك، وفوق ذلك كله تهديك الحرب إصابةً في ساقك، إصابة سترافقك عمرك كلّه! ثم تجد نفسكَ جالساً في البرد الكئيب ترجى أي شيء يدفئك حتى لو كان قطعة سكر هزيلة تركها لك زميل أشدّ بؤساً منك ؟! ماذا لو اجتمع هذا كله مع قلبٍ خيّبه قلبٌ آخر؟! قلبٌ تم الاستغناء عنه وجرتْ خيانته هكذا في وضَح النهار وليذهب إلى الجحيم غير مأسوف عليه!

أيّة سخافة هذه التي نعيشها! أليست ضريبة العقل؟! فالحيوانات الأخرى لا تخون، الإنسان هو الحيوان الخائن الوحيد. والأدهى أن الإنسان يستخدم هذا "العقل الكارثي" في تسويغ حماقاته وأخطائه وجرائمه! لكم هو قادر بخبث ودهاء على سَوْق كل الأدلة التي تثبت براءته وبالتالي براعته في الكذب، وتسوّغ ما اقترفت يداه وما ارتكبت

t.me/yasmeenbook

جوارحه من كوارث. فيمكن مثلاً لأي لصّ أن يتباكى أمامك ساعات مستخدماً فقرَه شماعةً تبرر لصوصيته، ويمكن لأية عاهرة أن تسوّغ عهرها شاهرةً حرمانها سيفاً في وجه متهميها. كلٌ يدافع عما يعتقد أنه يملكه، فيوهم الآخرين أنه على حقّ ويقنع نفسه أنه بريء، يكذب الكذبة ويصدقها! وبالنتيجة الجميع جلاد والجميع ضحايا والاقتتال هو المصير.

"هذا كلّه بسبب العقل، تباً للعقل إن كان هذا ما أوصلنا إليه! تبا للخائنين!"

قالها ثائر بغضبٍ رامياً سيجارته تحت قدمه وداسها بغضب شديد وكأن أفكاره انفجرتَ بلحظة واحدة، وكأن النتيجة التي توصل إليها كانت القشة التي قصمت ظهر البعير وفجّرت صمته، أراد ماهر أن يهدّئ من روعه فأومأ إليه جوان كي يتركه يتابع دون أن يقاطعه، كان الاثنان يعلمان حجم الألم الذي يجتاح ثائر مؤخراً. فأردف ثائر بعد أن أشعل سيجارة ثانية من نار الحطب المشتعل أمامه: " لا أدري لماذا احتار علماء الاجتماع كثيراً في تعريف الإنسان فتارة يقولون حيوان ناطق، وتارة أخرى حيوان عاقل، وحيوان كاتب وسياسي واجتماعي و و و ؟! لماذا كل هذا؟!".

انسلّ أحد الأربعة من المكان وكأنما يريد أن يصمّ أذنيه عمّا يسمع دون أن يفلح في تجنّب صوت ثائر: "يا جماعة خلصونا وقولوا ببساطة: الإنسان حيوان خائن! خائن يا جماعة! لا يوجد حيوان يخون إلا الإنسان، بما حمل بين كتفيه من قنبلة سخيفة لكن خطيرة، تسمى العقل، نعم الإنسان كذلك: خائنٌ وحقير، خائنٌ وتافه".

نظرة الذنب التي لم يرها أحد اشتدت في عينيّ المنسحب، تعثّر في مشيته، كاد يسقط، بينما تمزّق مسامعه كلمة "خائن" التي قالها ثائر، نجحت يده في إيجاد مسدسه، وشهق بقوّة.

t.me/yasmeenbook

هل تعلم متى ينتهي الحب ؟ إن لم تكن تتألم عندما تقول أن كل شـيء انتهى

بوكوفسكي

t.me/yasmeenbook

ماهر

ريف دمشق، صيف 2017

"هيا يا ثائر! أتريد أن تبقى باكياً على أطلال لينا يا رجل؟!" قال ماهر.

"اسمع! لن نقبلك في الكتيبة إن بقيت العازب الوحيد بيننا! فإما أن نتورط معاً أو ننجو معاً" أضاف جوان ممازحاً فابتسم ثائر، بينما تغيّر لون وجه ماهر.

ما الذي يعنيه جوان؟! العازب الوحيد؟! هل هذا يعني أن جوان ليس عازباً؟! على حد علم ماهر، جوان لم يخطب بعد!. حاول ماهر أن يبدو طبيعياً بعد كلمة جوان التي هزّته رابطاً كلام جوان الآن برقم هاتف سلاف الذي رآه على هاتفه، صحيح أنه لم يرَ الرّقم وما رآه كان الاسم بالكرديّة لكن حدسه كان يخبره أنها سلاف. لكن لماذا لم يخبر جوان أحداً من قبل إن كان قد ارتبط رسمياً بسلاف؟! لماذا يكون الأمر سرّاً، ثم كيف يحدث ذلك وماهر عاشق وحبيبته هيف بانتظاره؟! كان ماهر يفكر بالسبب الذي يمكن أن يدفع سلاف لإخفاء ما يحدث، فعادةً تسارع الأنثى المصدومة للارتباط بأي شخص كردّ فعل، وتسارع أكثر في اتباع مختلف الوسائل التي تقود إلى إيصال الخبر إلى حبيبها السابق لتغيظه ما أمكن، لكن هذا ليس سلوك سلاف، ماهر يعرفها حق المعرفة، لم تفعل يوماً ما يفعل الآخرون، إنها لن تقوم بإعلان الأمر فهذا سيكون تقليدياً وسخيفاً جداً، ستلجأ إلى ما هو أشدّ وطأة عليه. ستبحث بدقة وعناية عن الطريقة الأمثل

t.me/yasmeenbook

لإزعاجه. وستفتش بين نقاط ضعفه لتؤلمه أكثر. فمن أحبّكَ يوماً هو أكثر الناس معرفةً بكَ، لقد رآك سعيداً حزيناً غاضباً وراضياً، اختبرك في الليل والنهار وفي صيف قلبك والشتاء وفي ربيع إشراقك وخريف خيباتك، فهو الأعلم بمكامن قوتكَ ونقاط ضعفكَ، لذلك هو أكثر شخص يمكنه إسعادكَ وهو الأكثر مهارةً في إيذائكَ فتبدو شخصيتكَ أمامه كالدريئة التي يعرف تماماً كيف يسدد إصابته نحوها، كالهدف الذي سبق أن تدرّب عليه كثيراً، وامتلك أسباب وأسرار إصابته في المقتل.

وسلاف تعلم أن ماهر يكره بين البين، وأنصاف الحلول والحالات، وكان يفضل دوماً حسم الأمور حتى لو على أسوأ وجه، فالحسم عنده كان هو الأهم وأن تتركه بين الشك واليقين بين الحياة والموت، فهذا أفضل ما يمكن أن تختاره كي توجعه تماما. وكان ماهر يعلم أنها لن تتركه للراحة ولن تسامحه بهذه السهولة على فعلته وأنها سوف تجعله يدفع الثمن على دفعات متتالية موجعة مستخدمةً قراءتها الجيّدة له.

لا ينسى أبداً حين عاش فترة القلق التي سبقت التحاقه بخدمة العلم وقت اندلاع الاضطرابات. "ما بك حبيبي! هوّن عليك ربما لا يتم استدعاؤك من يعلم" قالت سلاف حينها.

"وربما يتم، إلام سأنتظر! أتعلمين، سأذهب إلى شعبة التجنيد غداً أو بعد غد، وأطلب التحاقي، لا يمكنني تحمل هذا الانتظار الذي يقتلني" ظنّت سلاف حينها أنه يمزح أو يبالغ في رد فعله، لكن عندما نفذ ذلك حقاً في الأسبوع نفسه، اشتعلت غضباً لضيق صدره ونفاد صبره واتهمته بالحماقة والجنون. فقد استعجل أمراً، كان يمكن أن يطول حدوثه أو ربما لا يحدث أبداً. "لقد اقتطعت من عمرنا أياماً كان من الممكن أن نقضيها معا، لن أسامحك يا ماهر!" قالت يومها بحزن.

t.me/yasmeenbook

ومن بين المرات الكثيرة جداً التي كانا يتشاجران فيها، كانت هذه المرة أواخر عام 2012 في بيت ابن الجيران رفيق طفولتهما الذي يرقد في المستشفى بعد أن دخل في غيبوبة لأكثر من شهرين، إثر حادث سير. ذهب الجميع يومها للاطمئنان ولا ينسى ماهر وربما لم تنس سلاف تلك الأمسية.

"موتٌ سريري ولا أمل من الشفاء؟ لا يمكنني أن أتخيل ما الذي يحدث لهذا المسكين، إلى متى سيحتمل أهله هذا العذاب؟! لماذا لا يوقفون اسطوانة الأوكسجين ويريحونه وأهله مما يحدث؟!" حين قال ماهر هذا، جحظت عينا سلاف غير مصدقة ما تسمع "لا تقل لي أنك تؤيّد الموت الرحيم! أرجوك لا تقل ذلك! إنه قتل يا ماهر! قتل!".

"القتل أهون من موت سريري، أهون من أمل كاذب تعيش عليه أمٌّ كلما زارته تعود والألم ينهش قلبها، ألا ترين حالتها؟ إنها تموت. أن تبكيه مرة، خيرٌ من موتها معه كل يوم مئة مرة".

ليس فقط لأنهما اختلفا في وجهات النظر، وإنما لأن القذائف والصواريخ كانت تهطل كالمطر الغزير في شوارع حمص ولم يكن من أحد يتجوّل خارجاً غيرهما، لذلك لم يمارسا طقسهما المفضّل في المشي معاً حين خرجا من بيت الجيران.

يومها لم تستطع سلاف أن ترى في كلام ماهر إلا القسوة المرعبة، أدارت ظهرها ومشت بغضب وحزن حتى دون أن تودّعه، كانت صدمتها بقسوة كلامه لا تزال تحتل كيانها. ناداها صوته من بعيد: "سلاف! أنا لست قاسياً! لست حجراً أنا أنسان يمقت الانتظار، يمقت نصف الحياة، سلاف!" سمعته لكنَّها تابعت سيرها ولم تلتفت.

t.me/yasmeenbook

"سلاف! سلاااااف! لا تمشي هكذا التفتي فقط أرجوكِ! حسناً لن أتحرك، لن أتحرك ولتُصبْني الصواريخ في رأسي، حينها أرجوكِ اقتليني قتلاً رحيماً إن رموني في غرفة العناية، لا أريد رحمة أنبوب الأوكسجين، اقتليني أفهمتِ! هكذا فقط ترحميني!".

توقفت لثوانٍ ثم التفت نحوه، هرولت وحين أصبحت أمامه كانت أنفاسها قد تسارعت ،نظرت في عينيه وصوت الرصاص يدوي، عانقها. دوى صوت صاروخ شديد، احتضنها ماهر وركض بها إلى أن اختبآ تحت أقرب سقف فاختبأت بين ذراعيه، وعلى جبينها ووجنتيها وشفتيها أودع الكثير من الأسرار.

* * *

" إنك لا تعلم يا ثائر كم هو جميل أن تحبّ من جديد وأن تحبّكَ صبيّةٌ معطاءة تحيطكَ بالدفء في كل ما تقول وما تفعل." قال جوان.

لم يكن ماهر واثقاً أن جوان جادّ فيما يقول! لكن المؤكد أن، القلق المحيّر كان يأكل قلب ماهر اللحظة، والغيرة الحارقة استبدت به حينها كلما فكّر في الإجازة التي طلبها جوان من العقيد الجديد، والمؤكد أكثر أنّ لدى المرء شراً فطرياً يدفعه للنيل من غيره وكأن تعطشاً للغرور بداخل كل شخص يدفعه لينهل من هذا النبع الذي يرويه بسعادة. فأردف جوان مخاطبا ثائر:

" تأكّد أنّها أحبّتْ غيركَ وأنّها سعيدة الآن، تلهو وتمرح بينما أنت تنتحب. لذا أحببْ أنت أيضاً من جديد وانسَ!"

شعر ماهر أن جوان لم يكن مقصده أن يصبّر ثائر على حزنه بقدر ما يريد أن يوصل لماهر رسالة تقول له أن سلاف نسته وأحبتْ غيره وهاهي تمارس حياتها من بعده ومن غيره.

t.me/yasmeenbook

"إنك تقول هذا بكل بساطة لأن حبيبتكَ هيـف لا تـزال في حضـن هواك!" قال ماهر محاولاً الرد والاستفسار، وكأنه يسأل جوان هل مـا زلت أنت وهيف حبيبين أم أن شيئاً ما قد تغير؟!

لكن جواب جوان لم يثلج صدر ماهر ولم يطفئ نـار قلبـه :"أنـا يـا صديقي العزيز، شعوبٌ من العشاق، يمكنني أن أحبَّ مئـة امـرأة ..." قبل أن يكمل جوان كلامه جاء صوت العقيد قاطعا حديثهم:

"إجـازة جـوان مرفوضـة" ارتسـمت علـى وجههمـا نظرتـان غـير متماثلتين، أحدهما لم يزعجه ما سمع.

t.me/yasmeenbook

كانت الطائرات والسفن مليئة بشباب كانوا يهربون من الحرب التي أجبرتهم أن يكونوا طاعنين في السن وهم لم يُكملوا العشرين من العمر.....

ادواردو غاليانو

t.me/yasmeenbook

حياة

حمص، صيف 2017

أخبرها أن الحياة قرار، وأن القرار مسؤولية، وأخبرها أنه لا وجود لإيمان دون حامل لهذا الإيمان، وأنها مخطئة بشأن ما تعتقد به، فالإنسان يعتنق الأشخاص لا الأفكار ويؤمن بحاملي الأفكار. والدليل أننا حين نكره شخصاً، فغالبا ما نفارق الأفكار التي يحملها هذا الشخص ونبتعد عنها. وربما نتبنى أفكاراً مناقضة تماماً، قال لها إنها لو كانت تحبّه لكانت أفكاره أقنعتها ولأصبح هو فقط وطنها ولآمنت به ورافقته أينما ذهب. لم تكن واثقةً أن ما يقوله صحيح! حاولت أن تفهم وتقتنع، كيف ستتحرر من وطنٍ يسكنها؟! كيف تخبره أنها لا تستطيع مغادرة الوطن؟! لأنه لن يفهم ما ستقول، لم تقل. أخبرها عن شروط الحياة الجيدة في ألمانيا والضمان الصحي العالي، وأنها ستحصل على الشهادات التي طالما حلمت بها، ولأنها تخشى البرد طمأنها أن التدفئة جيدة هناك، وأن أرضية المنازل والمعاهد والجامعات خشبية أو مفروشة بالموكيت الذي يمنح الدفء.

أيّ دفء؟ حسناً لكن ماذا عن الأيام الباردة التي تنتظرها واللغة الباردة ودم الغرب البارد. كيف لابنة الشمس أن تعتاد ذاك كلّه. هل ستكون مخطئة إن خشيت على أبناء الشمس الذين يغتالهم البرد قبل الصواريخ، هل يكون هذا اعتناق أفكار أو أشخاص؟! كيف ستتابع الأخبار وتسمع حول تشييع أبناء أرضها وهي كالفأر الهارب

t.me/yasmeenbook

المختبئ؟! هل هذا هو الصواب؟! قال لها إنّها يمكن أن تحمل وطنها أينما ذهبت! أخبرها أن قانون الحياة لا يحمي المغفلين وأن الثمن قد يكون حياتها من أجل فكرة خاطئة هي التمسك بالأرض، ومفهوم ملتبس هو الوطن!.

والدها لم يقل ذلك، والدها الذي اختطفه الموت قبل أن يكمل مشواره مع أسرته الصغيرة، والذي لا تذكر منه حياة إلا صوراً كالخيال، كالحلم، لم يقل ذلك. غادرهم باكراً جداً، لكنه ترك لها ولسهر بضعة أفكار لطالما اعتبرتها دستور حياة. كان يقول إنّ الوطن هو الأب وهو الابن، والأرض هي الأم. وكان يقول إنّ البلاد الأخرى وجودنا فيها زيارات ورحلات مهما طال زمنها والوطن هو البيت الذي سنعود إليه مهما طال غيابنا عنه. هل كان مخطئاً؟ بلال الذي أحبّت وتزوجت لم يكن بعيداً عن هذه الأفكار في البداية، أو لم يكن ضدّها على الأقل، هل كان غير ذلك وهي التي لم تدرك؟ أم أن الحرب غيّرته، فالحرب تبدّل الأشخاصَ تماماً كما تغير وجه الأرض؟ كان يعرف فوبيا الخواتيم التي لديها وحب الوطن حتى المرض وقد تفهّم ذلك كلّه. "أنت مصابةٌ بمرض هو حبّ الوطن" كان يقول، فتجيبه: "ولن أرجو الشفاء من هذا المرض".

حاولت حياة الهروب من الذكرى، جلست تنظر إلى الطريق عبر النافذة ممسكةً بفنجان الشاي، لديها اليوم وقتٌ طويل فهي مصابة بصداع شديد ولن تذهب إلى العمل، حسناً ربما يكون من الجيّد أن يكون هناك عطلة، لولا المرض لما حظيت بيوم راحة، تمنت أن يكون كذلك، منذ زمن لم يتوفر لها الوقت لتنظر وتتأمل، راحت تراقب المشهد. شارع يشبه الوطن، هو صورة مصغرة عنه، فيه كلّ شيء، حياة كاملة رغم توافر شروط الموت الكامل، امرأة تحمل

t.me/yasmeenbook

بيديها أكياساً فيها خضراوات وفواكه وخبز وبيض وفي عينيها تحمل أبعد من نية الطهو لأسرتها عند العودة، تمشي ببطء لا يعكس تعباً بقدر ما يعبر عن سأم وخيبة، كان في عينيها أسىً وهموم، وعتبٌ كبيرٌ ربما على رجلٍ لم يكن شريكَ حياةٍ جيّد، ربما كان غير ذلك، لكن هذا ما قرأت حياة قبل أن يلفت نظرها على الجانب الآخر من الطريق، رجل يبدو في أواخر الخمسينات وقد صبغ شعره الأشيب بلون بنيّ محمر غير أنيق ربما لم يوفّق بنوع جيد من صبغات الشعر، هذا متوقع فبعد الحرب كان كلّ ما ورد إلى البلاد غير جيد وفيه غشّ كبير، تجار الحروب يقبضون أسعار البضاعة الأصلية ويقدمون للمستهلك أردأ الأنواع. حسناً الكل خاسر، لكن هذا الرجل يطمع في كسب آخر، إذ لم يترك صبيّة في الشارع، إلا وأشبعها نظرات تمتلئ شهوةً، وتدل على مراهقته التي سُجنت يوماً، فخرجت اليوم في غير أوانها، فيه شباب غير مشبعٍ، فبدا وكأنه قد جمّد نفسه في زمنٍ فات، بما في ذلك ملابسه التي يعتقد أنها لا تزال تليق به تماماً كما كانت تفعل في الماضي الذي لم يغادره.

شاهدتْ مراهقَيْن يتشاجران وآخرين يحاولون إصلاح الأمر والجميع يصرخ بصوتٍ عالٍ بحيث لم تفلح النافذة المغلقة في تجنب صراخهم. انتهى الشجار بعد أن عبّر كلٌ من المتشاجرين عن رجولة مستعجَلة عبر التفوّه بأكثر الكلمات سوقيّةً، هكذا تعلموا! مرّت صبيّة تتمشى بدلع، تجري مكالمةً بلا شك مع حبيبها، فملامحها كانت تشع دلالا وإشراقا وكأنها تجالسه، وكأن يديها ممسكةٌ بيديه لا بالهاتف، كانت رائحة الأمل تفوح من حركات عينيها وشفتيها وأصابعها التي ترد خصلات شعرها إلى الخلف كلما انهمرت على وجهها كالشلال إثر ضحكة وتمايلٍ يشي بكلمات غزل رطيبة على

t.me/yasmeenbook

مسامعها، غير منتبهة إلى الشاب الذي يمشي قبالتها ببطء والذي بذل جهداً ليس بالقليل، ليلفت نظرها، رغم أنه كان لافتاً حقاً ووسيماً، لكنها العاشقة حتى الثمالة، لم تلحظ كتفيه العريضتين وصدره العالي المنتبج وعضلات معدته المشدودة المفصلة تفصيلا وقد أظهرها عبر كنزة قطنية رقيقة رمادية اللون لاءمت بنطال الجينز الأزرق الفاتح الذي اكتملت معه رشاقته فبدا كراقص الباليه يمشي مختالا بانتظار قلب ما يسقط إعجاباً وعشقاً.

أطفالٌ في المرحلة الابتدائية، يرتدون اللباس المدرسيّ ويأكلون سندويشات الفلافل[1] على ما بدا لحياة، والسعادة تغمرهم، وبما أنها الحادية عشرة ودوام المدرسة لم ينته بعد، فلابد أن سرّ سعادتهم هي اللحظات المسروقة التي ظفروا بها ويعيشونها الآن بعد أن نجحوا في الهروب عبر القفز من فوق الجدار، أو ربما بعد رشوة حارس المدرسة. تذكرت حياة فولتير: "المتعة إنما تكمن في الخطيئة". لوهلة شعرت وكأنّ الحرب قد انتهت، فالناس تبدو طبيعيةً لكنّه بلا شك استقرارٌ كاذبٌ وغادر.

الطقس حارٌ، أرادت أن تشعل المروحة، "تباً، لا كهرباء". نهضت عن الكرسي القريب من النافذة، وجلست على الأريكة التي اعتادت أمها الجلوس عليها، لكنها خرجت اليوم مع سهر وأحمد الصغير إلى المستوصف، فاليوم موعد أحد اللقاحات. شعرت حياة بشيء يفوق الملل ويختلف عنه، كانت تكره المرض لأنه يزجها في أوقات الفراغ المفتوحة التي تتسلل فيها الذكريات الأليمة اللئيمة إلى روحها وعقلها كما تتسلل الحشرات في الصيف من النوافذ المفتوحة، فلطالما

---

(1) أكلة شعبية مشهورة جدا في المدن السورية كافةً، مكونة من الحمص المهروس يضاف إليه البقدونس والثوم والتوابل ثم يقلى بالزيت.

t.me/yasmeenbook

أدركت حياة أن الشفاء المؤكد للذكريات هو الانغماس بالعمل وأن علاج التعب من العمل هو المزيد من العمل. حاولت التهرّب، لكن بلا جدوى. وحدة وأريكة وصمت وهدوء، شروط أكثر من كافية لاستحضار قسريّ للذكريات، والذكرى تستدعي الأخرى، والجراح تأبى أن تحضر إلا مجتمعة. وعادت إلى أسئلة لا تجد عنها جواباً.

قبل الحرب، لحن أغنية لفيروز أثناء تجوالها في معرض للكتاب بدمشق، جعل قلبها ينقبض، جسدها يجوب المعرض بينما روحها مستقرة على أريكة طفولتها وقد انتهت فترة برامج الاطفال. كانت تحزنها شارة النهاية ويؤلمها أن تودع بطلات وأبطال برامج الأطفال، أبطال افتح يا سمسم، السنافر، ساندي بل أو ريمي أو الليدي أوسكار. من أين جاء كرهها للنهايات ! تذكّرت كيف كانت تبكي على طريق العودة من العطلات الصيفية حاشرة رأسها في زجاج السيارة الخلفي كي لا يراها أحد بينما والدها يدندن مع فيروز التي كانت بطلة كاسيتاته كلها.

بعدك على بالي. يا حلو يا مغرور.

يا حبق ومنتور على سطح العالي...

وفي المعرض، وقعت يدها على رواية /نساء/ لبوكوفسكي الذي تعشق أدبه، وبينما تقلب الصفحات بأصابعها استوقفتها الفقرة: "كنت سعيدا أنني لا أحب... الناس الذي يحبون يصبحون عصبيين، خطرين. يفقدون حس الإدراك لديهم. يفقدون مرحهم. يصبحون غاضبين، مملين عصابيين. يصبحون قتلة".

"لماذا تقع عيناي على هذا النص من بين كل النصوص في معرضٍ واسع كهذا؟!"

t.me/yasmeenbook

رغم الأيام الطويلة والعريضة والبخيلة والثقيلة، ظل هاجس الرمادي يرافقها، بل يلاحقها ويتربص بها ويؤرّق سعادتها وأحياناً يؤدي إلى وأدِ الفرح في مهده. كبرت وكبرت معها فوبيا الخواتيم. أصبحت تحبّ من قصص الحب تلك التي لا تبدأ. لأنها لا تنتهي ولن تنتهي. فكل ماله بداية له نهاية. كانت تسعى جاهدةً لتبقي الحكايات المحتملة واقفة على التخوم. التخوم أمل، والغوص يقتل الأمل، الطريق أسمى من الوصول، والسعي غاية بذاته ولذاته.

قال لها مرة: "حدسك لا يخطئ. يشمّ الحبَّ كما يشمّ ألماني رائحةَ شطائر اللحم (الفورست) بعد يومٍ شاق...وكما يبتعد عنه متبعو الحميات الغذائية، تبتعدين"..

تذكرت كيف كان خوفها من النهاية يجنبها البداية. كانت كلما لاح لها نور البدايات وقفت تتأمل، تفكر تتوجس وتنسحب وتكتفي بمراقبة ممالك العشق والعاشقين عن بعد. أما بلال فكان يراقبها عن كَثب واثقاً من كسبٍ وشيك. هو فقط استطاع أن يقلب مفاهيمها رأساً على عقب ويجعلها تبحر وتترك التخوم، ضاربةً عرض الحائط بكل مخاوفها وهواجسها وأفكارها المسبقة وتحفظاتها، وهل الحب غير ذلك؟! الحب الذي يجعلك تعيد حساباتك وتسلسل أفكارك لا يعوّل عليه، أنت نصٌّ والحبّ كاتب، يحذف منك يعدّل، يضيف يعيد صياغتك، يعيد ترتيبك، قد ينسفكَ نسفا كلياً ويكتبكَ كنصٍّ جديد. الفكرة الوحيدة التي لم يتمكن بلال من إقناع حياة بها هي الرحيل. عند هذه المسألة تحديداً كانا متساويين في العند، لا هي اقتنعت بمغادرة الوطن ولا هو عدل عن فكرته في الرحيل، اختلفا ورحل، رحل إلى الأبد: "ليتني منعته كان يجب أن أمنعه، آخر ما توقعته أن يموت غرقاً، لماذا لم أمنعه من السفر بقوة؟ ربما كنا معاً الآن" تمتمت وتذكرت كلام والدتها: "الأعمار بيد الله يا بنتي، والمقدّر مكتوب".

t.me/yasmeenbook

حركةٌ خفيفةٌ عند باب البيت قطعت شرودها، يبدو أن أحداً ما يحاول رنّ الجرس ولم يفلح لأن الكهرباء مقطوعة فبدأ يطرق على الباب بخفة في البداية، ثم أقوى قليلاً.

اقتربت حياة بحذر اعتادته منذ بدء الحرب: "من بالباب؟!".

"أنا أأاأ عفواً أنا، صديق أحمد الله يرحمه، ذهبت إلى بيت أهله ولم أجد أحداً".

همّت بفتح الباب، لكنها ترددت، فكّرت لثوان في حوادث الخطف التي تحدث تحت غطاء الحرب وتذكرت تحذيرات والدتها المستمرة، ارتبكت وقالت: "أعتذر منك، لا يمكنني استقبالك، يمكنك أن تعود لاحقاً".

"حسنا، أعتذر عن الإزعاج، سلامي للجميع وقبلاتي لأحمد الصغير ابن الغالي".

"أهلا أهلا.." ردّتْ باقتضاب

خرج ثائر ثانيةً من البناء، هرولت حياة إلى المطبخ لتراقبه من النافذة المطلة على الشارع، شاهدته وهو يخرج من البناء، تأملت في قامته الطويلة وكتفيه المتعبتين، كان حليقَ الرأس كبيره، لاحظت مشيته العرجاء وذراعه المسندة إلى عكاز معدنيّ، تذكرت أنّها رأته يوم عزاء أحمد لكن كان ذلك سريعاً، ويوم أتى مع أصدقاء المرحوم أحمد لزيارة سهر وأحمد الصغير، لم تشارك في استقبالهم لانشغالها بالعمل، لكنها تتذكره: "يبدو أنه حقاً صديق أحمد! تباً للحذر والخوف والحرب اللعينة!". توقف لحظات، وقد بدت عليه الحيرة، فإنه لا يعرف أين يذهب ولا يعرف عنوان مشغل الخياطة الذي أرسله إليه العقيد لجلب التبرعات من بطانيات ومعاطف وغيرها بعد أن

t.me/yasmeenbook

رفض إجازة من تكفّل بهذه المهمة. "ألم يجد العقيد أحداً غيري يرسله في البحث وأنا على قدم معدنيةّ؟!" كان ينوي الاطمئنان على من ترك أحمد الشهيد، فلم يجد أحداً في بيت أبي أحمد ولا هو تمكن من رؤية أحمد الصغير، ولم يتمكن من السؤال عن عنوان المشغل. "ما هذا النحس، هناك لا أحد في البيت وهنا امرأة لا تريد استقبالي!" تمتم وقد التفت رافعاً رأسه فالتقت عيناه بعيني حياة التي لم يكن ارتباكها كافياً لتختفي وراء الستارة بالقدر الذي لم تكن شرقيّة ثائر كافيةً ليشيحَ بوجهه بعيداً عن وجه أحبّ أن يطيل التفرّس فيه، لحظات اجتاح فيها دفء غريب كيان حياة، أما ثائر فشعر بوخز في ساقه المصابة، للمرة الأولى كان وخزاً محبباً، امتد من أخمص قدمه إلى رأسه كتيّار كهربائيّ خفيف.

تمتم: "لو أنها فتحت الباب فقط! هذي الجبانة!".

"لو أنني فتحت له، المسكين يبدو متعباً، يكفيه ما يواجه هناك" تمتمت حياة.

"ثائر يا خالتي أنت هنا تفضل يا قلبي تفضل! لمَ تقف هنا؟!، حياة بالبيت" قالت أم حياة مشيرةً بيدها إلى النافذة، كانت قد عادت من المستوصف مع سهر والصغير. سلّمت الأم وسهر على ثائر، دخل الجميع البناء، لم تسمع حياة صوت أحمد الذي كان يبكي جراء التطعيم، كانت تصغي لصوت نبضها المتسارع وصوت آخر بداخلها يخبرها أشياء غريبة، لم تستطع تفسيرها، تركت الستارة تنسدل على النافذة، بينما شعرها الأسود على كتفيها منسدل.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الألم زهور تتفتح طوال الوقت...

بوكوفسكي

t.me/yasmeenbook

أبو هانـي

حمص، خريف 2017

بعد إجراء أكثر من بروفه كانت الفساتين علـى وشـك الانتـهاء، لم يبقَ إلا بعض الرتوش البسيطة. أخبرته إحدى النساء في مجلس العـزاء أنها لم تستطع أن تصدق أنهما فارقتا الحياة، قبل يومين فقـط التقتـهما عند الخياطة التي أخبرتهمـا أن الفسـاتين سـتكون جـاهزة في غضـون أسبوع. تابعت المرأة حديثها بينما استوقفت كلمة الفساتين أبـا هـاني، وراح يفكر فقط كيف يمكن أن يصل إلى حيث تعمـل هـذه الخياطـة! وكيف يمكن أن يحصل على الفساتين التي لامست يوماً جسـدي ابنتـه وزوجته! إن قطعةً من قماش الآن أثمن مـن أي حجـر كـريم ومشـغل الخياطة هو اليوم أهم بكثير من متحف اللوفر بالنسبة إليه.

"كفى! عيب عليكن! الرجل يريد أي ذكرى من المسكينتين " قالت أم ماهر للنساء اللاتي يتغامزن بخبث في مجلس العزاء بعد أن سأل أبو هاني عن عنوان الخياطة بدقة.

لم يكن أبو هاني معروفا جيداً بين أهل زوجته وجيرانهم. كان يـأتي فقط عند المناسبات حتى أن زوجته كانت تأتي لتزور أهلها مع ابنتـهما بينما هو مشغول في إدارة معمله وشركته بدمشق، وكانت هـذه المـرة المناسبة الأقسى التي أحضرته من دمشق. سـاكنو دمشـق هـم بالنسـبة لأهـالي المحافظـات الأخـرى المتمـدنون المتحضـرون الأثريـاء المثقفون، اجتماعيا يُنظـر إلى (الشـامي) أي ابـن دمشـق أنـه الشـاطر الذكي صاحب اللسان الحلـو والكـلام المعسـول هـو (الحربـوق) أي

t.me/yasmeenbook

الفهلوي الذي لا يُخشى عليه والذي يعمل بمبدأ الغاية تبرر الواسطة. ربما هي السمات الغالبة على أبناء العواصم المكتظة بالسكان، بحيث يدفع التنافس الشديد الفرد إلى بعض الالتواء في أساليبه للوصول. كثيرون تغيرت صفاتهم حين انتقلوا إلى المدن وكان أبو هاني أحدهم. "اسمعي يا حبيبتي، إنّ دمشق ليست حمص، إنها العاصمة، غداً ستتغيرين كما تغيرت أنا بعد أن جئت من حماه".

كل ما يعلمه الجيران هنا أن الفتاة التي كانت تقيم في حمص مع أهلها انتقلت لتقيمَ في دمشق حيث تزوجت ابن خالتها المهندس الثري الذي أمضى طفولته ومراهقته في حماه، ترك حماه في أواخر الثمانينات ليدرس في دمشق الثانوية ثم الهندسة الطبية في جامعة دمشق، وحين تخرج تمكن من اقتناص فرصة عمل استثنائية في شركة خاصة كبيرة وهامّة، أقام مع مديره علاقة جيدة جداً فكان بالوقت نفسه محطّ ثقته وذراعه الأيمن ومحطّ غيرة وعداء آخرين ممن ردوا نجاحه إلى المصادفة والحظ، والحقيقة أن لا المصادفة ولا الحظ بقادرين على صنع نجاح مستديم متعاظم سنة بعد سنة، لكنها ألسنة الحاسدين الذين استبدت بقلوبهم الغيرة. حقق أبو هاني تطوراً علمياً ومهنياً، كان يعمل بكدّ واصلاً ليله بالنهار، وبدأ يكوّن ثروة وينشئ شركته الخاصة بزمن قياسي، حينها قرر أن العاصمة دمشق هي المكان الأنسب له ولمستقبل أسرته التي يحبُّها ويعمل لأجلها بإخلاص وصدق. طويل القامة أسمر البشرة، لم يكن ذا وسامةٍ لافتة، إلا أنّ الحياة حَبَتَهُ جاذبية جعلت كل من يلتقيه يعترف بتميزه، كان طموحا، مثقفا، مرناً جداً في تعامله محبّاً واثقاً من نفسه. تحبه النساء ويكرهه الرجال، لديه علاقات متعددة ومعجبات كثيرات وعاشقات متيمات لكنه لم يفكر بالزواج بأيّ منهن. "هناك فرق بيني

t.me/yasmeenbook

وبين من يسمونه زير نساء، فذاك يحبّ النساء، أما أنا فتحبني النساء! ماذا أفعل؟! محبة النساء غنيمة" هكذا دافع عن نفسه ساخراً في حديث له مع أحد أصدقائه مرةً.

"أعرف أن أعداءك كثر لكنني متأكدٌ أنهنّ كثيرات كذلك أولاء اللاتي تذيب قلوبهن! إسمع، سأمنحك نصيحة! في الظل افعل ما يحلو لك! أما في النور، فاعمل بمنهج الأقوياء، زوجتك المستقبلية ينبغي أن تكون تقليدية جداً، محترمة جداً، أنيقة لكن محتشمة، نسبها راقٍ، تفخر بها حين تقدمها للآخرين، وتكون مبعث فخرها أمام الجميع، فكّر بهذه الطريقة، بمنطق السادة واترك للآخرين أن يختاروا أساليبهم في العيش فإما أن يكونوا سادة أو عبيداً، وأنت لن تكون باعتقادي شخصا عادياً، ربما ستصبح أحد رجال الدولة البارزين، من يدري؟!".

بعض الكلمات تكون وثائق تاريخية لا تمّحي، وكذلك كانت نصيحة مديره، يوم تسربت إليه معلومات عن علاقة تربط ذراعه الأيمن أبو هاني، بإحدى العاملات في الشركة، مديره الذي مارس دوراً هاماً جداً في إعادة تشكيل مداركه ونظرته للحياة والنجاح والحب والزواج والعمل، دفعه لاتخاذ قراره بالزواج من ابنة خالته الحاصلة على إجازة في الاقتصاد، الجميلة الرهيفة، ابنة العائلة الراقية، والدها، زوج خالته، كان أحد أعضاء البرلمان، ولديها أخ مغترب في النمسا أما خالته التي تدير مدرسة ابتدائية خاصة فكانت عنواناً للأخلاق والسمعة الحسنة. وجد ضالته المنشودة وأراد أن يقبض على الفرصة، هذا ما تعلم أن يفعل دائماً .

بعد اتصال أجراه مع زوج خالته الذي أبدى ارتياحا وترحيبا بالفكرة، سافر من دمشق إلى حمص عازماً على خطبة ابنة خالته.

t.me/yasmeenbook

وعلى طرقات السفر يحدث أن تزدحم الصور وتتدافع الذكريات ويحضر الأمس، داهمه شيء من ذاته القديمة التي لم يبق منها شيء تقريباً وكأنّه تركها في حماه حتى أنها تكاد تختفي، تذكر البنت التي أحبّ، زينة غير الجميلة، التي آمن بها رغم تخلي الجميع عنها. لوقتٍ قريب كان يعتقد أنّ كل إنسان عليه أن ينظر إلى أمسه وتجاربه الشخصية بتفهّم واحترام، إلا أنّه اليوم تعجّب من سذاجته السالفة حين قرر أن يواجه مجتمعاً بأكمله ليقف إلى جانب الفتاة التي أحبّ، تذكّر كيف دافع عنها رغم وضعها الاجتماعي الضعيف جداً والمتردي، واجه المحيط الذي لا يرحم، حاول إسكات ألسنة الجميع التي كانت مسلطة كالسيف على الرقاب، ربما كل شاب بحاجة إلى قضية يتبناها ويمضي وقته في الدفاع عنها حد الإستماتة، وزينة كانت قضيته حيث قرر البقاء إلى جانبها والزواج بها حين تسمح الظروف.

حين سمع أنها ستسافر ذهب إلى بيتهم وسأل والدها بحزن عن سبب ترك المدينة إلى أخرى، أجابه والدها حينها: "حين تكون عاجزاً عن تغيير التاريخ، فالأجدى أن تغيّر الجغرافيا، الجغرافيا قوّامة على التاريخ يا بني، وحين تواجه شراسة الجلّاد لا ترضى أن تكون الضحية، لأنه حين يمسك بالسوط، صدقني، سيتوقع فرارك بأقصى سرعة، ويدهشه استسلامك، الأحمق وحده من يسلّم مصيره للآخرين، ويمنحهم دليل إدانته، ويضع عنقه تحت سيوفهم، ليست المشكلة أن تغادر اليوم، ما دمت ستعود منتصراً بالغد!"

ربما لم يفهم حينها قصد والد الفتاة، كان حزن الفراق هو المسيطر، واليوم يفهم هذا الكلام على النحو الذي يلتقي مع حلمه، تساءل ماذا لو لم تواجه أسرة الفتاة ضغوطا اجتماعية ومادية؟! كيف

t.me/yasmeenbook

كان شكل حياته لو لم يمنع ارتباطه بها انتقال أسرتها من حماه إلى حمص؟! ماذا لو تزوّجا؟!

كان يشعر أنه على الطريق الصحيح اليوم فكان سعيداً لنضجه الحالي مقتنعاً بنصيحة مديره، وفخوراً بانتمائه الوشيك لطبقة لطالما كانت تبهره ويتمنى الوصول إليها. كان يعتقد أن هذه الطبقة الثرية اللامعة التي تسمى بالمخمليّة، تبهر الجميع، الكل يسعى إليها. من يحظى بها يمجّدها ومن يعجز عن الوصول إليها ينتقدها ويهاجمها، لكن دونما توقف عن السعي سراً وبالوسائل المختلفة ليكون فيها ومنها. فغالبية الناس منافقون كاذبون.

وهكذا كان يعتبر أنه نجا ونجح بأن أصبح صهر الأكابر. رُزق بابنة لم يكن يملك الوقت الكبير لها، لا سيما بعد اندلاع الحرب وانخراطه في العمل السياسي، فعوّض عن ذلك بالكثير جداً من الهدايا. الوقت والاهتمام وجدته في بيت جدها بحمص فكانت تزوره كثيراً مع والدتها.

كان أبو هاني يدرك تماماً ما الذي يمكن أن يخطر ببال نساء يسمعن رجلاً يسأل، في عزاء زوجته عن عنوان امرأة أخرى، وكان يعلم ماهي العبارات التي ستتردد سواء بين الواحدة منهنّ ونفسها، أو بينها والأخريات: "الرجال ليس لهم أمان" "عيب! ينتظر على الأقل حتى تبرد جثتها"، "كلهم هكذا، لا إخلاص ولا وفا" ذلك كلّه كان أبو هاني يدركه، لكن تركيزه في تلك اللحظة لم يكن إلا على كيفية الوصول إلى ما يمكن أن يصله بالماضي .

النساء اللاتي اعتدن الحديث بقناعة دامغة عن غدر الرجال وخياناتهم وقدرتهم الفائقة على نسيان حبيباتهم وزوجاتهم، لم يكنّ بقادرات على قبول فكرة وجود رجل يمثّل استثناءً لقاعدتهن.

t.me/yasmeenbook

كانت الخيّاطة سلاف بالنسبة للنساء، الصبيّة العزباء الفاتنة خياطة المدينة المشهورة، التي تمكنت بفضل مهارتها ودماثتها أن تكسب زبونات من الطبقة المخملية في المجتمع، هي التي لم تظفر بحبّ عمرها كزوج لأسباب لا تهم النساء اللاتي يردن الثرثرة حول العزباء الجميلة. أما بالنسبة لأبي هاني الزوج والأب المكروب، كانت الخيّاطة حلقة تصل حاضره الأسود بماض زاهٍ يحلم باستعادة أجزاء منه . إنه سجينَ الحزن والذنب الآن وأية ذكرى من أحبائه الراحلين كان بمثابة نافذة من زنزانته على عالم يعلم تماماً أن زيارته غدت مستحيلة قبل صدور البراءة. وبراءة أبي هاني يصدرها الزمن تحت عنوان النسيان.

خرج في أحد الصباحات وقد مر شهران على فقده أسرته. مازال الحزن يلون ملامحه حيث لم تنجح نظارته الشمسية الفاخرة بإخفاء حزن عينيه الذي انساق إلى كامل وجهه. مرتدياً معطفاً أسود، حاملاً جوَّاله الذي دوّن فيه رقم وعنوان الخيّاطة كما دلته الجارات. جلس وراء مقود سيارته التي أخذت تتقدم إلى الأمام على الطريق بينما روحه تعود إلى الوراء إلى ماضيه الذي فقد والذي سرقته منه الحرب في لحظة غادرة. لم يكن أبو هاني يتوقع أن يفقدهم هكذا فجأة. يعتقد الإنسان عادةً أنّ ما حوله ومن حوله باقون، وأن الرحيل لا يقتصر على الآخر، ولا يخطر بباله أنه هو الآخر، فهو رحيلٌ ممكنٌ، ومشروعُ خسارةٍ، وعدمٌ قيد الإنجاز، ولا يضع في الحسبان هذا العدم، فتراه يمارس حياته وكأنه خالد وكأنهم خالدون. فيهمل الاتصال ويؤجل التواصل ويكثر من الغياب ويقصّر في المحبة قولاً وفعلاً ثم تباغته الحياة بالفقد فينهكه الذنب ويدميه الندم. كان أبو هاني كثير الانشغال شديد التقصير إزاء زوجته وابنته وحين تعاتبانه كان يعدهما بالكثير من التعويض.

t.me/yasmeenbook

لكن الوقت أشدّ خبثاً ومكراً، لا يمنح نفسه للمنتظرين المؤجلين، ويقطع بلحظة واحدة الأمل بالعوض.

على طول الطريق لم يرَ ما كان سابقاً يمتعه من مناظر طبيعية. مشهدٌ واحدٌ يصرّ على التكرار أمام عينيه. منزله وسط الدمار والحرائق لحظة وصوله إلى دمشق وهرعه حين سمع بالتفجيرات في حيه، أمام ما تبقى من بناء تفوح منه رائحة الموت، وقف مذهولاً خائرَ القوى ينظر بيأس، بعد أن منعه عناصر الدفاع المدني من الدخول في الحريق، إنه يعلم أنهما صرختا كثيراً وطلبتا المساعدة وحلمتا بالنجاة ورددتا اسمه كثيراً. نداءان سيظلان يصمّان مسمعه لسنوات طويلة: "هشام...بابا"

الحريق أُطفِئ يومها وانتهى الأمر، لكن حريقاً في دمه سيدوم اشتعاله.

على الطريق وبينما يقود، كان يتلفّت يمنة، حيث كانت أم هاني تجلس بجواره ثم إلى الخلف، حيث ابنته هناء. وكأنه يسمع صوتهما تحادثانه "أبو هاني نريد أغنية جميلة، والله مللنا الأخبار سئمنا يا رجل" أدار الراديو بلا وعي وكأنها بجواره فعلاً تطلب إليه ذلك، ويلبي طلبها كما اعتاد أن يفعل. عاد ليسترق النظر إلى الخلف ويقول: "بابا هناء اتركي الموبايل واستمتعي بالنظر إلى هذي الأشجار على الجانبين" إنه يحادثها حقاً. تردّ عليه ببعض التذمر: "حاضر بابا".

الرحيل لغزٌ مؤلم! قبل أيام فقط لم يكن يعلم أن لوجودهما حوله ومعه وإلى جانبه كل هذا الشأن! قبل أيام لم يكن يتوقع أنه سيلهث وراء أيّ أثرٍ منهما كما يلهث الجائع وراء الرغيف! وأنه سيتكمش بخيط أمل حولهما كما يتكمش الطفل بثوب أمه بين الحشد مخافةَ الضياع. حين قالت له هناء ذات يوم أنها ذاهبة مع ماما إلى الخياطة

t.me/yasmeenbook

وأنهما تستعدان للعيد، لم يكن عندها يعلم أنه سيذهب بعد أيام إلى المكان ذاته لاقتفاء عبقهما. تمنى لو أن الأمر تأجّل ساعات فقط، لتتذوق هناء الحلويات التي أحضرها لها، ولو أن القدر أمهله ساعات قليلة فقط كي يهدي أم هاني الكثير من الفرح المؤجّل! ينتابه السخط على القدر الذي أرسل الموت دون سؤاله مختطفاً أعز ناسه. وساخراً من إصراره على الإقامة في دمشق لا حمص ليجنب أسرته ويلات الحرب الشنيعة هناك، فلحق بهم الموت وأدركهم، كل تلك الحماية كانت بلا جدوى. الآن أدرك أن الموت أناني مغرور، إنّه يعرف عناوين منازلنا كلنا جيداً، لكنّه يتربص وينتظر، وحين يختطف، يفعل ذلك ويدير ظهره هازئاً بما يعتمل في دواخلنا، دون أن يترك لنا العناوين الجديدة لأحبائنا، ودون أن يدلنا أين يقع الغياب الذي يذهب إليه بهم.

كان ينصحه البعض أن يتزوج أنثى لا يعشقها كي يتجنب الشقاء! **كيف سيشرح ذلك لهم وأن العشق شيء والأسرة شيء آخر؟! الأسرة والعشرة والهموم والسعادة والنهار والشتاء والصيف والدمعة والبسمة والخيبات والنجاحات والصحة والمرض، وتعاقب الأيام والشهور والتجارب والسنوات، كيف سيشرح ذلك للناس؟** وكيف سيفهم الموت وحرّاس الموت وخاطفي الأرواح أية كارثة تحلّ بالإنسان حين يفقد؟! أخذ يردد مع نفسه لمحمود درويش: "يا موت! وحدك المنفيّ، يا مسكين! لا امرأة تضمك بين نهديها، ولم تلد ولداً يجيئك ضارعاً أبتي: أحبّك. وحدك المنفيّ يا ملك."

الحياة، الأسرة، البيت، الزوج، الولد، ثم خسارة كل ذلك، كان هذا أصعب وأقسى من أن يجد له تفسيراً، أو يشرح فقده ومعنى اختفائه، فجأة يتحول كل شيء إلى لا شيء، فجأة تمدّ يديك للعدم!

t.me/yasmeenbook

كان الأمر صعب التفسير حتى لنفسه، هو الذي ظنّ طوال السنين التي مضت أنّ الأسرة لا تعنيه كثيراً وأنها ليست أكثر من كيان ضروري لظهوره الاجتماعي بين الناس، يكتشف اليوم أنه كان على خطأ وأن كياناً روحياً فقده ويفتقده. أبو هاني اليوم يرى الأسرة مفهوماً عصيّاً على الشرح، الأمر ليس حبّاً، ليس عشقاً، ليس جسداً وليس جنساً، ليس الأمر مجرد إنجاب أولاد، ليس أشخاصاً يسكنون البيت ذاته فحسب. الأسرة كلّ ذلك معاً، هي باختصار: الحياة.

صور وصور تتلاحق في رأسه، الذكرى تزاحم ذكرى أخرى، ويسمع صوت زوجته تستغيث محترقةً، وتمد يديها عساها تلتقط نفحةً من حياة، أبو هاني يقف متسمراً عاجزاً إلا عن النظر في يديها اللتين أمسكتا بيديه على الدرب معاً، كم تمنى أن يقبّلهما عند الختام الغادر الذي حرمه حقّه حتى في طقوس الوداع.

يداها اللتان استقرتا مرارا على جبينه ذات تعب، ونامتا مراراً على صدره هنيهات حبّ، اللتان حملتا ثمرة حبهما، وصنعتا ليس فقط قهوة الصباح، وحساء المساء، ومعجنات العيد والحلوى، بل صنعته وصنعتها وعجنتهما معاً في كينونة كان يعشقها في سكون وسكينة إليها تسكن روحه. ها هو يقف عاجزاً عن أن يمنح صاحبة هاتين اليدين يوماً إضافياً فقط بل ساعة واحدة أو لحظة فقط يضمها فقط إلى صدره يودّعها كما تستحق. ها هي يداها يصيبهما الارتخاء وقد فقدت كريات الدم فيهما القدرة على حمل أوكسجين متناقص أصلاً وسط الحريق، خارت قوى أم هاني، فسقطت مغشيةً تنظر حولها علّها ترى هناء المسكينة التي امتلأت رئتاها اليافعتان بغاز الكربون، لم ترها لكن بابا يراها تبتسم له وهي تفارق الوجود راحلةً إلى العدم.

t.me/yasmeenbook

التهمت الصور وجدانه حاملة مطرقةً تدق شريانه الصدغي ليجتاحه جنون غاضب .رفع صوت الراديو آملاً أن تتمكن الأغاني والموسيقا من إسكات صوت رأسه وقلبه. وفتح النوافذ كلّها علّ الريح تشتت أفكاره وتباعد بين آلامه، فعبثاً فعل. ويزيد الطين بلةً عندما يقرر مهندس الصوت في الراديو، في تآمر منه مع القدر القاسي أن يختار أغنية لفيروز تمزق كيان أبي هاني

"وينون؟ وين اصواتن وين وجوهن وينون؟"

طاش الدم في رأس أبي هاني وتسارع نبضه .

وتتابع فيروز:

وينون؟ صار في وادي بيني وبينون وينون؟

ركبوا عربيات الوقت وهربوا للنسيان،

أخدولي المفاتيح، تركوا صوت الريح

راحوا وماتركوا عنوان"

أخفض أبو هاني صوت الراديو ثم رفعه مرة أخرى، ثم مدّ يده ليوقف الصوت تماماً، داست قدمه بقوة على البنزين فازدادت سرعته وأخذ يضحك ضحكاً هستيريا، وسرعان ما انقلب ضحكه فجأة إلى صراخ كالطفل. النار التي أشعل بها السيجارة المرتجفة بين شفتيه حرقت إصبعه ولم ينتبه أصلاً . لحظة صمت بعدها فتح الراديو مرة أخرى وأخذ ينتحب مع فيروز: "تركوا صوت الريح! وراحوا ماتركوا عنوان". انتزع سيجارته من فمه ورمى بها من النافذة ثم ضرب على المقوَد بقبضة ملؤها السخط. ومتى كان الراحلوان يتركون عناوين لهم؟! كان يعلم أن الراحلين لا يتركون العناوين، ويضنّون بموعد، فنرحل إليهم دون وجهة إلا هم، إلى الماضي، إلى القادم، إلى

t.me/yasmeenbook

السماء، إلى الجحيم، إلى الغد، وعبثا نجدهم وقد بقيت أجسادنا بلا روح وحيدين إلا من الحسرات. وخيط من رباط مقدس يشدنا إليهم لا محالة، إلى مالانهاية .

يا للذكرى كم هي فعلٌ قاسٍ. كان يقرأ أدونيس وتستوقفه دوماً عبارة: "الذكرى نار ولو كانت سلاماً" الآن يختبر بكل دقة تلك المقولة، إنّه يعيش هذي النار الحارقة. "راحوا وما تركوا عنوان" والعنوان الوحيد المتبقي له الآن هو رائحة قماش كان يوماً لصيقاً بأجساد أحباء رحلوا بلا وداع. إنه يريد بصيصاً من لقاء بعد أن أعماه الفقد، يريد أي شيء، آخر شيءٍ يحمل رائحة بيته الذي لم تبقِ منه نار الصواريخ الحاقدة ولم تذرْ. كان على يقين أن رمادهما سوف يتناثر في الهواء ليتنشّقَه كل صباح، وأنّ روحهما ستبقى هائمةً فوق غيمةٍ تعلو شرفته لتبسم له كل يوم. شعر بانكسار في روحه وكأنّه كوخٌ هزيل في يومٍ عاصف.

فجأة داس على المكابح وقد اتجه بسيارته إلى يمين الطريق، أوقفها. وأسند رأسه إلى المقوَد، وردته رسالة على جوّاله من رقم مجهول: "مبروك مقتلهما، المرة القادمة ستكون من نصيبك!".

t.me/yasmeenbook

يولد الناس، ثم يؤذي بعضهم بعضاً، ثم يموتون...

مارك توين

t.me/yasmeenbook

أم هشام

حمص، خريف 2017

كانت سلاف تصغي باهتمام بالغ إلى ما تقوله أم هشام التي كانت في لحظة تجلٍ وكأنها لا تشعر بما حولها. لم تكن أم هشام بالنسبة لسلاف معلمة خياطة وتطريز، كانت مدرسةً متكاملةً، وكانت فيها سلاف التلميذة النجيبة التي تعلمت الكثير. عُرِفَ عن أم هشام عباراتها المقتضبة التي تحمل الكثير من المعاني، لكنها اليوم تتحدث بغزارة. "عدتُ يا سلاف وليتني لم أعدْ" حاولت سلاف أن تستشف ما الذي جعل أم هشام تتحدث بتلك الطريقة يومها، ما الذي أيقظ كل ذلك الألم من داخلها؟! هل كان مرضها الذي سبَّب لها بعض الكآبة مؤخرا؟! أم أنه انتقال سلاف إلى مشغلها الجديد والوحدة التي أحست بها امرأة في العقد السادس من العمر؟ أم أن السبب هو الزبونة وابنتها اللتان وصلتا للتو؟!

"تفضلي يا ست الحسن والجمال لتأخذ لك سلاف مقاساتك" قالت الأم لابنتها.

" ما اسمك حبيبتي" سألتها أم هشام.

"ليندا" أجابت بخجل.

كانت ليندا في السابعة عشرة تقريبا من العمر، قصيرة القامة، ضئيلة الحجم، سمراء، شعرها مجعد قصير ولها عينان جاحظتان وشفاه رقيقة يعلوها أنف بارز العظام، لم يهبها القدر حصةً من جمال

t.me/yasmeenbook

والـدتها ذات القامـة الطويلـة والبشـرة السـمراء الملسـاء والعينـان الواسعتان والشعر الأسود اللامع الأملس.

"إذن فلننادِها ليندا! لماذا إذن نطلق الأسماء على أولادنـا وبناتنـا، إن كنا سوف نختار لهم ألقابا حسب مزاجنا، لا أحب الألقاب، تعالي يـا ليندا أنـا سـآخذ مقاسـاتك!" قالـت أم هشـام وقـد بـان عليهـا الامتعاض، فصمتت الأم وابتسمت البنت ابتسامة رضا سعيدة بانتقـاد أم هشام للقب يشير إلى عكس دلالته.

نظرت سلاف إلى وجه أم هشـام المسـتاءة، وبينمـا تعطيهـا المتـر أحسّت بيديها المرتجفتين، تناولـت أم هشـام المتـر بعصـبية وراحـت تلفّه على خصر ليندا النحيل جداً ثم علـى وركهـا الـذي لا يزيـد عـن خصرها كثيراً، أردافها ضامرة وكذلك صدرها. كانـت تبـدو كالصـبي في جسمها، وليست لديها الثقة لتتكلم أو تجيب عن أي سؤال يتوجـه إليها فتراها تنظر إلى والدتها لتجيبَ عنها. ارتسمت على وجـه سـلاف نظرة استفهام ربما سيفسرها حديث أم هشام بعد مغادرة الأم وابنتها.

كانت أم هشام تقضي في مشغل سلاف وقتا أطول بكثير من الوقت الذي تقضيه في مشغلها، واستطاعت سلاف أن تتفهم تماماً مـا الـذي يجتاح امرأة مثلها في هذه المرحلة من العمر. الروماتيزم الذي أصـابها مـؤخرا أعاقهـا عـن العمـل لسـاعات طويلـة اعتادتهـا حـتى الأمـس القريب، وهذا سبّب تراجعا ملحوظـا في عـدد الزبونـات الـلاتي كـنّ يترددن على مشغلها لثقتهن المطلقة بنتيجة عملها التي برهن عليها كل ما فصلَّته بإبداع وجمال وإتقان لنساء المدينة. أولاء النسـاء انـتقلن إلى مشغل سلاف.

"الزبون يريد مصلحته أولا، وبأقصر زمن ثانيا" تلك كانـت عبـارة أم هشام الشهيرة التي ترددهـا لـتحمس المتـدربات عنـدها. أم هشـام

t.me/yasmeenbook

تدرك أن الحياة التي باتت خلفها اليوم هي أمام امرأة أخرى عنيدة في تعلمها وإبداعها، تفوّقت، ليس فقط على نفسها، بل وعلى أم هشام كذلك خاصة في بعض الجوانب الاجتماعية. وهذا ما كان يسبب لها صراعاً عنيفاً لا تدري كيف ستجد له حلاً! ربما من السهل جداً أن يزاحمك عدوّك فأنت تملك وسائل محاربته، أما أن يكون من ينافسك هو أحبّ الناس إلى قلبك، فهنا تكمن المشكلة. إنّها تعلم أن سلاف واحدة من بين كثيرات جئن بنيّة تعلم الخياطة، وأنها واحدة من بين قليلات جداً لم يتوقفن عند الخياطة بل تعدت ذلك إلى التصميم أيضا، وأنها لم تكن ممن أصابهن التكاسل فتراجعن وتخاذلن، والأهم من ذلك كلّه أنها الوحيدة التي لم تعلّمها أم هشام فقط، بل تعلمت منها الكثير. ولعل أهم الأشياء التي تعلمتها من سلاف: حب الحياة.

ظننتك لن تأتي اليوم فما من متدربة إلا واتصلت واعتذرت" قالت أم هشام صبيحة يوم شتوي كان الصقيع الذي يغطي الطرقات فيه لا يشبه نار الليلة التي سبقته والتي شهدت تراشقاً متبادلاً بالنار بين الجيش وجماعات إرهابية مسلحة.

"والله يا معلمتي إن كنت سأنتظر الدفء والسلام والهدوء فلن أتعلم شيئاً في هذي البلاد"، ردت سلاف وهي ترتب طاولة الخياطة بنشاطٍ لافت لتنتقل يداها إلى الراديو إلى أن استقرت على محطة تبث أغنية جميلة لأسمهان: ايمتى هتعرف ايمتى إني بحبك انتا..

"الله الله الله، هاهو الدفء وهاهو الربيع والسلام" قالت سلاف بكل حيوية مبتسمةً لأم هشام التي بدا يومها على وجهها التعب، لكن حيوية سلاف تسللت إلى روحها، فابتسمت، وكأنّ الفرح شعاعٌ من نورٍ ينعكس على نفسه. الفرح معدٍ.

تعلمت أم هشام من سلاف الابتسامة التي تصمد أمام المِحن، والسلام الداخلي الذي يصمد أمام الحرب، كانت أم هشام تعلم أنها أمام امرأة صانعة، خالقة، حتى في أحلك الأيام كانت تحيك سعادتها في الوقت الذي تحيك فيه الأثواب، وتزرع خيط أمل كلما أدخلت خيطاً في سمّ إبرة. كانت تتعلم التصميم على النجاة مع تصميم الأزياء، وتتمرن على الصبر في الوقت الذي تتمرن فيه على الخياطة، مع كل ثوب تنجزه وتسعِد به امرأة أخرى، كان منسوب الرضا لديها يرتفع، مصرّة على الخلق المستمر.

"اسمي الذي تشوّه بلا ذنب لي، سأخلق منه اسماً يصبح حديث الجميع" قالتها سلاف مرة أمام أم هشام حين أخبرتها سماح، وبكل بساطتها وسذاجتها، أن نساء الحي يسمونها "ابنة المخطوفة"!.

ندم سماح يومها واعتذارها لم يغير من الأمر شيئاً، حتى أن سلاف لم تكترث له ولم تنتبه، فليس هذا ما يقلب المعادلات بالنسبة لسلاف لذلك ردّت على سماح يومها: "السيف أصدق أنباءً من الكتب يا سماح! وسيفي هو عملي. إنّه أصدق من الأقوال الجوفاء، والعبرة بالنتائج"

كانت سلاف تعلم تماماً أنّ المرء حين ينجح، سيعترف به الجميع ويلهثون وراء أخباره ومرافقته وإرضائه، وهذا ما كانت تسعى إليه سلاف التي لا تساوم على أهدافها، وفي جدول عملها لا وجود لاحتمال الفشل، إنه بالنسبة لها غير وارد أبداً.

بينما تدوّن أم هشام قياسات ليندا، الزبونة الجديدة، لاحظت أن سلاف انسحبت إلى المطبخ ربما كي تعد القهوة كما اعتادت أن تفعل لأم هشام وزبوناتها القديمات. انتبهت أم هشام فجأة أنها في مشغل سلاف وأنها انتزعت المتر من يدها لتأخذ مقاسات الزبونة، وأن

t.me/yasmeenbook

سلاف لم تتفوه بكلمة، بل تصرفت وكأنها لم تزل الفتاة الصغيرة المتدربة عندها قبل أكثر من خمس سنوات، أصابتها لحظات عصبية من الصراع، تمالكت نفسها ريثما تنهي الحديث مع الزبونة الأم واتفقت معها على موعد للبروفة الأولى.

غادرت الأم وابنتها وجلست أم هشام على الأريكة والصراع بداخلها يشتد. كيف يمكن لها أن تحسمه؟! إن سلاف هي أكثر امرأة يمكن أن تكون عدواً لدوداً لأم هشام لأنها المنافسة الصبية الفتية التي ينتظرها الغد، وهي في الوقت ذاته الأحبّ إلى قلبها والأقرب إلى وجدانها. إنها تشبهها إلى حد كبير وهل يسعى الشبيه لإلغاء الشبيه؟ هل يحلّه ويصرعه؟. لم تكن أم هشام غافلةً عن حقيقةٍ بيّنة، وهي أن سلاف تأخذ مكانها، ترفع سلاف عباءة معلمتها عن أكتافها وترتديها ببساطة مبتسمة لها، إنها تسحب البساط من تحت قدميها وعلى رؤوس الأشهاد. والمشكلة أن هذا كلّه يتم برضا وتسليم أم هشام فهي التي دربتها وعلمتها، كان الأمر أسهل لو أنها تدربت في مكان آخر، على يد خياطة أخرى، كان أفضل لو أنها لم تعرفها أصلا! لكن كيف يمكن لك أن تعاقب "لصاً" أتى إلى بيتك، بوجودك في وضح النهار فاستقبلته وأحسنت ضيافته وقلت أمام الجميع أنه صديقك الدمث الجيّد، فانجذبوا له وأحبّوه وانصرفوا عنك لمحادثته ومجالسته؟! إنه لم يسئ لك، ولم يؤذِك، فكيف ستعاقبه وما هي تهمته؟ وما هي حجتك في مهاجمته؟ وكيف تسميه لصّا أصلاً؟!

الأدهى أن سلاف كانت صبورة جداً وبالها (أطول من نهر النيل) على حد تعبير أم هشام، لكان الأمر أسهل لو كانت فظة غليظة اللسان، فالهدوء يكون أحياناً أكثر استفزازاً من الغضب والصراخ. كانت قمة في الاحترام مع أم هشام ولا تناديها إلا "معلمتي" . وأم هشام لاحظت أن سلاف مؤخراً، تمرّ على العديد من التصرفات

t.me/yasmeenbook

والكلام دون تعليق أو عتاب، وتبتسم حتى لو كان الكلام على حسابها.

"معلمتي! لدي خبر جميل! زبونة من دمشق أتت خصيصاً لأخيط لها فستاناً لحفل خطوبتها وتريدني أن أصممه لها وقالت أنها مستعدة لأي مبلغ أطلبه" قالتها مرة سلاف بغبطة النجاح الذي لطالما سعت إليه.

"إياك أن تعتقدي أنك كبرتِ على معلمتك حتى لو كانت نساء سوريا كلها تأتي إليك لتخيطي لها!" قالت أم هشام مرةً على هيئة مزاح، فيه الكثير جداً من الجد، فكان زلة لسان أخرجت اللاشعور الدفين لأم هشام. يومها استاءت سلاف وعلى الرغم من دماثتها ولباقتها المعهودتين إلا أن الاستياء حلّ فوراً محلّ السعادة التي كانت تتحدث بها عن زبونة دمشق قبل لحظات: "طبعا يا معلمتي العين لا تعلو على الحاجب، ومشغلي هو مشغلك يا ست الكل!".

لم يكن الصراع الذي تخوضه سلاف من جهتها أسهل، فهي تعاني في كل مرة تأتي إليها زبونة قديمة ممن كانت أم هشام تخيط لهنّ، لم تكن قادرة على التصرف بحرية، نجاحها الذي يتزايد يوماً بعد يوم تزامن مع تراجع نجاح معلمتها يوماً بعد يوم.

دخلت سلاف ممسكة بصينية فيها فناجين القهوة "أين ليندا ووالدتها؟! هل انصرفتا بهذه السرعة؟!".

ردت أم هشام بامتعاض: "أحسن! فلتغادر هذه النماذج الحياة كلّها، لا المشغل فحسب" ثم أضافت: "ألم تسمعي كيف نادت ابنتها بلقب سخيف؟! ست الحسن! وهي تقصد العكس".

تابعت أم هشام فلم تشأ سلاف مقاطعتها كانت تبدو متوترة فتركتها تبوح علّها ترتاح. وضعت سلاف الصينية على الطاولة، وأنصتت لأم

t.me/yasmeenbook

هشام التي بدأ الكلام يتدفق منها وكأنها كانت تتوق إلى اللحظة التي ستفجّر فيها كل ما يؤلمها، كأنّ جرحاً قديما احتقن على تقيّحات مؤلمة وآن أوان فتحه وتعقيمه.

كان ذلك في الثمانينات تحديداً عام 1982، حينها لم تكن أم هشام قد أصبحت أم هشام بعد، وإنما كانت، زينة، طفلة في الرابعة عشرة من عمرها، نشأت في أسرة تتكون من أبيها وهي فقط، بعد أن توفيت والدتها أثناء ولادتها إثر نزفٍ شديد لم يفلح يومها الأطباء في إنقاذ حياتها، لم يكن لها من أمها إلا الصور، وكأنّ الحياة لم تشأ أن تورثها حتى شيئاً من جمالها، تربت على يد أبيها المحزون الذي كان لها وجهه بكل تفاصيله، كثيراً ما حدّقت في صور أمها وتساءلت: لماذا اختار الله أن يخطف روحها ويترك زينة وحيدة؟ رغم القواسم المشتركة التي تراها أم هشام بينها وبين سلاف إلا أن هناك فروقا هامة، كان أولها جمال سلاف والذي لم يكن لأم هشام أي منه، والفارق الأكبر والأهم أن أم هشام لم تكن ابنة المخطوفة، وإنما كانت هي المخطوفة نفسها.

لم تكن حينها تفهم ما الذي يحدث حولها، تسمع كغيرها من رفاق المدرسة، أن خلافاً ما وصل حد الاقتتال بين الاخوان المسلمين وقوى توصف أنها علمانيّة، ولم تكن تعرف أصلاً لماذا يسمون تلك الجماعة بالإخوان المسلمين ولا تعلم ما الذي تعنيه كلمة علمانية تلك. مدينة حماه، مسقط رأسها ستتحول فيما بعد إلى محرقة روحها. ذات صباح شتوي خرجت لتحضر الخبز بدلا من أبيها المتعب من عمل ليلة أمس، كانت الساعة لم تبلغ السادسة بعد، الشوارع هادئة جداً ونسائم الصبح باردة، قبل جلب الخبز أرادت أن تتمشى قليلاً ولا سيّما أنّ البيوت أصبحت أشبه بالسجون بسبب الاضطرابات ومخاوف الأهل على أولادهم، هدوء ساعات الصباح

t.me/yasmeenbook

الأولى سمح لها بسماع صوت النواعير المحبب لأهل مدينة حماه وزوارها. حدثها جدها مرةً عن السر الغريب في صوت النواعير، فالسعيد يشعر أنها تغني له سعادته، والحزين يشعر أنها تنتحب، المريض يرى في صوتها أنيناً ينطق بحاله، مع أن النعير والعنين هو ذاته إلا أنّه كان قادراً على التحوّل ليعبّر عن المشاعر الإنسانية كافة، فتراه يحاكي ما يجتاحهم وهنا يكمن اللغز. كانت زينة تقطن مع أبيها بالقرب من السرايا وسط المدينة وكانت الناعورة الأقرب إليهم هي ناعورة الجسرية[1]، والتي تعد أشهر نواعير حماه الواقعة على وادي العاصي. غيّرت طريقها واتجهت نحو الناعورة، لم تخشَ أن يوبخها أبوها إن تأخّرت قليلا، فالوقت مازال مبكراً، وكانت تعتقد أن نهر العاصي سيشفع لها ليسامحها أبوها، هكذا كان الأطفال يعتقدون أو ربما يخترعون مثل هذه الأفكار ليسامحهم أهلهم. مشتْ ومشتْ حتى وصلت الجسر، وقفت وأخذت شهيقاً عميقاً كسجين يتنشق الحرية، "ااه ما أجمل ما أرى!" كانت المدينة تبدو كصبيّة جميلة نهضت من نوم عميق بكامل بهائها وجمالها، فسرّحت شعرها وتعطرت، كذلك كانت الأشجار مشذبة وجميلة نضرة، وكالعطر كان نسيم الشجر، أما الشوارع المعبدة الخالية صباحاً من السيارات، فكانت تبدو كما رأتها زينة من فوق الجسر، كالسواقي والجداول حيث بدت لامعة تحت نور الشمس البكر بعد الليلة الماطرة التي غسلتها كما غسلت الأشجار فازدادت خضرةً يانعةً. تأملت في الأفق المنير وامتداد الأخضر يعلوه أزرق السماء المحتضنة للشمس التي ولدت للتو. كان صباحاً شتوياً

---

(1)وتعد ناعورة الجسرية من أشهر نواعير حماه وتسمى اليزبكية وتسقي البساتين الواقعة شرقها. وكانت أهميتها تنبع من كونها على مقربة من جسر السرايا وسط المدينة. لهذا سميت بالجسرية.

t.me/yasmeenbook

حسب التقويم لكنه ربيعيٌّ بلونه ورائحته، مشت حتى أصبحت أقرب إلى الناعورة الجسرية، أغمضت عينيها لتنصت إلى صوتها محاولةً البحث عن حلّ للغز الذي حدثها عنه جدها، بالوقت نفسه كانت تفكر بالمشي أكثر حتى تزور باقي النواعير لكنّها عدلت عن نيّتها أولاً لأنها لم تشأ أن تتأخر أكثر فتقلق أباها، ثم أنها أرادت أن يرافقها صديقها المقرب في المدرسة في المرة القادمة.

وبينما تنصت للنواعير مغمضةً عينيها، شعرت بقلق لم تعرف له سبباً ففتحت عينيها ليفاجئها شبّان ثلاثة هيئتهم مريبة جداً، وكأنهم ينتظرونها، بعد ضربة انهال بها أحدهم على رأسها لا تتذكر زينة أي شيء. حين أفاقت، تمنّت لو أنها صمّاء، أو لو أن هؤلاء الأنذال أغلقوا أذنيها كما عصبوا عينيها، كي لا تسمع ما تفوّهوا به من أقدح الشتائم، وددْتُ لو جدعوا أنفها كي لا تشم روائح أجسادهم القريبة الكريهة، "رغم أنّي لم أرَ المكان لكني أدركت كم هو بشع وقذر وحقير ومعتم، كأصحابه الذين لم يوفروا فرصة لانتهاك ما بين أيديهم، كل ثانية كان يزداد فيها قرفي واشمئزازي وخوفي وذعري ويشتد قلقي على أبي بقدر ما تقدّم ضعفي وخارت قواي، تناقص أملي في النجاة بقدر ما فقدت القدرة على الرجاء وبقدر ما تناقصت مقاومة جسدي، لم أفهم ما الذي حصل، حين كان جسد أحدهم يخنق جسدي مسبباً لي ألماً فوق تصوّري واحتمالي، اختنق صوتي من صراخي غير المجدي حتى تجرحت حنجرتي وغاب صوتي اختفى تماماً وظل أسابيع حتى عاد إلى سابق عهده".

كانت سلاف متسمّرة في مكانها يعصف بها ألم شديد لما تسمع، لم تتفوه بكلمة وكأنها مشلولة الحركة وفي رأسها صورتان غير قابلتين للانفصام: صورة زينة الشابة، التي لم تتفتح عيناها جيداً على الحياة بعد، مخطوفة في حماه، وصورة أمها السيدة القديرة مخطوفة في عدرا.

t.me/yasmeenbook

تابعت أم هشام: "أعادوني بعد جريمتهم إلى المكان حيث اختطفوني، لم أفهم كيف تم اختطافي في الصباح وكيف لم يلحظ ذلك أحد؟ كيف جرّوني إلى ذاك الوكر الحقير دون أن يراهم أحد، تبيّن فيما بعد أن الخاطفين لم تكن لهم أية صلة بالصراع الدائر حينها بين علمانيين وإخوان مسلمين، لكنهم استغلوا فرصة لارتكاب كل الفواحش وهذا ما يحدث في الحروب والصراعات عادة، عدت إلى المنزل بعد أن خسرت الكثير وأصبحت بعد هذه الحادثة مختلفة تماماً عما كنت قبلها، عدت يا سلاف وليتني لم أعد" قالت بحرقة.

"اسمك زينة؟! يااال لك من زينة هههه من أطلق عليك هذا الاسم وأنت بهذا القبح كلّه؟!" "هذا ما كانت تقوله المدرّسات دوماً عندما يتعرفون على أسماء الطلاب في اليوم الأول لدرجة أنني كنت أقوله بصوت خافت يضطرني لإعادته مرتين أو أكثر، وشيئاً فشيئاً صرت أكره اسمي، وأكره أبي الذي لم يكتفِ بأن اختار لي اسماً كان محط سخرية الجميع وسبباً في ألمي، بل أورثني أيضا ملامحه القاسية وأنفه المفلطح، وبشرته الداكنة وشعره المجعّد وعينيه الضيقتين." كانت سلاف تتابع منصتة بألم ولم تقاطع أم هشام المسترسلة في حديث الماضي المؤلم:

"في البداية ابتعدتْ عني البنات في المدرسة وكأنني مرضٌ سارٍ أو فيروس، أنت تعلمين ثرثرة النساء في الجلسات النسائية وأحاديثهم التي لا تراعي وجود الفتيات الصغيرات بالسن. وكنت أكيدة أن أمهاتهن حذرنهن من التعامل معي. سواء بالكلام أو اللعب أو الدراسة. كنّ يتحججن أن لا وقت لديهن حيث كنا في الصف الثالث الاعدادي وعلينا أن ندرس جيداً. صدقتهن، يا لسذاجتي ! ثم فهمت أنني أنا المنبوذة بشخصي. ذلك كان بعد انتهاء الامتحانات. لذلك

t.me/yasmeenbook

كنت أجد الفتيان خير مخرج للعب والدراسة حتى اكتسبت شخصية ذكورية بعض الشيء ورحت أقص شعري قصيراً وأرتدي وأتكلم وأتصرّف كالصبية، ربما كان احتجاجاً مني على أنوثتي التي كانت سبباً في تلويث سمعتي. لقد اختطف العديد من الرجال والشباب في حماه، وحين حُرروا جرى استقبالهم بالتهليل والاحتفالات والتقدير وكأنهم أبطالٌ فاتحون عادوا من تحرير الأراضي المحتلة!! أما أنا وغيري من بنات ونساء اختطفن، فكنّا وكأننا انتهينا من تدنيس أرض المقدس للتو!!، في حي مجاور لحيّنا قتل الزوج زوجته المحررة من الخطف، أم تيسير المرأة الفاضلة الشريفة التي أحبّها الجميع لكرمها وطيب روحها، قتلها ذبحاً بسكين المطبخ، هل تخيلتِ ذلك يا سلاف؟! السكين ذاتها التي كانت تقطع بها الخضار والفواكه وتطهو له ولأولادها الأربعة لمدة تزيد عن ثلاثين سنة لم تشفع لها السكين يا سلاف، لم يشفع لها تفانيها، لم تشفع لها سمعتها الطيبة، ونحن لم نجرؤ حتى على الحزن عليها، أما زوجها البطل المقداد الصنديد فقد غسل عاره، فاحتفلت المدينة بنصره المظفّر يا سلاف! وتزوج بعد أشهر قليلة من شيطان بهيئة امرأة أذاقت أطفاله المر، وتسببت في بتر أصابع ابنه الأصغر لشدة ضربها له ووسمه بابن العاهرة!".

"لا عاهرة سواها طبعاً، أكاد أختنق" قالت سلاف بحرقة والدموع تنهمر على خديها.

"ذاك هو الشرق، تلك مجتمعاتنا يا سلاف، مجتمعات الفضيحة والعار والإشهار والتشهير والرياء، أما أنا، فالبعض قال: لا يوجد شاب يقبل بالارتباط بمن كانت مخطوفة! وصلت الصفاقة بالبعض أن اتهمني أنني سحاقية وأن هذا هو سبب ابتعاد البنات عني ونفورهن مني، آخرون كانوا أكثر رحمة ههههه فقالوا أن قبح وجهي لن يجذب

t.me/yasmeenbook

أي رجل ليحبني أو يتزوج بي. غيرهم كالوا تهما قذرة بأنني غير قادرة على مواجهة زوج ليلة الدخلة ببكارتي المفضوضة سلفا. !!!"

"منافقون، وجلّادون " علقت سلاف بغضب وقد رمت الكأس بقوة على الأرض فانكسر وتناثرت أجزاؤه في أرجاء الغرفة ولم تبالِ.

الآن بدأت تدرك سر تعاطف معلمتها مع حادثة اختطاف والدتها ولقبها الكريه، فهمت سبب استياءها اليوم من والدة ليندا وتأثرها الشديد بالبنت التي تبدو كالصبي والتي نادتها أمها باللقب الذي وصفته أم هشام بالكريه.

بالنسبة لزينة، بات الزواج والأمومة حلمين بعيدين، لكنها أرادت أن تحيا الأمومة ولو عنواناً، وبهذا أصابت سرب عصافير بحجر واحد . فغيرت اسمها الذي جرّ عليها الكثير من الألم، وأسقطت لقب المخطوفة، وعاشت الأمومة في اسم أحبته ومازالت: (أم هشام). عصفور آخر أيضا أصابته بالحجر ذاته هو رد الجميل لهشام. هشام رفيق الدراسة ورفيق الألم والحزن والذعر والنبذ، كان الصديق الصدوق الوحيد الذي بقي بجانبها حين تخلى عنها الجميع بعد أن بذلوا الجهد الجهيد لأذيتها. وجوده بقربها أخبرها أن الحياة عبور وأن هناك العديد من الجسور التي نعبرها وحيدين، لكن الحياة ورغم قسوتها تهبنا يداً وبصيصاً، كان هشام، هو تلك اليد، وهو ذاك البصيص.

"وحين تركتُ المدرسة في الصف الحادي عشر، وبدأت بالعمل، اخترت الخياطة والتفصيل، ليس فقط لأن والدي كان خيّاطاً، أو لأنني شغوفة بالتفصيل، وإنما لأنتقم لأنوثتي المهدورة عبر تصميم وتفصيل أكثر الموديلات أنوثة".

t.me/yasmeenbook

قالت أم هشام بألمٍ ساخر فكانت المرة الأولى التي ترى فيها سلاف دمعة على خد أم هشام. لم تستطعْ سلاف أن تفسّر لنفسها شعورها حين رأتْ امرأة قويّة تبكي. لقد شعرت كأن أبا الهول يبكي، وكأن تمثال رمسيس الثاني ينهار دفعة واحدة، وكأن العاصي يجف، كأن قلعة حلب تتهدم أمام عينيها، شعرت أن قاسيون في هذه اللحظة يهتز ويتزلزل، فانهمرت دمعة من عين التلميذة تحاكي دموع معلمتها، هرعت سلاف إلى معلمتها وضمتها بقوة.

"أين هشام الآن؟ أين كان طوال تلك المدة؟" سألت سلاف.

"لم أحظَ بفرصة وداعه وغادرت حماه باكيةً لا على شيء، لا على أحد إلاه، كان بإخلاصه وثقته ونقائه أهلي ووطني وأرضي وملعب طفولتي وراحة رأسي ومسرح خيالاتي، هو لا أحد غيره، سلبتني الحياة كل شيء، كل شيء، لم تترك لي إلا هذه" مدت أم هشام يدها في الهواء بقوّة وثقة وقد رفعت صوتها الذي كان يرتجف قبل قليل، وبدأت تطوي أصابعها وتفردها مراراً وعلتْ وجهها ابتسامةٌ مريرةٌ مشوبةٌ بقهرٍ دفين وقالت:

"هذه اليد هي التي جعلتني أم هشام: التي ترينها أمامك اليوم. هذه اليد التي اكتشفتُ بالمصادفة أنها تبدع الجمال وحينها قررت أن أمحو بها، بها وحدها، صفةً لصيقةً بي بلا ذنب. **أتعلمين! بعد أن صنعت نفسي من جديد وأصبحت ما أريد، لم أعد أفكر بما محوتُ بيدي وما سأمحو. أصبحتُ الآن أقوى، وبالقوّةِ وحدها ننسى الماضي مهما كان أليماً وظالماً. وسرعان ما تحوّلت هذه اليد الممحاة، إلى سكين أقطع بها ألسنة كل من يجرؤ على ذكري إلا بكامل الاحترام والاعتبار".**

t.me/yasmeenbook

"شارفتُ على الخمسين، صحيح أن جرحي يصحو أحياناً، لكن هناك فرقٌ كبيرٌ بين أن يتذكر المرء جرحه وأن يتذكر كيف شفي منه! هنا ذكرى الجرح تحضر لكن باردة خافتة، تخبو وتكاد تنطفئ، وكلّ نجاح يطفئها أكثرَ، لكنّ مشهداً كالذي رأيت اليوم لاشك سيوقظ بعض الألم." تابعت أم هشام بينما سلاف تنصت إلى كلماتها بإمعان وتركيز.

"تخيلي! إن تلك السيدة تلقب ابنتها ب: "ست الحسن" لتذكرها أنها قبيحة! أترين يا سلاف!، ربما نتحدث دائما عن عذاب الأبناء لأهلهم وعن عقوق الأولاد وقلة وفاءهم، لكننا ننسى أن الأمهات والآباء قد يجرحون أبناءهم ويؤذونهم كذلك. لا أصدق قدرة الإنسان على إيذاء روح إنسان آخر، كم نحن أشرار! تخيّلي أنها تجرح ابنتها! ابنة بطنِها التي حملتها وولدتها وربّتها، تؤذيها بلا تردّد وبلا أي إحساسٍ بالذنب! إنّها في كلّ مرة تخاطبها بهذا اللقب الكريه (ست الحسن)، إنما تذكّرها أنها ليست كذلك!".

"إنها لا تعلم أن ما من أنثى قبيحة، الأنوثة لا يمكن أن تجتمع مع القبح ،أبداً" قالت سلاف.

" صحيح يا سلاف، صحيح معك حق، لطالما قلتُ ذلك، ولطالما ظنّ آخرون أنني أبحث عن مخرجٍ لافتقاري للجمال. ليست الأنوثة ثديين بارزين وأردافاً ممتلئة وشفاهاً منتفخة أو جفوناً ناعسة، الأنوثة عالم يحتضن كل ما حوله يبتلعه ابتلاعاً، لكنّه ابتلاع الاحتواء لا الإلغاء، الأنوثة تعيد تشكيل الكون العادي ليصبح كوناً جميلاً وجذّاباً. أترين هذه الفتاة! ليندا ! ستجتهد وستعمل بكدّ لتكون أجمل، القبح ينمو في رحم الفشل والكره، أما النجاح جمال، ستكون ناجحةً ومحبوبة ومُحِبّة، سترين ذلك! أتعلمين! الجميلات

t.me/yasmeenbook

مسترخيات بشكلٍ قاتل، متكاسلات على نحوٍ مقيت، هو استرخاء المطمئن الذي يشعر أنه بأمان وأنه غير مهدّد في وجوده! الجميلات يعتقدن أنهنّ رابحات بلا جهد، فلا يجتهدن لتحصيل ما هو ملكهنّ سلفاً".

أرادت سلاف أن تعلق على الحديث لكن طرقات على باب المشغل قطعت حديثهما، نهضت سلاف واتجهت نحو الباب، فتحته وفوجئت حيث كانت تتوقع إحدى الزبونات من النساء حسب المواعيد المدوّنة، إلا أنَّ الطارق لم يكن من الزبونات، ولم يكن من النساء.

ياسمين

t.me/yasmeenbook

بكوا في البداية ثم ألفوا وتعوّدوا، الإنسان يعتاد كل شيء، يا له من حقير...

دستويفسكي

t.me/yasmeenbook

جوان

ريف دمشق، 2017

لم تكن المرة الأولى التي يتم فيها رفض إجازة أحد الضباط الشبان منذ بدء تأديتهم خدمتهم. حاول جوان، دون جدوى، أن يقنع العقيد أنه مضطرٌ للتواجد بجانب عائلة جاره وابن بلدته وصديق طفولته آكري. ولم يستطعْ أن يفهم السبب الذي دفع العقيد للرفض. حاول أن يفسّر ذلك بأن الأمر يتعلق بإنهاء التحقيقات حول ملابسات قضية الكمين وانتحار آكري. فما كان من جوان إلا أن نفّذ الأوامر مكرهاً. جلس مستاءً يتأمل أركان المكان. نظرة لا تخلو من بعض الشماتة سكنت عيني ماهر "حسناً لا بأس جوان! لن يستطيع منعك طويلاً من الذهاب إلى بلدتكَ" قال ماهر . نظر جوان إلى ماهر ثم أشاح بوجهه ثانية دون أن يعلّق، وكأنه أحسّ بما يخفيه ماهر. أخذ ينظر إلى مكان آكري الخالي ثم انتقل بصره إلى مكان أحمد أيضاً. اثنان من الرفاق رحلا إلى الأبد ببساطة لم يعد لهما وجود. سمع قهقهة الشبان بالخارج وأحاديثهما حول أنواع التبغ التي ارتفع سعرها وحول شوقهم للحياة خارجاً وشهوتهم للنساء وللأطعمة الطازجة وللحياة الطبيعية ولو بمقدار. بعضهم كان يناقش أعمال رجال الجيش وإنجازاتهم في أماكن متعددة، آخرون يفنّدون أسباب الحرب محاولين، دونما كللٍ أو ملل، تحديد الطرف المخطئ والمتسبب بإشعال الحرب. البعض تساءل عن شائعات حول تسريحٍ قريبٍ محتمل.

t.me/yasmeenbook

لاحظ جوان أن الغائبين من الرفاق، لم تكن لهم أيّة حصة من حديث الحاضرين. ما من أحد ذكر أحمد الذي استشهد قبل أقل من سنة وتناثرت أشلاؤه بفعل التفجير. لم يذكر أحد آكري المسكين الذي قضى بطريقة مؤلمة والذي تنتحب والدته حالياً ولم يتمكن جوان من مواساتها ولأسباب لا يعرفها. راح جوان يفكر في معنى وجودهم هنا ومغزى كفاحهم ونضالهم ووجد نفسه فجأة ينتقل إلى التفكير في غيابهم وفي أثر هذا الغياب الذي يبدو أنه لا يعني للموجودين الحاضرين أي شيء! فحتى هؤلاء الذين سيحضرون مجلس عزاءنا، سيتحدثون بعد دقائق من التظاهر بالحزن على فراقنا، عن مستقبل أولادهم وبستان أبي فلان وعمارة فلان وخطبة ابن فلان وسمعة فلانة. ستتباهى النساء في المجلس بعد دقائق فقط من الفاتحة بما لديهن، هكذا كانت تحكي له والدته حين عودتها من مجالس العزاء. أما الرجال فسيتداولون الأحاديث حول آخر المستجدات على الساحة السياسية ويمارسون هواياتهم في التحليل الاستراتيجي وبعد أن ينتهوا ويفرغ كلٌ ما في جعبته، يغادرون إلى ما ينتظرهم وتجرفهم الحياة وتعصف بهم أعباؤها ومسؤولياتها فلا يجدون الوقت أصلاً لتذكّر من رحل.

وفي الظلمة الموحشة يبقى الراحلون، في الحفرة الباردة الخالية إلا من جسدٍ لا حول له لا قوّة، وروح تنتظر ما يتحدث عنه البعض من وعودٍ بآمال خارقة ومفارقة، ونعيم فيما بعد البعد، أو بعذاب سعير وبئس المصير.

راح جوان يتذكر مجلس عزاء أحمد، وكيف غيّرت الحرب مفهوم الموت عند الناس. أصبح موت الكبير في السن غير محزن أبداً، والميتة العادية بمرض أو حادث سير كذلك أمراً عادياً، أصبحت الرفاهية تعني جثة كاملة تعود إلى أهل الشهيد ليدفنوها، بل إنّ البعض

t.me/yasmeenbook

أصبح يُعتبر محظوظاً إن استلم جزءاً من جثة، أو حتى أشـلاء، أو أي شيء من بقايا ابنه ليضعه تحت التراب ويغدو لـه مـزاراً. يـا لـلألم! لا ينسى جوان أم أحمد وهي تنتحب وتعاتب الله بقهر كيف يحرمها جثـة أحمد. كانت تريد فقط أن تقبّله قبل أن تودِعَه الغياب! "كنت سـأكتفي بذراع أحمد فقط، بيده أو حتى إصبعه، إصبع رجله فقط يـا الله لمـاذا فعلت هذا بي؟!" فيأتي زوجها أبو أحمد، المكروب المكابر على دمعه وألمه فيطلب إليها الاستغفار والهدوء والرضا والتسليم.

تذكر آكري الذي لم يعرف الكره طريقه إلى قلبـه، والـذي تم توريطـه فيما كان فوق طاقته، فقتله، لا ينسى جوان ذاك اليوم الـذي حمـل خـبر استشهاد كل أفراد الكمين من الجيش، لم يمهلهم الغربان كـانوا يعلمـون مسبقاً، هتافاتهم كانت تبارك انتصارهم باسـم الله، لا ينسـى كيـف تلقـوا خبر رحيل الرفاق ثم كيف اسـتلموهم جثثـاً، كـم كـان مؤلمـاً ذاك الـدّم الطافح من صور عائلاتهم التي مازالـت وسـط متعلقـاتهم. مـا زال يـذكر آكري القابع صامتاً، ما زال يذكر حديثهم وانفعال ثائر المحزون وصـوت الرصاصة وشهقة آكري بعد أن غادرهم بدقائق قليلة.

"تُنسى كأنَّكَ لم تكن
شخصاً ولا نصاً
وتُنسى"

قال آكري يومها متباهياً أنه حفظ القصيدة.

سخر جوان من هذه المفارقـة، فتلـك كانـت أول قصـيدة حفظهـا آكري لدرويش. كـان ذلـك يـوم حفـل تخـرجهم مـن كليـة الهندسـة المعمارية. أهداه جوان ديـوان شـعر محمـود درويـش. وفي أول لقـاء بعدها كان آكري قد حفظ القصيدة عن ظهـر قلـب، وراح يسـتظهرها أمام جوان بسعادةٍ كبيرة.

t.me/yasmeenbook

"لا تكمل القصيدة أرجوك!" توقف آكري حين طلب إليه جوان ذلك متفاجئاً لأن جوان من عشاق درويش.

"لا أحب هذا الحزن وأخالف درويش في هذه القصيدة بالذات. فكلامه لا ينطبق على الجميع. المبدعون وصانعو الجمال، أمثاله، لا يمكن أن ننساهم. هؤلاء يرحلون دون أن يرحلوا." قال جوان. فوافق آكري كعادته.

لكن اليوم وجد جوان شيئاً مختلفاً، فليس بالضرورة أن يكون المرء عظيماً أو شخصية مشهورة أو فنانا أو شاعراً كي يبقى حاضراً في الذاكرة، يكفي أن يكون طيّباً محِبّاً كي يبقى وإن رحل. وكان آكري طيب القلب بسيطاً. أما أحمد فكان عنواناً للتسامح والتصالح مع الذات والآخرين.

"لا تقلق جوان لن يدوم حالنا كذلك، فإما أن تنتهي الحرب ونعود إلى حياتنا الطبيعية وإما أن نموت، فهو خلاصٌ في الحالتين. ما بك! لأوّل مرة أراك بهذي الحال" استفسر ثائر باهتمام ومحبة؟.

حاول جوان أن يتهرّب من الإجابة، أراد أن يقول أنه لا يطيق البقاء، أراد أن يبوح له بهواجسه وأن العقيد يناكفه ربما لأنه كردي فقط! لكن العقيد رفض إجازات غيره حتى لمن كانوا عرباً! أراد أن يعرف من ثائر سبب رفض الإجازات وهل هذا العقيد الجديد ممن لا يمانعون في قبض أثمان الحق وأثمان الدم! لم يشأ أن يدخل في نقاشات لا طائل منها، اعتاد أن ينأى بنفسه عن كل الأحاديث التي تورطه في مشكلات هو بغنى عنها في هذه المرحلة الحرجة حيث الرفاق يرحلون ويتساقطون والأهل ينتحبون والوطن ينزف. أراد أن ينفض عنه غبار كل تلك الأفكار ويبرر قلقه وتخبط عقله بالتعب والإرهاق والحزن والسأم وانعدام الأمل وغياب أي بصيص، فالنفق أمامه كان يبدو طويلاً وعميقا، ومظلماً جداً.

t.me/yasmeenbook

كان جوان في حالة من الإرهاق الشديد والاستسلام للألم، وكانت تروقه هذه الحال، فبعد أيّام طويلة من المكابرة على الجروح والهموم والآلام، أحيانا يكون من المريح أن يستسلم الإنسان لحالة إنسانية بأن يطلق لها العنان، سواء أكانت حالة من الحياة حد القهقهة بلا حدود، أو الحزن حتى الصراخ، أو الضحك الهستيري أو الغضب المترافق مع تحطيم أطباق وكؤوس مثلا! حتى الاستسلام للكآبة والصمت يكون جيداً. إنّه دفاع ذاتي تقوم به النفس كنوع من التشافي الذاتي الذي يعقبه تعافٍ مريح، فكما يقوم الجسم بالدفاع عن نفسه عبر جهاز المناعة، تقوم النفس بآليات دفاعية عديدة ومتنوعة جداً والنفس لغز الألغاز، وسرها المكين عصيّ على العلوم كلّها. ويكمن شقاء الإنسان وعذابه في رفضه للكثير من الحقائق التي يعرفها والذي لا يمنعه علمه بها من رفضها والاحتجاج عليها، كان جوان في حالة تمرّد على الفقد والموت والنسيان رغم أنه يعلم جيداً أن الموت هو النصيب المشترك للبشر جميعاً، وأن النسيان هو فطرة الإنسان، وهو إحدى الآليات الدفاعية التكيفيّة التي تمارسها النفس لتستمر بشكل سويّ نسبياً فتحتفظ من الخبرات بالسارّة وتنحّي المؤلمة منها جانباً. حتى الإلحاح على استحضار ذكرى أليمة يكون وسيلة جيّدة ليعتاد الإنسان الألم، فيخف أثره تدريجياً حين تبهت ألوان المشهد لكثرة استحضاره. وهذا ما كان يقوم به جوان دون أن يشعر، ربما كان يستغرق في استحضار ذكرياته مع آكري ويجلد ذاته وذات الآخرين الذين نسوا آكري وغيره من الرفاق الراحلين، ورغم إدراكه حتمية الموت إلا أنّه كان رافضاً الرحيل، كارهاً الغياب.

وفي لحظات التمرّد والكآبة تكثر الأسئلة ،فتهطل كالمطر على رأس صاحبها. فراح جوان يتساءل لمَ الموت؟ لمَ النهاية؟ الجواب

t.me/yasmeenbook

بسيط: هذه هي الحياة والموت هو النهاية الأكيدة الثابتة التي لا تتغير. تساءل لماذا يؤلم الروحَ الغيابُ؟! ولماذا أسكنت الطبيعة روحاً لا متناهية في جسد الإنسان المتناهي؟! أليس هذا قراراً مسبقاً بتعذيبه وشقائه؟! أليست الروح هي سر السعي الحثيث للبقاء؟ ولأن خلود الجسد ضربٌ من المستحيل، انشغل الإنسان طيلة حياته بتخليد ذاته عبر بصمات يتركها. تذكّر جوان كلام والدته: "أتمنى ألّا أموت قبل أن أرى لك ابناً يحمل اسمك!".

أليس الأبناء شكلاً من أشكال الخلود والاستمرارية؟! أوليسَ العمل الصالح شكلاً آخرَ؟ ألا يقول المثل: كل شيء يموت إلا السمعة الطيبة؟! ألهذا يسعى الإنسان للإحسان ومساعدة الآخر كي يبقى صدى الفعل، حين يغيب صوت الوجود؟! تذكّر كلامه لآكري عن عظماء العلم والفن والأدب والشعر، هؤلاء الذين يرحلون دون أن يرحلوا، لأنهم خالدون بأعمالهم التي تشكّل امتدادا لهم لأجيال وأجيال. هذا ما يفسّر إصرار الكتّاب والأدباء على العمل الدؤوب، وإلا ما الذي يدفع بكاتبٍ إلى الجلوس وراء طاولته ساعات طويلة يحرم نفسه النوم والنزهات والتلفاز ومتعا أخرى لقاء أن يسخّر الوقت كلّه للكتابة! أليس هذا لأن النصَّ خالدٌ لا يموت، بل يحيا ويتوالد؟! حسناً إن كان هاجس الروح هو الخلود والأثر والبقاء أليس من الطبيعي إذن أن تتألم الروح حين يفاجئها نقيض ما تنشد؟! أليس متوقعاً أن نرفض الموت الذي يطلق الرصاصة الأخيرة في قلب الخلود؟! السلام ينسينا الموت في حين تأتي الحروب لتذكّرنا به وتكرّسه فتجعله عادياً. وهكذا يعتاد الناس الموت وينسون الراحلين في غضون أيام ربما!.

"لا عليك يا ثائر! أنا فقط أتساءل أين يقع هذا الغياب اللعين؟! أشتاق للرفاق الذين رحلوا، أترى كيف خطفنا منهم النسيان؟، كيف ننساهم يا رفيقي؟ كيف؟! أشتاق رفيق طفولتي آكري اشتقت حتى لحماقاته يا ثائر".

"أفهمك ياجوان، ما تقوله عن الرحيل مؤلم بلا شك، فمن الصعب أن نُنسى بعد موتنا بأيام أو شهور.. لكن هناك ما هو أصعب صدقني. ما قولك في أن تُنسى وأنت على قيد الحياة؟! هل تعلم أي ألم يسببه لك أحدهم حين يودِعُكَ للنسيان قسراً؟! أتعلم أية خناجر تغرز في جسدك حين ترى هؤلاء، الذين نسوا وجودك، يمارسون حياتهم بتفاصيلها الصغيرة والكبيرة غير مبالين بوجودكَ وألمكَ والذكريات التي تغتالكَ وبرودٍ منهم يحرقكَ؟! صدقني إنك تشعر أنهم لم يكتفوا بقتلك حين نسوك، بل أخذوا ينكّلون ويمثلون بجثتك أيضاً، إن كان الموت ألماً واحداً يا صديقي، فالنسيان قتلٌ متكرر، وإن كان القدر خاطفاً للأرواح، فمن ينسانا ونحن أحياءٌ هو قاتلٌ متسلسل. واللامبالاة انتهاك للإنسانية، خسارة النسيان أقسى وأشد إيلاماً من الموت! اسأل مجرّب يا جوان!" دقّ ثائر على صدره بألمٍ ساخر وقد استقرت سيجارته بين شفتيه وقد همّ بإشعالها.

نظر جوان في عيني ثائر وقبل أن يقولَ شيئاً، جاء صوت ماهر:

"هذا ما تفعله النساء عادةً، يقتلن بقلب بارد، ثم ينكلنَ بجثث الرجال بعد قتلهم! يا للنساء!" كان يتابع حديثهما دون أن ينتبها إلى ذلك، ظنّ ماهر أنّه يواسي ثائر بما قال.

"وأعرف بعض الرجال الذين فعلوا ذلك أيضا، قتلوا قلبا حارّاً، بقلب بارد، بذريعة إحياءِ قلبٍ آخر، ما قولك بذلك؟!" أجاب جوان دون أن ينظر إلى ماهر!.

t.me/yasmeenbook

لا تطرق الباب كلّ هذا الطرق فإنّني لم أعدْ أسكن هنا !" ...

مالك حداد

t.me/yasmeenbook

ثائر

ريف دمشق، صيف 2017

"غريب أمركنّ أيتها النساء!" تمتم ثائر.

"هل تكلم نفسك ثائر، هل أفقدتك الحرب عقلك" سأله جوان.

"لا أعلم إن كنت فقدت عقلي أم لا، لكني متأكد أنني فقدت صبري على مزاجية النساء وجنونهن" ردّ ثائر

حين رنّ جواله، آخر ما كان يتوقعه هو أن يرده اتصالٌ منها. لم يُجبْ. مرتان وثلاث، وبعد توقّف لدقائق عاودت الاتصال به، وعاود الرفض. فكّر للحظة في السبب الذي يمكن أن يدعوها للاتصال! الأهم كان أن لا سبب يدعوه للرد، وجد نفسه فجأة غير مهتمٍ بالبحث عن السبب. كان الأمر بالنسبة له أشبه بما يفعله مجرمٌ يحوم حول مكان الجريمة بعد ارتكابه لها، ليتفحص آثار ما اقترفت يداه. لم يفكّر أكثر ولم يجد نفسه مصرًا على معرفة الأسباب. جلس وفي قلبه وأعصابه برودة لم يعهدها منذ فترة، حتى أصوات القذائف والصواريخ التي تنهال بالخارج أصبحت شيئاً عادياً بالنسبة له. العادي المتكرر يولّد الاعتياد وهذا ربما يرادف النضج وبعض القسوة. فنحن لا نعتاد إلا بعد أن يتأذّى فينا جانب كان غضّاً، نقسو عليه فيتصلّب ويشتد عوده وينضج، فننضج. كان حبّها سابقاً طوق نجاته، اليوم وبعد القسوة والنضج لم يعد ثائر يختنق بالماء الذي ابتلعه من بحرها. ولأن طوقَ نجاتِه طوقٌ، راقَ له الغرق حُرّاً. أشعل سيجارته سحب

t.me/yasmeenbook

منها شهيقاً قصيراً ثم زفر زفيراً طويلاً ونفثَ الدّخان بقوّة وكأنّه طرح معه أخيلةً وذكريات خرجت من داخله ولن تعود. أحسّ بارتياح كبير، كان سعيداً بحالة اللامبالاة التي أصابته وكأنها المؤشر على خروج لينا من قلبه وتفكيره بعد أن خرجت من حياته بقرارٍ فرديّ منها ودون سابق إنذار. لم يمتلئ بحقدٍ أو ضغينة أو كره وإنما شعر فجأة أنها لم تعد تعني له شيئاً على الإطلاق.

كان يتساءل لماذا لا نمتلك، في الحب، الجرأة على المواجهة حين نقرر أن نغادر؟! ولماذا لا نتقن المصارحة؟ فلنقل ببساطة: لا نريد تكملة الدرب، لا نريد المضي قدماً؟ لا نرغب بك كشريك حياة! هل جرّب أحدنا مرة أن يقول: لم أحبّك؟! لا أحبّك؟ حاولتُ أن أحبّكَ ولم أفلحْ، لم أحبّك! وأيهما الأصعب يا ترى: الاعتراف بالحبّ أم باللاحبّ؟! هل جرّب أحدنا أن يكون قوياً إلى هذا الحد؟ وأن يقول لشريكه: أنا غير مرتاح لك ومعك! فتعال لنتفق على تفاصيل الفراق والمغادرة دون شجارٍ ودون عداء، دون ذرائع ودون غيابات، دون جروح وخيانات. لماذا نتبع طريقاً يجعل طرفاً يبدو سخيفاً لا يفقه من الأمر شيئاً ويضرب أخماسه بأسداسه ويقلّب في نظرية الاحتمالات علّه يفهم سرَّ الصدود! مقابل طرفٍ آخر يبدو الخائن المعتدي الظالم والجلّاد، وفي حقيقة الأمر الطرفان ضحية والجلّاد هو المجتمع. الضحايا ضعيفة والمصارحة والمواجهة تتطلب القوة ولم تكن تربيتنا إلا تربية قمعيّة، ومتى كان المقموع قادراً على المواجهة؟ الضعيفُ يحتال ويضطر للالتفاف في حين لا يجد القوي مانعاً من المواجهة.

جرح ثائر من لينا لم يندمل تماماً، لكنه في الوقت ذاتِه يشعر أنه عاجزٌ عن لومها. إنه لن يكلّفها فوق طاقتها فهي جزءٌ من مجتمعٍ

t.me/yasmeenbook

لا يربي الفتاة على القوّة والوضوح، ومن ينشأ ويكبر وقد غُرست فيه القناعة أنه ضعيف لا يمكن أن يكون شفافاً مواجهاً وإنما يلجأ إلى الحيلة والكذب والنفاق. حاول ثائر أن يغرس بينهما ثقة لم يعتد عليها كثيرون، حاول أن يجرّب ما لم يجربه العشّاق والأزواج. لكنه فشل مبكراً. علم ثائر منذ الأيام الأولى له مع لينا أن العلاقة: إنسان- إنسان هي من أصعب العلاقات، وأن التغيير والتسامي والارتقاء بالعلاقات الإنسانية يتطلب رغبةً من كلا الطرفين، وفوق ذلك إرادة للعمل على هذا الارتقاء، وجهداً كبيراً لا يوفّره أيّ منهما.

قال أهلنا: (يدٌ واحدة لا تصفق)، صحيح فاليد الواحدة يمكن أن تجرح، تمسك بسكين أو بخنجر، تمسك بمسدس وتقتل، تطلق رصاصة، تهدم، لكنها لا تبني، ولا تحيي، لا تصنع ولا تُبدع. حين تكون إرادة البناء أحاديّة، تكون النتيجة هي الفشل المحتّم. وكان ثائر يعلم من خلال نقاشاته معها أن لا رغبة ولا إرادة لديها ولا حتى أيّ جهد يبذل من طرف لينا لتقدمه للعلاقة التي كانت تحتضر. كان سيحترم قرارها بالمغادرة كثيراً لو أنها أعلنته وصارحته، لكنها لا تقوى على ذلك ببساطة.

"بالنسبة لي إن الأولى من الزواج وإنجاب الأطفال وتربيتهم هو إنجاب الفكرة الخلاقة وتربية الثقة والقوة والمصارحة" يومها صمتت ونظرت إليه نظرةً سلبية لا معنى فيها، لا تجاوب ولا قبول، لا موافقة لا رفض. أدرك أنها كانت أبسط من أن تفهم هذا الطرح الكبير جداً على عقلها، بناء العلاقات مشروع لاتقليدي يفوق حجم مداركها وطاقتها النفسية والعقلية وطاقة كثيرات جداً من صبايا عصرها. أدرك أن جلسة مع صديقاتها في المقهى تعادل عشرات الجلسات لهما معاً، وصور السيلفي التي تدأب على التقاطها كل لحظة وفي كل مكان،

كانت أهم بكثير من الصور الشعاعية التي أجراها لساقه التي تسكنها اليوم أسياخٌ معدنية!.

رنّ الجوّال مجدداً، وعبّر ثائر مجدداً عن رفضه العودة خطوةً واحدةً إلى الخلف. كان يشعر أن صوت الرنين مختلفٌ وكأن فيه إلحاحاً واسترضاءً واستجداءً، أو ربما هكذا تمنى. راقت له القسوة التي أبداها كانت بمثابة ردّ اعتبار لنقائه وصدقه. يا للزمن كم هو غريبٌ ومحيّرٌ!. كان يحضره صلاح جاهين الذي أدمن قراءته حين منحته إصابةُ ساقه الوقتَ والفرصة الجيّدة لقراءة كل ما كان يتمناه ولا يجد له الوقت:

لا تجبر الإنسان ولا تخيره!
يكفيه ما فيه من عقل بيحيره!
اللي النهار ده بيطلبه ويشتهيه!
هو اللي بكرا بيشتهي يغيره
وعجبي!

يا للإنسان ذاك الكائن المتغيّر الذي تحكمه الصيرورة دون توقف. ما كان يصلّي لأجله في الماضي القريب، أصبح بين يديه الآن ولا يريده، تمنّى لو أن هذا الإصرار في اتصالها كان فقط قبل سنة، لكان ذلك كافياً ليمنح علاقتهما بعض الإنعاش، إثر الغيبوبة التي أصابتها.

ثائر الذي ينظر دوماً للوجه الإيجابي من السلب وللوجه السعيد من المعاناة وللنصف المليء من الكأس وللملء حتى في الفراغ، كان قبل سنة عاجزاً عن رؤية شيء إلا جرْحه، لكنه الآن يرى كل شيء إلا جرحه. كان ثائر في البداية يعتقد أن الأمر أبسط من ذلك: شابٌ أحبّ

t.me/yasmeenbook

فتاةً ويريد أن يكملَ معها الحياةَ والطريقَ والحلم، لكن يبدو أن الحياة وكوارثها لا يمكن أن تترك الأمر يمر بهذه البساطة ولا بد من دفع أثمان أحيانا تكون باهظةً ومؤلمةً ومنهكة. يخرج المرء بعدها مفلساً نفسياً وبحاجةٍ إلى تشافٍ، وإلى إعادة تأهيل وبناء، وأين هذا كلّه والحرب تطحن البشر يمنةً ويسرة؟!.

حين تمرّ الأيام الأقسى ولا يحضر الغائبون، فإن حضورهم يساوي الغياب بعد اندمال الجرح. فما الفائدة من العودة بعد اعتياد الألم إلى حد الاختفاء، وهل هناك من قيمة للعفو بعد التعافي؟! فبعد أن يشفى المريض بفعل مناعته الذاتية يصبح تناول العلاج ضرباً من الحماقة! كان يشعر أنه شفي منها تماماً. بل إن اتصالها الهاتفي ورفضه هذا الاتصال كان بمثابة إقرار يثبتُ شفاءه. نجح ليس فقط في إغلاق الباب على الماضي بل تأكد أنه قام بذلك بإحكام وأنّه لا يسترق النظر من النافذة. ويبدو أن لينا لديها موهبة في ترك الأبواب نصف مفتوحة، كانت تحبّ نصف حبٍّ وتخلص نصف إخلاص، وتحضر نصف حضور، أما غيابها فكان كاملاً وكذلك قسوتها وكذلك جرحها، لهذا جاء صدّ ثائر كاملاً وحازماً وحاسماً. الذكرى عدوّ يتربصُ بك، وحين تحارب عدوّك وتتمكن منه، عليك التأكد أنك قضيت عليه قضاءً كاملا لتمنع عودته. لهذا لم يكتف ثائر بطيّ صفحتها من روزنامة حياته، بل أزال الصفحة بأكملها ومزّقها تمزيقاً. الذكرى الأليمة أفعى تلسع بخبثٍ من حيث لا تعلم، لذا عليك ألا تكتفي بقطع الذنب وإنما "أتبع رأسها الذنبا" كما قال الشاعر. عاد الجوّال إلى الرنين، حدّق ثائر في الشاشة وراح يتساءل: هل قسوة لينا بالأمس ولدت قسوته اليوم أم أن سبباً آخر يساعده على الصدود البارد؟.

t.me/yasmeenbook

"والله يا صاحبي أرى أن دفاعاتك أصبحت قويّةً بشكل لافت! أخشى أن يكون هناك تدخل خارجي جعلك عنيداً في صدّك؟!"، قال جوان ممازحا غامزاً لثائر بعد أن لفته اسم لينا على شاشة الجوال مرات ومرات دون استجابةٍ من ثائر.

"لا صبر لدي ولا طاقة لأبني جسراً فوق أنهارٍ قد جفّت!" ردّ ثائر.

تدخل ماهر: "يقول أدونيس: يمكننا أن نكره الحب، لكن فقط بحبٍّ آخر !حبٌّ آخر فقط يا ثائر!".

أشعل ثائر سيجارته حين أربكته نظرة ماهر التي تقول أن سهر حكت له أمراً ما.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

أردت فقط أن أكون معك، الأمر بهذه البساطة وبهذا التعقيد ...

بوكوفسكي

t.me/yasmeenbook

سماح

حمص، شتاء 2018

حياتي دونه مستحيلة، لا يمكنني العيش ليومٍ واحدٍ دون وليد، إنّه لا يشبه أحداً ولا أحد يشبهه".

سماح يا حبيبتي متى ستكبرين؟ متى ستفهمين الحياة كما هي، لا كما ترينها وتريدينها؟" قالت سلاف.

"تتحدثين وكأنكِ لم تعرفي الحبّ! ألم تحبي ماهر بالماضي على الأقل؟ ألا تعتقدين أنه مختلف وأنه الوحيد؟".

"ليس تماماً، هو واحدٌ من كثير، انظري فقط حولك جيداً بعد أن تخلعي نظارة الحب السوداء التي تعمي بصيرتك" قالت ذلك رافعةً يدها مشيرةً من النافذة ثم تابعت:

"رغم الحرب والموت ما زال هناك الكثير من السالمين المؤمنين بالحب والارتباط، ورغم النزوح والتهجير والترحيل والهجرات الطوعية، ما زال هناك من اختار البقاء ليكمل مسيرة حياته مع إحدى بنات بلده وليموت في أرضه ويدفن بها، ورغم القسوة هناك عطوفون، ورغم الكذب هناك أوفياء".

لم يكن بمقدور سلاف أن تحدد فيما إذا كان ما قالته لسماح صحيحاً وهل كانت حقاً ترى ماهراً كغيره، أم أن ذلك كان فقط لحمل سماح على اتخاذ قرار قوي جريء بإنهاء علاقة لم تجلب لها إلا الألم ولم تجرّ عليها سوى الحزن والشقاء، لكن ما كانت واثقة منه

t.me/yasmeenbook

تماماً أنها تغيرت وتبدلت وأنها قد بلغت مرحلة النضج التي كانت تسمع عنها، ذاك النضج الذي ينمو مع الأيام كثمرة للألم والفقد.

كانت ما تزال تنظر من النافذة، وقد ساد صمتهما لحظات، وقعت عينا سلاف بالخارج على شابٍ يشتري السجائر من كشكٍ صغير، حين التفت الشاب، ظهرت إحدى ذراعيه، الأخرى مبتورة، كان الشاب يفتح علبة السجائر ويسحب بفمه منها سيجارة، ثم يتأبط العلبة ليشعل، بيدٍ واحدة، السيجارة المنتظرة بين شفتيه، الحديث الذي دار بينه وبين صديق له يقف إلى جانبه يبدو طريفاً، فكان بإمكان سلاف أن تسمع القهقهة التي كانت صادقةً بقدر ما كانت مرتفعة. اللافت أن صديقه لم يفكر أن يساعده في فتحِ العلبة ولا إشعال السيجارة والأغرب أن صاحب الذراع المبتورة، تقريباً بالكامل، لم يطلب مساعدةً ولم يبدُ أنّه يواجه أية صعوبة في حركته. أهي الحرب التي علمتنا التكيف مع الألم، مع النقص، مع الغياب؟ أهي الحرب التي جعلتنا نعتاد الفقد؟ التفتت إلى سماح الدامعة الشاردة فقالت لها:

"أتعلمين يا سماح أن أحدنا يمكن أن يفقد ذراعه، أو أصابعه، أو قدمه أو حتى ساقه بالكامل حتى أعلى الفخذ، ويمكن أن يفقد رأسه، ويستمر ويتعايش ويعيش يتكيف ويتلاءم".

"رأسه؟!" تعجبت سماح وظنت أنه تعثرٌ لغويٌّ من سلاف.

"نعم ! رأسه يا سماح، هل تعتقدين أننا لا زلنا نملك رؤوساً بعد كل ذلك الذي حدث؟! سلبتنا الحرب كل ما كان لدينا من أفكار!" قالت سلاف .

"لطالما اعتقدت أنني عاجزة عن العيش ليوم واحد دون أحبائي. وها أنا فقدت أبي وأخي وماهر، فقدتهم ولم أمتْ ولم أُجَنْ. فقدت سهر الصديقة وفقدتك أنتِ لفترة، الإنسان كائن متعوّد يعتاد كل شيء ونحن

t.me/yasmeenbook

نعتاد الفقد. اسمعي لن يكون الأمر بالسوء الذي تتصورين، حين تكبرين قليلا وتتقدم بك السنون والتجارب والجراح ستدركين أن كوباً من الشاي، وطبقاً من الكعك اللذيذ، أو أية حلوى مفضلة لديك وموسيقا تحبينها أهم من كل رجال الأرض، ستعرفين معنى القدرة على الاستغناء ومعنى الاكتفاء، سيدعوك النساء بالخبيثة والماكرة، هذا في أحسن الأحوال، بعض الرجال سيراك "مجرمة" لأن لديك استقلالية لم يعتدها أي منهم ، وقدرة على صدّ الرجال لم يروها في النساء التقليديات، وفي النهاية يرى جميعهم النضج "كيد النساء"، ليكن. لا يهم!

"ربما هذا صحيح، لكن لن يتحقق لي ذلك بين عشية وضحاها" ردت سماح وهي تبكي.

"لماذا البكاء يا بنتي؟ أصبحتِ كثيرة البكاء، هل أنت متأكدة أنك تعشقين رجلا أم رأس بصل؟!"، حاولت سلاف ممازحتها لكن سماح استمرت بالبكاء.

"حسناً أخبريني ما الأسباب الحقيقية التي تدفعك إلى التفكير بإنهاء علاقتك بوليد؟".

"إنّه يخفي أمراً يا سلاف، هناك سرّ كبير في حياته أنا واثقة من ذلك، هذا يجعلني قلقةً وغير مرتاحة وحزينة على الدوام".

"إن كنتِ واثقة واتخذتِ قرارك فلا تؤجليه، فتأجيل الألم هو تأجيل للتعافي منه".

"ليتني أستطيع، وليد شيء آخر، لا يمكنني التعايش مع فقده، إنك لا تفهمين، آآآآ" قالت وهي تنتحب فقاطعتها سلاف بغضب:

"حسناً إن كان الأمر كذلك حاولي إذن أن تصمتي وتقبليه كما هو، وإياكِ أن تشتكي غموضه وألمك، وكفي عن هذا النحيب أيتها الحمقاء!".

"على رسلك يا سلاف! على رسلك يا حبيبتي!" جاء صوت أم هشام مقاطعاً كلام سلاف.

جفلت سماح كمن يخفي سرّاً لا يريد لأحد أن يعرف عنه شيئاً.

"أهلا بمعلمتي، لم أنتبه لقدومك؟" قالت سلاف.

"لا أظن أن الروماتيزم منحني قدرة على الدخول عبر الجدران مثلاً، إنّه باب مشغلك المفتوح يا سلاف، ببساطة دخلت منه" قالت بحسّ الدّعابة الحاضر لديها دوماً والذي غيّر لون الحديث السابق إلى المرح.

صمتت سلاف وأومأت لأم هشام أن أمرا غير سعيد يجري مع سماح.

"أعتقد أنني فهمت ما يجري، وسأسمح لنفسي بالتدخل لأنني أحبكما وأحب كل أنثى في بلادي التعيسة التي لا تنصفنا، هل أسدي إليك بنصيحة يا بنتي؟ ربما لن أراك بعد اليوم، من يعلم، فليكن لديك كلمة مني" قالت أم هشام مخاطبة سماح.

"بعيد الشر عنك يا خالة، تفضلي أرجوكِ!" ردت سماح بتهذيب واستحياء وهي تمسح دموعها.

"لن أقولَ لك لا تبك! لا بأس فنحن بشر والبكاء يطهّرنا، لكن إياكِ والحزن! الحزن يقتل الروح ويعطل الحياة، وأنتِ شابة والحياة أمامك، من أراد الذهاب فليذهب، من انفضّ من حولنا، له ذلك، لكن عليه أن يعلم أن طريقه وحيدة الاتجاه وأن لا عودة ممكنة، وأنك لست بانتظاره، الحياة أقسى وأقصر من أن نهدر أيامنا منتظرين اللاشيء، ونحن أشقى من أن نرتقب أملا كاذباً، باكين على أطلال من لا يستحق".

t.me/yasmeenbook

والله أخبرتها ذلك لكنها لا تريد أن تفهم" قالت سلاف بحنق فهزت أم هشام برأسها موافقة ثم نظرت إلى سماح وتابعت كلامها:

"اعلمي يا بنتي أن من تبكيه اليوم سيبحث عمن يَبكيها غداً وكأنّما يرثُ دموعَكِ لينفقَها على غيرك، ومن تهمليه سيبكيكِ، سبحان الله هكذا خُلِقَ الرجال، لا يطمئنون إلا للتي لا تطمئنهم، ولا يهنأ لهم بال إلا للأنثى التي تمرمر عيشتهم، وتسوّد أيامهم، مخلوقون هم للصراع للسعي وللحرب، لا يحبّون الراحة، ويلهثون خلف التعب، أما المرأة فهي حضنٌ على هيئة إنسان. لا يمكنها أن تكون سوى ذلك"

والمشكلة أنهم يصفوننا نحن بالكذب والخيانات" قالت سلاف.

"هم الفعل ونحن رد الفعل" علّقت أم هشام.

"وكفي عن الاعتقاد أن أحدهم مختلف، ما من رجل مختلف جوهرياً، كلهم متشابهون ولا تغرّنك الفروق التي ترينها بينهم، فكلها فروق ظاهرية وطفيفة، أشبه بالفروق بين الهواتف المحمولة، التي صنعت كلها لهدف واحد هو إجراء اتصال، والرجال خلقوا لهدف واحد هو إيلام النساء، ورغم الفروقات يبقى الأساس واحداً" قالت سلاف.

"هواتف محمولة يا سلاف؟ كيف لي أن أقتنع بذلك؟ هل كان ماهر مثلا نسخة من أبي جهاد البقّال بالنسبة لك يا سلاف ؟ مع فروق طفيفة؟!" حين قالت سماح ذلك صمتت سلاف لثوان وتبدلت ملامح وجهها وقالت بهدوء متظاهرة باللامبالاة بينما ترتب الوسائد على الأريكة:

"على الأقل أبو جهاد كان معروفاً بحبه لزوجته وإخلاصه لها، لم يخُنْها مرةً ولم يتركها من أجل أخرى!"

t.me/yasmeenbook

أرادت أم هشام أن تقول شيئاً وكأنها ترددت فاقتربت من سلاف وهمست: "ليسوا متشابهين يا سلاف، ليسوا كذلك، لكني أريد أن أخفف عن هذه البنوتة المسكينة، أخبريني، ألم تجدي ذاك المختلف بعد؟" مازحت أم هشام سلافا، عادتها حين تريد أن تنتشلها من لحظة حزينة. ارتبكت سلاف إذ سمعت في صوت أم هشام استفسارا عن (هشام) أبو هاني. أرادت أن تحكي لها لتريح قلبها، لكنها انتظرت مغادرة سماح فقالت لأم هشام هامسةً: "انتظري سأخبرك بالجديد بعد أن أودّع سماح". لكن عندما همّت سماح بالخروج سارعت أم هشام إلى مرافقتها: "خذيني معك يا بنتي لأتعكزَ عليكِ، ونتفق على موعد لسهر لتجرب فستانها، وعليكِ إخبارها".

بعد أن اعتذرت سلاف عن إنجاز فستان سهر، كان الوقت يضيق بأم هشام فعلاً لا سيَّما أنها لا تستطيع العمل بسرعة سلاف، فالروماتيزم يمنعها من العمل لساعات طويلة وفترات متواصلة. خرجتا معاً وقد أمسكت أم هشام بيد سماح مبتدئة درساً جديداً من دروسها في الحياة. عادت سلاف وأغلقت الباب خلفها وهي تتساءل إن كانت أم هشام خرجت فعلاً لترتيب أمور الفستان! أم لتكون مع سماح بعد أن رأتها منهارة، أم أنها تتهرب من سلاف؟! لكن لماذا تتهرب؟ . ربما كان كل ذلك معا. استلقت على الأريكة واستسلمت للشرود.

* * *

كمطر الصيف هطل سؤال سماح على رأس أم هشام فجأة:

"هل أحببتِ؟ أقصد ألم يكن لك حبيب في الماضي؟!" سألت سماح ببراءة.

t.me/yasmeenbook

أم هشام التي يسعفها ذكاؤها دائماً في إيجاد ردّ مناسب لكل سؤال، شعرت بارتباك للمرة الأولى في حياتها منذ سنوات، سؤال سماح أحالها مراهقة تُسأل عن الحب ولا تجد جواباً مباشرا. الطقس بارد جداً والشارع هادئ، الإنارة غير الجيدة ساعدت أم هشام في إخفاء اضطراب ملامحها. أدركت أم هشام أن سماح كانت تعي ما تسأل، وسؤالها هذا مقدمة لأسئلةٍ أخرى حول مصير هذا الحب إن وجد، وعن أسباب عدم وجوده إن كان لم يحدث. وكانت سماح مترقبة فعلاً تنتظر جواباً من أم هشام التي لم تنطق بعد.

التفتت أم هشام إلى الفتاة ونظرت في عينيها ملياً ورغم بعض الظلمة، استطاعت أن ترى فيهما عصفورا طال مكوثه في قفص وحين فُتِحَ له باب القفص فرح في البداية، ثم اضطرب وخفق بجناحيه وطار خارجا، لكنّه لم يبتعد عن القفص، على عكس التوقّع: أن يهرب ويحلق بعيداً، فتراه لا يشبه في طيرانه العصافير الأخرى الحرة التي لم تعرف القضبان، وكأنه لا يطمئن للحرية التي لم يعتدْها. أم هشام أكثر من يمكن أن يدرك أن الإنسان لا يولد عبداً، إنّه يصبح كذلك.

"اسمعي أنا لا أتهرّب من الجواب لكن أخبريني أولاً: هل تتمشين أنت وماما أم ماهر؟!".

"وهل تركت لنا الحرب شيئاً واحداً نمارسه بشكل طبيعي؟! نحن لا نتمشى كي نتمشى فقط، نخرج للتسوّق، والذعر يستبدّ بنا وترانا نعود مسرعين مهرولين شاكرين الله أننا عدنا إلى منزلنا أحياء".

أمسكت أم هشام بذراع سماح، وتمشيتا معا على طول الشارع، تفاوت طولي قامتيهما جعل رأس سماح بالكاد يصل إلى أسفل كتف أم هشام. أحاطتها أم هشام فتمسكت سماح بدورها بذراعها، أحست أم هشام بدفءٍ جميلٍ ومحبب منحتها إياه سماح. استرسلت سماح في

t.me/yasmeenbook

حديثها عما حرمتها إياه الحرب من خروج مع صديقات لتناول المثلجات بعد الامتحانات مثلا كتقليد سنوي عقب الامتحانات، لكن هذا كان قبل الحرب طبعا، وراحت تحدثها عن النزهات الجميلة، وعن السهر عند صديقاتها في أحياء مجاورة، والعودة المتأخرة بأمان دون قلق أو خوف، "الآن لا رحلات ولا مشاوير ولا تسوّق ولا عودة متأخرة في المساء، ولا حتى مدارس دون ذعر، أغلب صديقاتي تركن المدرسة، ولا مظهر من مظاهر الحياة الطبيعية يا خالة أم هشام".

سماح التي تشكو عذابات الحب والحرب، لا تعلم أن أم هشام عاصرت حربين وحباً منقوصاً لم يكتمل ولم يثمر، سلبتها الحرب الأولى طفولتها وبراءتها وجعلتها تشيخ قبل أوانها، ولم تكتف بذلك بل وكأنها تواطأت مع حرب أخرى لتسرق وإيّاها مستقبلا حاولت أم هشام جاهدة أن تكون فيه منتصرة، الأوطان هي الشعوب، والشعوب هي مجموع الأفراد، والأوطان التي تشهد حروباً داميةً لا يمكن، وإن أعادت إعمار ما تهدم على الأرض، أن تعيد بناء ما فوق الأرض وما في الرؤوس، التي أفرغتها الحرب من مضامينها الجيّدة بل وتركتها خاوية تصفر فيها رياح التعصب والطائفية والمذهبية والعشائرية والعرقية والقومية. تعافي الشعوب من الحروب يحتاج عقوداً طويلة، فكيف المصير إن كانت الصفعات تأتي متتالية قبل التعافي، وكيف يمكن لتوازن أفرادها أن يتحقق؟! وكيف سيضطلع هؤلاء المدمَرون نفسياً بمهمة بناء الأوطان؟!.

جسد سماح القريب من جسدها لم يوقظ الأمومة الكامنة بداخلها فحسب وإنما أيقظ سؤالا أليماً لدى أم هشام: منذ متى لم تعانق أحدا، ومنذ متى لم يكن جسدها قريباً من جسد أحد، حاولت أن تتذكر متى آخر مرة ضمّت إلى صدرها شخصاً، رجل كان أو امرأة،

t.me/yasmeenbook

لم تتذكر بالضبط متى! لكنها تذكرت مقالة قرأتها مرة عن أبحاث علمية أثبتت الأهمية الكبرى للعناق وللضم والقبلات على تعدد أنواعها وأصنافها، والأثر الإيجابي للقرب الجسدي في التوازن النفسي والتحفيز على العمل والإبداع، فاكتشفت فجأة أنّها محرومة من هذا كلّه. حاولت أن تبحث في زوايا وخبايا ذاكرتها عن لحظات لأشخاص محبين بحق، وراحت تجمعها بعناية واهتمام كما يجمع طفلٌ صدفاً عن الشاطئ، إذ أنّها لم تشأ أن تعود من ماضيها خالية الوفاض تماماً. عادت بلحظتين أو ثلاث: الأولى كانت لأبيها الذي ضمّها بقوّة حين حصلت على المرتبة الأولى في الصف الخامس وأهداها ساعة يد فرحت بها جداً، الثانية كانت لجدها الذي لطالما أحبها ودللها، والثالثة كانت ربما الأكثر دفئاً والأكثر براءة والأشد تأثيراً بها على الاطلاق وهي لحظة عناق هشام لها حين تخلى عنها الجميع، حينها رسم عناقه وعداً أنّه الذي لن يتخلى عنها ما حيي.

شعرت أنها تغبط أم ماهر لأن لها ابنة مثل سماح، كانت تراها كائناً جميلاً قادراً على ملء الأمومة بمضمونها ومحتواها وعلى ملء الحياة بعناصرها. صحيح أن أم ماهر تبكي يومياً ابنها سلام المختطف والذي لم تعرف عنه شيئاً حتى الآن، صحيح أن الخوف والقلق يلفها باستمرار حول ماهر الذي يحمل روحه على كفه، صحيح أنها اضطرت لتكون الأم والأب بسبب إصابة أبي ماهر، لكنها تعيش الحياة بصخب المحيطين وانشغالها بهم، في حين تعيش أم هشام الوحدة وليس للوحدة مظاهر الحياة، فالوحدة موت. لأم ماهر الحياة بتفاصيلها المؤلمة والموجعة والمفرحة ولها آخر الليل صدر أبي ماهر لترمي فوقه همومها، ولها ابنٌ تعانقه، تغمره، تضمه حين يأتي من إجازاته وآخر تنتظره بأملٍ لا ينضب، ولها ابنة شابة تشاركها هموم الحب وعذاباته فتنصحها أو

t.me/yasmeenbook

توبخها لا يهم، المهم أن هذا الخصم هو الحياة، هؤلاء أبناؤها الذين حملتهم في جوفها ثم ارتموا على صدرها، باكين حيناً، فرحين حيناً آخر، وأرضعتهم حليب ثدييها، فغفوا وقبّلتهم، وعاشت يومياتهم حتى أصبحوا كباراً. لماذا حُرمت أم هشام من هذا كلّه؟!.

لأول مرة تشعر أنّها وحيدة إلى هذا الحد، هل هي السنون؟ هل هو الظمأ إلى الاحتواء والاحتضان؟ هل هو هلع الوحدة؟ هل هي الحرب التي تجعل عتبة الحرمان أكثر انخفاضاً؟! يا لذراع هذه الفتاة التي تلفها الآن كم قرعت أبوابا من آلامها الخامدة وكم فتحت من صناديق الأمس والحنين. عاصفة من التساؤلات الحزينة المحزنة اجتاحت كيانها بينما تلفها ذراع سماح. تملّكها شعور لم يسبق لها أن عرفته، كيف تشتاق للأمومة وهي لم تجرّبها؟! لقد أدركت حينها أن هناك أنماطاً من الشعور نفتقدها ونتألم لغيابها دون أن نعيشها أو نجربها. ربما كانت سماح بانتظار إجابة أو نصيحة أم هشام، في حين أن أم هشام كانت تريد لهذا المشوار مع سماح ألا ينتهيَ. لكنهما وصلتا وشخص ما كان بانتظارهما على باب المشغل وكأنّه على موعد معهما. كان أبو هاني.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الإجابة الوحيدة على الهزيمة هي الانتصار...

تشرشل

t.me/yasmeenbook

أبو هاني

حمص، صيف 2017

وكأنّ نسيماً أليفا مرَّ بها حين مـرّت بسـلاف وضـيفها عنـد مـدخل المشغل مودعةً ومسرعةً نحو التاكسي. كانت أم هشام على عجلـة مـن أمرها لتلحق موعد طبيب الأشعة.

- "ربما استغربتِ أن يقصد رجلٌ مشـغلاً للخياطـة النسـائية، لكـنّ الأمرَ أهمّ مما تصورين!" قال أبو هاني مخاطبا سلاف.

- "لا عليكَ! ليس الأمر بهذه الغرابة فيحدث كثيراً أن يحضر أقرباء الزبونـات أو أبنـاؤهن، تفضّـل كيـف يمكـنني مسـاعدتك؟!" ردت سلاف.

- "حسناً سـيدتي أم هشـام جئـت لآخـذ فسـتان زوجـتي أم هـاني وابنتي هناء، هل هذا ممكـنٌ بأقصـى سـرعة لـو سمحـتِ؟! علـيّ أن أعود اليوم بسيارتي إلى دمشق وأنت أعلم بحال طرقات السفر!".

أجابت سـلاف: "أم هشـام، هـي السـيدة الـتي ودّعتنـا قبـل قليـل وركبت التاكسي، أنا سلاف، تلميذتها وصديقتها وابنتـها الروحيّـة إن شئت، وهذا مشغلي"

"حسنا، توقعت أن هناك خطأ ما، فقد أخبروني أن أم هشام خياطة عتيقة وعريقة ومحترفة، وأنها الأقدم والأكثر مهارةً في المدينة كلّهـا، فاستغربت ذلك حين رأيتكِ" ودّ لو أضاف: "لم أتوقع أن تكون خياطـة عتيقة بهذا الصبا والجمال!" لكنّه ظلَّ صامتاً.

t.me/yasmeenbook

شرحتْ له أنّ أم هشام تقضي في مشغل سلاف وقتاً أطول من ذلك الذي تقضيه في مشغلها منذ فترة لا بأس بها لذلك أرشدوه إلى هنا، كان ينصت إليها جيدا، لاحظت سلاف مسحة الحزن على ملامحه والسواد الذي تلونت به ملابسه الأنيقة، القميص الأسود ذو الخطوط الطولية الرمادية، والبنطال الفاخر، لم تشأ أن تسأله عن السبب وهو أيضاً لم يجد مدخلاً لحديثه عن مصابه.

استأذنته سلاف لتحضر له ما طلب، انتظرها بالخارج دقائق. دخلت سلاف وتركت الباب دون أن تحكم إغلاقه، كان صيفاً لطيفاً نسبياً. تأمل أبو هاني في الحديقة الصغيرة بالخارج، أعجبته الأرجوحة المغطاة بالقماش المزهر المستقرة في صدر الحديقة، نفاضة سجائر أم هشام منعت الغطاء الأبيض من السقوط عن الطاولة المعدنية التي توسّطتْ الحديقة وعلى جنبيها كرسيان أنيقان جميلان. أطال النظر في الزهور الملونة على الأطراف والتي تخللها عشب أخضر فكان في تناغم ألوان الزهور مع ضوع عطرها راحة للنفس المتعبة كنفسه، الريح الخفيفة التي حركت غطاء الطاولة انتقلت إلى الباب ففتحته أكثر لتسمح لنظر أبي هاني بالدخول إلى الصالة، لفته المكان الأنيق، الأرضية الرخامية اللماعة، الأريكة الحمراء والوسائد الذهبية فوقها، قماش الستائر الرقيق تراقصه الريح بخفة ودلال. الأبهى كان شموخ كتفي سلاف حيث لم يستطع منع نفسه من استراق النظر إليها وقد أدارت ظهرها إلى الباب، أخذت تفتح درف الخزانة باحثةً عن طلب أبي هاني. مرتديةً بنطالا من القماش الرمادي وبلوزة صيفية بيضاء شفّت قليلاً عن أطراف حمالة صدرها البيضاء. حاولت لمّ شعرها، عادتها حين تنهمك في أمرٍ ما، تأمل دون أن تلحظه، في المنظر الجانبي لصدرها الذي قفز للأعلى حين رفعت ذراعيها تجمع خصلات شعرها، جلست القرفصاء لتبحث في الجزء السفلي من الخزانة، فانكشف هلالٌ أسفل ظهرها، وبدت مؤخرتها

t.me/yasmeenbook

كاملة الإغراء وقد شُدّ القماش الرمادي عليها، لم يرفع عنها عينيه إلا عندما نهضت بسرعة واستدارت نحو الباب فارتبكَ حين رأتْهُ واقفاً بالباب بغير استئذان، أشاح بوجهه لكن ليس قبل أن تلمحه سلاف جيدا، مشت نحوه إلى الباب مسرعةً، "يا لها من ريحٍ صيفيّة جريئة، لا تستأذن حين تفتح الباب!" قالت..

"حسنا، للأسف يا سيدي، أعتقد أن فستان ابنتك مازال في مشغل أم هشام لأن هناء طلبت حينها تزيينه ببعض الأحجار الملونة، وقد تكفّلت أم هشام بذلك، لكن فستان أم هاني هنا، تفضل!".

ناولته الفستان. "سأطلب من أم هشام إحضار الفستان الآخر وحين تعود ثانيةً من دمشق يمكنك أخذه".

"حسنا، شكراً جزيلاً لكِ" أخذ الفستان، استدار ليذهب. لكنه التفت ثانيةً مخرجاً من محفظة يده بطاقةً أنيقةً:

"هذا كرتي، أخبريني إن احتجتِ أية نصيحة بخصوص معدات مشغلك، منذ انتقلت من حماه إلى دمشق وأنا أدير مصنعاً ضخماً للأجهزة الطبية ونتعامل مع متخصصين في صيانة الآلات والماكينات الصغيرة والكبيرة"

أخذت الكرت من يده ووضعته على الطاولة دون أن تقرأه. " شكرا لك، سلامي للرائعتين!".

حين ذكرتهما سلاف، ارتجف لوقع الكلمة عليه: "سلامي للرائعتين"، خجل من نفسه، لقد نسي أمرهما حقاً لثوان، خجل من خيالات زوجته، ومن صورة ابنته هناء، لكنه في الوقت ذاته كان يحدّق في بنصرَيْ سلاف ليجد جوابا عن تساؤلٍ لديه. استغرب من اهتمامه بأمرين متناقضين ومتنافيين بالوقت ذاته! ودّعها ومشى عابراً الشارع إلى الجهة المقابلة حيث ركن سيارته الفارهة.

t.me/yasmeenbook

"كيف استطعت أن تفعل ذلك؟!" داهمه اهتزاز من صوت أم هاني فلفح مسامعه، فتح باب السيّارة، وأخذ مكانه خلف المقود. أدار المحرك وحين قطع بعض الأمتار تبدّل مزاجه بصورة سريعة وراح يجلد ذاته، مرةً لأنه لم يمنع نفسه من استراق النظر إلى سلاف بشهوة رجلٍ لأنثى فاتنة، ومرة لأنه لم يذكر لها ما حلّ بأسرته، وفي هذا تجاهل للأمر الذي أتى من أجله، وعدم وفاء لدمهما الذي لم يجف بعد! ومرة ثالثة لأنه لم ينزعج لأن الخياطة لم تجد الفستان الآخر: مبرر جاهز ومنطقي لعودته إلى هنا، ومرة رابعة لأنه أعطاها كرته الخاص، وخامسة لأنه تبرأ من روحه الحزنى لوقت! شعر بأنه الزوج الخائن والأب الوضيع! استمر في جلد ذاته، كان ينبغي أن يحصل غير ذلك، لو كان زوجاً جيداً وأباً رحيماً لانهار حين أمسك ذكرى منهما، ولَمزّق المغلّف بجنونٍ ليتنشّقَ بسرعة ما بقي من عبقٍ عالق بقماشٍ لامسَ يوما جسداً يعنيه، بالأمس كان يتلهف للحصول على أيّ شيء، لكنه لم يمزق الورق المغلف للفستان ولم يفتحه أصلاً ولا تنشق نسيم الماضي الذي لم يخلص لأصحابه لا في حياتهم ولا في الممات! أيّ أب هو قضت ابنته ربيع عمرها وهي تعاتبه على الغياب؟!أيّ زوج خائن هو؟ وقد تناسى أنه أتى ليلملم شتاته في استحضار ماضٍ لم يعد يمتلك من عناصره إلا قطعة قماش! إنّه لا يستحق وجود ما سلبه إيّاه الموت.

"كيف استطعت فعل ذلك" عاد صوت أم هاني يلدغه. لم تكن هذه المرة تسأله عما حدث اليوم في مشغل الخياطة، كان الأمر أبعد من ذلك في الزمان، سامحتْه مراتٍ عديدة وخنث بوعوده في الوفاء مرات. والذريعة جاهزة: علاقات عابرة مارقة، وهي الأساس، فهي الزوجة وشريكة العمر! كانت تعلم في كل مرة تزور أهلها خارج دمشق، أن امرأةً ما لن تتركه وحيدا في سريره في بيتهم، **لكن تكرار الأمر يبطل** مفعولَه مع الزّمن، فالضجيج الذي تسمعه دوماً يصيبك

t.me/yasmeenbook

توقفه فجأة بالدّوار لأنك اعتدته، حتى أن المحكوم بالجلد يقال أنه بعد خامس جلدة يفقد الإحساس بالألم ويسمع صوت السياط فقط! كذلك كان المرار الذي تجرعته أم هاني، ولم تفكر بالانفصال، وكان كل همّها أن ترى هناء تكبر وتتابع تعليمها ضمن أسرة لها صورة مقبولة اجتماعياً في مجتمع لا يرحم المطلقة وابنة المطلقة حتى لو كانت من الطبقة المخملية!

ركن سيارته إلى يمين الطريق، اضطرب للتناقض الذي اجتاحه، للمرة الأولى يؤنبه ضميره إلى هذا الحد، للمرة الأولى لن ينتظره لوم وعتب أم هاني في المنزل، رغم ظلمة كل ما يحيط به، رأى نوراً ما، خجل من غواية الحرية التي راق له طعمها، أسند رأسه إلى المقود واستسلم للشرود...

أغلقت سلاف الباب ودخلت الصالة فوقع بصرها على الكرت الموضوع على الطاولة:

هشام المصري، مهندس أدوات طبية، صاحب ومدير شركة الهناء للتجهيزات الطبية، دمشق.

وجدت نفسها تدوّن في محمولها رقم الهاتف المدرج في أسفل البطاقة، وردها اتصال من أم هشام، قطعته وأكملت تدوين الرقم. رنّ جوالها مجدداً، ردتْ: "ألو أهلا أم هشام كيف حالك، وكيف كانت نتيجة الصور الشعاعية؟!".

"لستُ جيدة، اسمعي، أم ماهر اتصلت بي لتخبرني أن المسكينتين أم هاني وابنتها هناء، زبونتان عندنا، قضيتا في التفجير الأخير في دمشق! ماتت أم هاني محروقةً وهناء اختناقاً يا سلاف وأنا أتساءل أين هما منذ فترة؟!! سأنفجر من الحزن! سأعود من الطبيب إليك، سأجنّ، نلتقي باي باي" أقفلت أم هشام الخط تاركةً سلاف في حالة من الذهول المربك المليء بالتناقضات بآنٍ معاً.

t.me/yasmeenbook

يمكننا أن نعزي أنفسنا لفقدان الماضي لكن لا شيء يعزينا لفقدان المستقبل...

أمين معلوف

t.me/yasmeenbook

سلاف

حمص، صيف 2017

كان يتحدث بهدوءٍ لافت، بصوتٍ رخيمٍ ينمُّ عن نضجٍ واكتمال، وبثقة تقترب من الغرور. حين شكرته وتودعا، دخلت سلاف مشغلها، أغلقت الباب خلفها، مشت إلى طاولة الخياطة، أمسكت بقطعة القماش المستلقية على الطاولة كعاشقة تنتظر أن تدب فيها الحياة على يديّ معشوقها. قلّبتها بين يديها، تأملت بها بإعجاب رفعتها لتراها في النور أكثر، لونها خمريّ غامق يزداد سحره حين يصيبه النور، "قماش أخّاذ" تمتمت

شعرت أنها بحاجة للاسترخاء والصمت وبعض الراحة قبل البدء بالعمل، مشت نحو كرسيها الهزاز وجلست مغمضة عينيها، أصوات القذائف بالخارج لم تمنعها من الاسترخاء، ولم تمنعها من الدعاء لأبناء الشمس الذين يواجهون الموت بالخارج! دعتْ لماهر رغم كلّ شيء. استعادت محطات عديدة من حياتها وحضرتها وجوهٌ مختلفةٌ خلال لحظات قليلة. كان وجه ماهر أول الوجوه التي حضرت، لكن صورته أتت خافتةً، باهتةٌ ألوانها، للمرة الأولى رأته صامتاً، وكأنّها ترى فيلما سينمائياً على جهازٍ تعطّل فيه نظام الصوت وأصاب الصورةَ بعضُ الخللِ، فأتت الألوان فاقدة الحيوية. في السابق كانت صورته مفعمة بالحيوية وكانت لا تنفصل عن الصوت، كان دوماً متحركاً متفاعلاً حيّاً، كان في خيالها كما في واقعه، يحتضنها، يقبل جبينها ويديها

t.me/yasmeenbook

وشفتيها ويسرح شعرها بأصابعه بحبّ، دون أن يمنعه ذلك من أن يوبخها إن أخطأت حتى لو غضبت، وينصحها إن سألته النصيحة ويرشدها إلى مايراه جيداً لها. أمسِ كان شريكاً تاماً كاملاً، واليوم هو في خيالها أيضاً انعكاس لما هو عليه في الواقع، سلبيّ، بعيدٌ صامتٌ غائب. ولأن الصمتَ لا صدى له فإن صورته الصامتة في خيالها لم تزدْ عدد دقات قلبها ولا دقة واحدة. فجأة رأت وجه أبيها، كان يتحدث بالإنكليزية، ابتسمت لكنها كانت ابتسامةَ عتبٍ ممزوجٍ بالمحبة :"ليتكَ عرفت ابنتكَ أكثر يا أبتي! ليتكَ آمنتَ بها أكثر!" سمعتْ أمها تقول: "كفّي عن لومه يا سلاف! يحبّكِ والدكِ في الدقيقة قدرَ حبّ الناس لكِ في سنة!".

نادى خيالها جوان رأته أمامها يبتسم ابتسامته الماكرة المحببة، أطلّ بهيّاً، بجبينه العالي وحضوره الأنيق الجذّاب، رغم ملابسه المتواضعة كان ساحراً، فرنّ صوت أم هشام بمسمعها : "ابتعدي عن الرجل الفقير، إنّه يتعبكِ، فتشيخين باكراً، وإيّاك أن تعشقي من قستْ عليه الحياة، سيقسو عليك، لا لأن القسوة اعتيادٌ، ولا لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وإنّما لأنّ الحنان عند وريث الألم، رفاهيةٌ".

وجهٌ كان بريقه قادراً على إطفاء الوجوه الأخرى كلها، ألأنّه آخر من رأت؟! أم لأنه الأشدّ تأثيراً؟ هل لأنّه مختلفٌ؟ لم تستطع سلاف أن تحدد سر اهتمامها وانشدادها له. عينا أبي هاني احتلتا مخيلتها حين قبضت عليه يتلصص عليها بينما تبحث في الخزانة بين الأقمشة. تذكرت غروره حين تحدث عن معمله، صوته المستقر، شعيرات ذقنه الحزينة لكن المشذّبة، سيارته المركونة خارج المشغل، ثقته، ثراؤه البيّن، نضجه الواضح، ملابسه الفاخرة والمحيّرة بسوادها، تساءلت لماذا لم يخبرها بفقده زوجته وابنته! نهضت عن كرسيها

t.me/yasmeenbook

ومشت حيث الطاولة، أمسكت بكرت أبي هاني، وعادت إلى كرسيها، جلست وتمعّنت فيه ثم وضعته على حضنها وأسندت رأسها إلى الخلف مغمضة عينيها، فتحتهما بسرعة وكأن شيئاً ما أيقظها أو كأنّها سمعت جرساً ينذر بخطرٍ! نظرت في الكرت وأخذت أصابعها ترتجف وقد جحظت عيناها، قرأت الاسم مرارا: "هشام المصري، هشام المصري، هشام، هشام، هشام!! نهضت عن كرسيها بسرعة: قال إنّه انتقل إلى دمشق وكان في حماه! نعم قال إنّه كان في حماه! هشام وكان في حماه! يا إلهي هل يعقل أن يكون هو؟! حماه، وهشام، وأم هشام التي اختارت لقباً مستمداً من اسم رفيقها الشهم الذي وقف إلى جانبها وآمن بها وساندها في محنتها!! إنه من جيلها نعم، من جيلِ أم هشام إنه من أتراب (زينة) صحيح أنه وسيمٌ وأنيق لكنّه ليس شاباًّ، عمره بادٍ على تقاسيم وجهه!! يا إلهي!!" شهقت سلاف، ابتلعت ريقها، وازدادت ضربات قلبها غير مصدقةٍ استنتاجاتها!.

"كم أنا غبية! وكأنه لا يوجد سوى هشام واحد في حماه كلّها؟! ولماذا ترك حماه؟ بسبب أحداث الثمانينات؟ أم لأمر آخر؟ حسناً وماذا لو كان؟ ليكن! علي أن أقرر وأن أسارع لأخبر أم هشام أن رفيق طفولتها ومراهقتها الذي بحثت عنه جاهدةً دون جدوى موجود هنا الآن! سيسعدها ذلك بكل تأكيد! فلماذا أرتجف وأتفاجأ؟!" قالت ذلك لنفسها محاولةً تجاهل صدمتها.

لم تفلح مساعيها في تخفيف وطأة الشعور الذي أنهكها. شعرت أنها ساخرة من كل شيء، من الحب من الإخلاص، من الصداقة، من الحياة بكل مفاجآتها ومفارقاتها وتناقضاتها وصفعاتها. أين ماهر الذي أحبّت؟! أين صديقتها سهر؟ ستتزوج حبيبها هههه. يا لسخرية

الأقدار! أين أسرتها؟ أبٌ وأخٌ يفارقان الحياة في اليوم ذاته! أمّ تكاد لا تقوى على إبداء رأيها في أي شيء حبيسة المنزل وحبيسة الماضي، وحبيسة إثم لم ترتكبه! أين سماح؟ لم تعد تسأل عنها بعد أن قرر أخوها الزواج بغير صديقتها! سخرت من كل تعاليم المحيط وكل كلامهم ومديحهم وإطراءاتهم، حسناً الجميع يقول أنها جميلة ودمثة، الجميع يصبّ الغزل على رأسها صبّاً، لكن لا أحد فكّر أن يمنحها أكثر! الجميع ماهرون بالكلام والشعر والغزل الفارغ وعندما يأتي وقت الأفعال الجادّة يتهربون ويتخاذلون، كانت والدتها تقول لها أن نصيبها لم يأتِ بعد، وأنها أكيدة أن الحياة تخبئ لها الأفضل. أم هشام تريد لسلاف رجلاً حقيقياً مستقراً يسعدها ويريحها : "الحياة قصيرة جداً لكنها غنيّة جداً أيضاً، لكن يجب ألا تهدري سنيّ عمرك في الكفاح والتفاني، اسمعي! الرجل لا يقدّر تفاني وعطاء الأنثى، إنّه يعتبر ذلك أقلّ من واجبها تجاهه، ولقد جربتِ التفاني مسبقاً، عشقتِ فقيراً مرة، ما الذي جنيتِ؟! ذهب ليخطب غيركِ! سمع كلام الماما؟! الآن جاء وقت الراحة والرفاهية! أمركِ يعنيني كثيراً يا سلاف، أريد لكِ فرصةً استثنائية".

هذا ما كانت تقوله أم هشام. لا يمكن أن تنكر سلاف أنها فرحت حين أحسّت إعجاب وتودد أبي هاني خاصة عندما عاد ليعطيها الكرت. لا تدري لماذا قالت في سرها هاهي الفرصة الاستثنائية التي تمنتها لي أم هشام. لا تدري لماذا مثّل لها هذا الرجل شيئاً مختلفاً عن كل ما رأت من قبل، ربما لأنه كبيرٌ بالسن والآخرون أصغر؟ ربما لأنه ثريّ وهؤلاء مساكين فقراء؟! لأوّل مرة كانت تشعر أنها صغيرة خجلى، عادة تشعر أمام الذين يتقربون منها أنها القويّة المتماسكة المستقلة، شعرت أنه حقيقيٌ، ربما لأن من عرفتهم كانوا شباناً

t.me/yasmeenbook

يصارعون أقدارهم وكانت تشعر بالتفوّق عليهم في الجمال والذكاء، وبعد أن أصبح لها مشغلها الخاص بدأت تشعر بالتفوّق المادي الاقتصادي، لكنها بالوقت ذاته كانت تشعر بالقلق حيال كلّ من يتودد إليها من الشبّان، فكل منهم لا يتردد في طلب المساعدة بعد فترة من تعارفهما، فتشعر أنه لا يطلب الحبّ وإنما يريد أن تساعده وتنفق عليه! الجميع يتودد لكن تودده هو كان يمنحها إحساساً بأمان ما، قد يكون الأمر مجرد رجل يريد علاقة حب عابرة مع امرأة أعجبه شكلها ولا يعرف عنها شيئاً أصلا، إلا أن صوتاً بداخلها أخبرها أن الأمر هذه المرّة مختلفٌ! لم تستطع أن تكتم اطمئناناً لأمر يعنيها كثيراً، هو أن رجلاً مثل أبي هاني لن يهتم كثيراً لأمر اختطاف أمّها في عدرا. كانت شبه أكيدة أنه تجاوز مثل هذه الأمور.

لا تدري لماذا أحست بالسخف كيف تعقد الآمال على شخص من المرّة الأولى؟! اضطربت بداخلها الأفكار وأحست بدوار. والتساؤلات ما زالت تدقّ رأسها. "حسناً ماذا لو كان الأمل الذي أعقده حقيقيًّا، وماذا لو كان أبو هاني قد أُعجب بي وسحره جمالي فعلاً من المرة الأولى، وماذا لو أتى وصارحني بانشداده لي ورغبته بالارتباط بي؟ وماذا لو كان هشام المصري هو هشام رفيق زينة؟! كيف سأقول لأم هشام تعالي وباركي لي حبي وارتباطي بهشام؟!" شعرت بحقدها على الأقدار التي تقتل في كلّ مرة بذرة الأمل! أرجعت رأسها إلى الخلف على كرسيها الهزاز، كانت الأصوات بالخارج لا ترحم المسامع وفي داخلها صوت أفكارها يصمّ أذنيها. في الخارج حرب ملعونة يحاول الجميع معرفة أسبابها وبداخلها لا ملعون إلا الحبّ.

t.me/yasmeenbook

ما الحب أصلاً؟ ضعفٌ إنسانيٌ يجمع اثنين يسميه الناس الحبّ، وحين يقوى أحدهما يهجر الحبَّ والمحبوب، ويذهب ربما إلى ضعفٍ آخر فيسمي الناس هذا فراقاً خيانة. وهكذا يتبادل الناس بعضهم بعضاً في تبادل قوةٍ وضعفٍ، فهذا قويٌّ وقاسٍ هنا، وهناك هو ضعيفٌ ومهجور، وهكذا إلى أن ينتهي الشغف الكلي الكوني وتبيد الأرواح. أغمضت عينيها محاولةَ التحرر من كلّ الوجوه التي داهمتها وكل الهواجس التي اجتاحتها.

t.me/yasmeenbook

لا تنفصل حرية المرأة عن حرية الوطن...

نوال السعداوي

t.me/yasmeenbook

أم ماهر

حمص، خريف 2017

لم تكن أم ماهر أمّا عاديةً أو سيّدة تقليدية كسيدات جيلها كي لا تنتبه إلى المزاج **المضطرب لابنتها غير المهتمة بالتحضيرات لزواج أخيها كما تفعل عادةً الفتيات فقد** أخبرها حدسها أن وحيدتها سماح ليست على ما يرام. عادة تكون الفتاة غير المبتهجة لزواج أخيها كارهة للعروس القادمة إلى عائلتهم، أو عانس تغار من علاقة تخرج إلى النور يباركها الجميع وهي التي ستبقى وحيدةً إلى أجل غير مسمّى، أو تكون مثلاً معتمدةً اقتصادياً بشكل كليّ على أخيها، العريس الجديد، الذي ستصب سواقيه في بحر جديد من الآن فصاعداً، أما بالنسبة لسماح فلم يكن أي من هذه الاحتمالات وارداً، حاولت والدتها أن تردّ سبب استيائها إلى أن سماح كانت تتمنى أن يتزوج أخوها بسلاف. لكن رغم ذلك لم يقنعها هذا التفسير فظلّت قلقة.

سببٌ آخر زاد من قلق أم ماهر واضطرابها، كان الألم الذي تتوقع أن تسببه، مضطرةً، لأهل أحمد الشهيد حين تخبرهم بضرورة تحديد موعد زفاف ماهر وسهر إذ كان لابد من زيارة لهم قبل أي إجراء، فأحمد الصغير، هو حفيدهم الذي لن يتمكنوا من تربيته والعناية به، فأم أحمد الأرملة مسنّة، وابنتهم تزوجت وانتقلت مع زوجها إلى طرطوس المدينة الآمنة خلال سنوات الحرب. سهر أم حفيدهم وعند نيّة ارتباطها برجلٍ آخر يربي ابنهم، لا يمكن أن يتم ذلك دون ما يشبه الإذن أو السماح من أهل أحمد، لم يكن الأمر مراعاةً للعادات والتقاليد فقط

t.me/yasmeenbook

بقدر ما كان مراعاةً لمشاعر أهل الشهيد واحتراماً للعلاقة الطويلة الطيّبة التي تربط العائلات الثلاث، وفوق ذلك كله احتراما لدم أحمد. لكن رغم ذلك ورغم أن أم ماهر هي صاحبة اقتراح هذا الزواج، إلا أنّها لم تكن مرتاحة إذ شعرت وكأنها آتية لتذكر الأهل بفقيدهم وتنكأ الجراح، لم يكن هذا سهلاً على أم ماهر لكنها حاولت إقناع نفسها أن عائلة أحمد قد تسعد أن حفيدهم وأمه سيكونان بأمان مع رجل يهتم بهما ويصون مكانتهما بين الناس.

لم يأتِ أبو ماهر ليس فقط لصعوبة حركته على الكرسي المتحرك وإنما لأنّه لم يكن مقتنعاً بما يحدث، لكنّه في الوقت نفسه لم يعارض. أما سماح ففي البداية رفضت مرافقة والدتها إلى بيت أبي أحمد، لكن بعد الإصرار فعلت ذلك كالعادة. في الطريق كانت سماح صامتةً طيلة الوقت، كانت أم ماهر تتحدث عن أي شيء تراه في الطريق فقط لتكسر الصمت الذي صنعه مزاج سماح الجديد الغريب، كانت الأمّ تختلق الأسئلة حول أي شيء، مهماً كان أو غير مهم، فتجيبها سماح باقتضاب واستياء دون أن تنظر حتى إلى والدتها، بدأت أم ماهر تستشعر التغير الذي طرأ على ابنتها، في السابق حين كانت تجبرها على فعل شيءٍ ما، كانت سماح تفعله برحابة صدر مبتسمةً حتى لو لم يكن موافقاً لرغبتها وإرادتها، كان يكفي أن تقول أم ماهر: "أنا أعلم الصواب من الخطأ أكثر منك يا ابنتي" أو "أنا أعرف مصلحتك أكثر منك"، كان يكفي ذلك لتصمت سماح وتقتنع فعلاً، أما الآن فكانت أم ماهر ترى أن سماح التي أمامها اليوم مختلفةٌ عن سماح الصغيرة، وهذا لم يكن غير متوقع بالنسبة لأم فطنة مثلها. كانت تعلم أن تجربة ابنتها الجديدة ستثمر الجديد، ولم تكن أم ماهر غافلةً عمّا تراه اليوم.

"يعلم الله أنني أتمنى أن أزوّجها في أقرب فرصة، قبل أن يدقّ الحب

t.me/yasmeenbook

بابها فتدق عنقي وعنق أبيك المسكين". هذا ما قالته ذات يوم لابنها ماهر، كان هذا قبل سنة، حين أرادت سماح قضاء عطلة عيد الفطر في دمشق مع صديقاتها. يومها أحسّت أم ماهر للمرة الأولى أن صغيرتها بدأت تستقل وتنفصل وتكوّن أجواءها الخاصة، ولم تعد تبالي بالأجواء العائلية التي كانت تحبّها، ولم تعدّ الحلوى التي تصنعها أمها هي أفضل ما في الأعياد، ولم يعد طموحها هو أن تسمح لها أمها بالذهاب إلى بيت الجيران لتقضيَ مع البنات بعض الوقت الممتع.

ثمة عوالم جديدة وأناس جدد في العالم المليء بالجديد الزاخر بالسحر. لم تكن تلك المرة الأولى التي تفضّل فيها سماح قضاء العطلة بعيداً عن أهلها، لا تنكر أم ماهر أن شعوراً غريباً أصابها حينها، أخذت تكابر على صدمتها وأمسكت بالهاتف لتكلّم سماح، تمنّت لها عطلةً سعيدةً، ولم تخلُ مكالمتها وتمنياتها من بعض التحذيرات والتنبيهات والتوصيات، لم يتسبب هذا الاتصال بامتعاض سماح فحسب بل في دموع أم ماهر التي كان أحدهم يراقبها:

"هذا ما جنيته على نفسك يا يسرا! والقادم أعظم! قلت لكِ أنّ سماح صغيرة والعاصمة كبيرة وأهل العاصمة لا يشبهوننا، كان من الأفضل أن تبقى في حضننا هنا مدة أطول! لكنك عنيدة لا تسمعين سوى صوتك" قال أبو ماهر هذا ولم ينتظر ردّ زوجته، أدار كرسيه المتحرك واتجه إلى غرفته. لحقت به أم ماهر:

"ألا يكفني خوفي وقلقي عليها؟! كان كلّ همي أن تتلقى تعليماً جيداً، هيا زدْ قلبي همّاً!" قالت أم ماهر باستياءٍ وحزن.

"ولمَ كلّ هذا؟ ومتى كنتِ تقيمين وزناً لكلامي أصلاً؟! أنا لم أتحدث إلا عن سوء تقديرك لوضع سماح! لو كان سلام هنا لما سمح لما حدث أن يحدث!" ردّ أبو ماهر...

t.me/yasmeenbook

مالذي تقصده؟" قالت بترقّب...

ستعلمين قصدي حين تقطفين ثمار خطأكِ إزاء ماهر! حينها ستكون دموعك الخفية أكثر غزارةً!" قال ببرود وعبثية ويأس...

"خطأي إزاء ماهر؟ خطأي أنني أريد له زيجةً لا تجلب له ثرثرة الناس؟؟ أخطأت أنني لا أريد له أن يتزوج ابنة المخطوفة؟!" قالت بعصبية وقد ارتفع صوتها وارتجف.

"ابنة المخطوفة؟ أم ابنة امرأة كل ذنبها أنني خطبتها في الماضي؟!! ولم يتم النصيب وذهب كلٌّ في طريقه، وانتهى الأمر، لكنّ بالنسبة لكِ لم ينته هذا الأمر! وما من أمر ينتهي في رأسك! إلى متى؟ تظنين أنني موضع شفقتك لأنني مرميّ ومقعدٌ على هذا الكرسي اللعين وأنت من يقرر ويأمر وينهي؟!" قال ذلك ضارباً ذراع الكرسيّ بيده بقوّة ارتعدت لها أم ماهر.

"أنتِ من يستحق الشفقة، امرأة شقيّة تهوى تعذيب نفسها والآخرين من حولها! اعترفي ولو لمرة واحدة أنّك مخطئةٌ، قولي إنّك أسأتِ التقدير! قولي إنّك تسلبين حق من حولك بالحياة والقرار والحبّ والاختيار! هل تريدين حياتك وحيوات الجميع من حولك! قولي! اعترفي إنّك أنانية، تراجعي قبل أن ينفض الجميع من حولك!".

تغيرت ملامح أم ماهر وتبدّلت من الحزن إلى الامتعاض الشديد، ثم أصبحت أشدّ عدائيّة وأكثر قسوة وقبل أن تبدأ بالصراخ والغضب قاطعها :

"علمتني الحياة يا زوجتي العزيزة أن أنبل الاحتشام هو التعرّي أمام النفس، وأسمى الصدق هو الصدق مع الذات، وهذا ما لا تتقنيه أنتِ للأسف، ولن تفعلي، من شبَّ على شيء شابَ عليه!".

t.me/yasmeenbook

انهال كلام أبي ماهر على رأسها كالمطرقة حتى أنها تسمّرت في مكانها غير قادرة على الرد. كانت تعلم أنها على أعتاب مرحلة جديدة، لم تكن غافلةً عن طبيعة رجل شرقي غير قادر على ممارسة دور البطولة، ويجرحه جداً كثيراً ألا يكون المتحكم بقرارات، يفترض أن يكون هو صانعها وراسمها، لا امرأة. كانت تعلم أن لحظة ما ستأتي لينفجر كل ما كان كامناً. وكانت تعلم أيضا أنه مهما كان تصرفها حكيماً وتقديرها للأمور جيداً، فإنّ الرجلَ قادرٌ على إيجاد ثغرة ما يدخل منها معترضاً ورافضاً، وسيجد لها هفوةً بل هفوات، يكفي أن تكوني امرأة كي تكون تهمتك جاهزةً، كي يصب عليكِ اللوم المستمر. "نحن النساء السبب الأساس في مشكلة الشرق الأوسط وقضية فلسطين وأحداث الربيع العربي"، قالت مرة ممازحةً جارتها في حديث عن الرجال الشرقيين.

لم يسبق أن تجرأ أحد على انتقادها، حتى زوجها الذي سلبته الحياة القوة والقدرة التي يتمتع بها الرجال في بيوتهم فتكون كلماتهم صارمة، اعتاد أن يظل صامتاً. لكنّه ضاق ذرعاً بالسنوات التي تمر وهو على كرسيّ متحرك. فكان غضبه يعبّر في جزءٍ كبيرٍ منه عن سخطه واحتجاجه على قدَرٍ أقعده على كرسي، ينتظر أن يخدمه أفراد أسرته، أكثر مما كان يشير إلى اعتراضه على سوء تقدير أم ماهر فيما يتعلق بأولادها، لا سيَّما أنها وضعت مصلحتهم، من وجهة نظرها، في المقام الأعلى. لكن هذا لا يعني أن كلمات زوجها كانت بلا تأثيرٍ، بل كانت أشبه بمرآة ضخمةٍ جداً وصافية جداً، رفعها أبو ماهر فجأةً ووضعها أمامها دون سابق إنذار ليجعلها ترى عريّها وعلى حقيقته كاملاً، دون أيّ غطاء، ودون أيّ تجميل أو تزييف، وهذا مالم تتوقعه ومالم تحتمله أيضاً، لم تكن قادرةً على مواجهة الماضي ومواجهة ذاتها، بدأت تتساءل شاكّة في نفسها: أحقاً هي أمّ أنانية إلى

t.me/yasmeenbook

هذا الحد؟، هل استسهلت أن تهدر قلب ابنها وتضحي بحبّه وتضرب بمشاعره ومشاعر حبيبته عرض الحائط فقط من أجل أمرٍ أكل عليه الدهر وشرب!، هلِ حقا لم تنتبه أنها فضَّلت شعورها على قلب ابنها وحبّ حياته متذرعةً بنظرة المجتمع! هل كانت تكذب على ماهر حين أقنعته أن زواجه بسهر أفضل للطرفين، وأن زواجه بسلاف سيجرّ عليه مشكلات اجتماعية هو بغنى عنها؟!ومتى كانت تهتم أصلاً لرأي الناس وثرثرتهم وهي المرأة القوية التي لا يهتز لها جفن! ألم تكن قادرة على مواجهة مجتمع بأكمله لو خطبت سلاف لماهر؟! ؟ ألم ترسل سماح إلى دمشق للدراسة غير آبهة بكلام الناس ولا حتى برأي زوجها الذي لم يكن راضياً عن بعد سماح عن الأسرة؟ وهاهو يحمِّلها مسؤولية ما حدث وما سيحدث!.

حتى لو أنكرت التهم التي كالها لها زوجها، لكنها لم تستطعْ أن تنكر الكره والغيرة اللذين تكنهما لعائلة سلاف. فمنذ أن علمت أن أم جميل والدة سلاف كانت خطيبة زوجها ذات يوم، وهي لا يهنأ لها بال كلما ذكرت أمامها هذي المرأة، ولا سيَّما أن أبا ماهر كان يمتدحها كثيراً، قد يكون ذلك بلا قصد، لكن أم ماهر كانت ترى أنّه يتعمّد إغاظة زوجته وإثارة غيرتها بسلاح وحيد لا يملك ربما غيره، والمهم أن أم ماهر وجدت في حادثة خطف تلك السيدة المبرر القوي لرفض زواج ماهر بابنتها سلاف!.

كلام أبي ماهر الذي تذكّرته وهي في الطريق مع سماح إلى بيت أهل أحمد، وصمت سماح وحزن ماهر منذ قررت أن تخطب له سهر، كلّ ذلك منحها شعوراً بخسارة ورسم لعديد من التساؤلات في رأسها. هل كانت هي سبب تغير سماح؟ هل أخطأت فعلاً أنّها وضعتها في جو أكبر منها؟ هل كان ينبغي أن تترك سماح منتظرةً في البيت بلا تعليم إلى أن

t.me/yasmeenbook

يهدأ الوضع الأمني؟!، أليس الحريّ بهم أن يشكروها على ما فعلته لأجلهم؟! هل قراراتها خاطئة إلى هذا الحد؟!.

"ما بك يا سماح لماذا أنت صامتة؟ لا يجوز أن ندخل بيت الجماعة وأنت بهذه الحال! هيا قولي ما الذي يغضبك؟!" سألتها حين وصولهما، لكن صمت سماح لم ينكسرْ.

كانت سهر تتصدر صالة بيت أبي أحمد، تحمل الصغير بينما تلبسه جدته أم أحمد قميصاً أبيضَ مطرَّزاً بخيوط زرقاء: " كان هذا القميص الوحيد المتبقي مما خبأتُ من ملابس الأولاد، آهٍ كم يليق بك يا صغيري! آه كم تشبه أباك!" قالت أم أحمد وبدأت النحيب.

هذا ما كانت أم ماهر تحسب حسابه، إنّه الحزن المتجدّد في هذي اللحظات، لم تكترث سهر كثيراً لدموع أم أحمد، أو ربما كانت مشغولةً بالصغير الذي بدأ النعاس يداعب جفنيه فراح يتململ في حضن أمّه، شعرت أم ماهر أن سهر غير مهتمة بقدومها، أو ربما بعد كلام أبي ماهر واستياء سماح وصمتها في الطريق، صارت أم ماهر تشعر أن الجميعَ مستاء منها وكأنّها فقدت ثقتها بقوّة حضورها وتولّد بداخلها شعورٌ بمعاداة الجميع لها. راحت تتأمل أم أحمد المكروبة المحزونة، بعينيها المحمرتين من كثرة البكاء، بملامح الحسرة والخسارة التي تحملها قسمات وجهها، أخذت تتأمل في شفتيها المرتجفتين اللتين تحاولان الكلام وبالوقت ذاته مقاومة البكاء: " والله لا زلت غير مصدقة أنّه رحل! لا زلت أشعر أنّه آتٍ في إجازة الأسبوع المقبل أو بعده! كلما سمعت طرقا على الباب، أسارع وأفتح وكأنني على موعد معه! لا زلت أدخل غرفته وأرتب ملابسه! " قالت أم أحمد بحرقةٍ خافضةً رأسها بينما تحاول يداها الانشغال بمنديلٍ اتكأ على حضنها.

t.me/yasmeenbook

كانت أم أحمد تبدو أكبر من عمرها بكثير، وكأن رحيل أحمد كـان قطاراً سريعاً مشى بها سنوات إلى الأمام وقطع مسافات بعيـدة، رغـم حزنها الشديد لأجل أم أحمد ورغم غيـاب سـلام سـنوات، إلا أنّ أم ماهر لم تستطع أن تنكر في قرارة نفسها شعورا بالرضى أنها ليست هي الثكلى.

حبّها الشديد وتعلقها الكـبير بأولادهـا، جعلـها غـير قـادرة علـى التخيل أنها يمكن أن تفقد أحدهم، فمجـرد الـتفكير بـأمر كهـذا كـان كفيلاً بأن يصل بها حد الانهيـار أو المـرض. كانـت متعلقـة بأولادهـا ومستعدة أن تبذل لهم ما استطاعت كي يبقوا سعداء، لكن كمـا تـرى هي السعادة، وسعادة أولادها بنظرهـا تتحقـق حـين يـأتمرون بأمرهـا ويطوفون حولها، هي الأم المتسلطة الحنون المستحوذة.

بكت أم أحمد كثيراً إلى الحد الذي لم يسـمح أبـداً بالحـديث عـن موعد الزفاف، يبدو أن جرح الأم بفقد ولدها لا شافي له، يظلّ طريّـاً لا يندمل ويأخذ في الاتساع كلما لاحت ذكرى منه. ولأن سهر كانـت غير متفاعلة مع حزن أم أحمد، وسماح كانت ملتزمةً الصـمت مطرقـةً نظرها في الأرض، شعرت أم ماهر أنهـا يجـب أن تكـون شـريكة لأم أحمد في حزنها. كلمات المواساة لم تكـن كافيـةً، حـتى أن أم أحمـد كانت تبدو وكأنها لا تسمع مواساة أحد، تتمايل يمنـة ويسـرة وتبكـي وتتحدث عن أحمد رحمـه الله. فكـان لا بـد مـن البكـاء، حاولـت أم مـاهر أن تسـتدعي دموعهـا لكـن عبثـاً، دخلـت إحـدى الجـارات الثرثارات وسلمت على الجميع، سألت أم ماهر فيما إذا كانت هنالـك أخبار جديدة حول سلام، تمنت أم ماهر أن يجرّ سؤال الجارة دموعها لكنها وجدت نفسها تشكر القدر أنه ما زال على قيـد الحيـاة طالمـا أن خبراً آخر لم يصلهم!.

t.me/yasmeenbook

بدأت النساء بالتوافد إلى بيت أبي أحمد يبكين ويواسين، وأم ماهر تتأمل في بكائهنّ. كن ينتحبنَ وكأنهنَّ يسترجعنَ أحزاناً سالفة، أو ربما يستشرفنَ حزنَ غدٍ محتملٍ، يبدو أن الإنسان بارعٌ في اجترار آلامه السابقة، وماهرٌ في تخيّل آلام قادمة، وحين يفعل ذلك، تصعب عليه ذاته المكلومة فينتحب، فيظن آخرون منكوبون أنّه يبكي أحزانهم بينما هو غارقٌ في ذكرى أليمة أو حزنٍ صنعيٍ قصديّ ربما. لم تكن أيةُ امرأة من المنتحبات أكثر حزناً وهمًّا من أم ماهر ولم تكن أم ماهر بحاجة لاستحضار أحزان لأنها كانت مثقلة بالخيبة واليأس، سلام الذي لا تعرف عنه شيئاً حتى اللحظة والذي تتجاذبها حوله الهواجس في النهار والكوابيس في الليل، ماهر الذي يعايش الموت كلّ لحظة، سماح التي يرى أبوها أنها في ورطة سببها أمّها وقراراتها الخاطئة ليس حيال سماح فقط بل حيال خطبة ماهر أيضاً، هي التي لطالما كانت تعتقد أنّها قدّمت كل ما بوسعها لأسرتها صارت المقصّرة المذنبة، انتابها شعور بالغبن الشديد، والوحدة والظلم، تذكرت والدها المرحوم، وزواجها المبكر الذي كان سببه فقط أن هناك عريساً لقطة، تذكرت الحادث الذي تعرض له زوجها وتسبب له بالشلل وها هي تقضي السنوات الأخيرة في خدمته، استحضرت ملامح مراد زوجها حين اتهمها بالأنانية! كانت تتساءل ما هو الخطأ الذي ارتكبته بحقّ أسرتها حتى تتهم بهذه القسوة. ثم تذكرت مباشرة ماقالته لها والدتها مرة حين هرولت إليها باكيةً كانت في السادسة عشرة:

"ماما..ماما، أخي صفعني، والله يا ماما لم أرتكب أي خطأ، كنت في الشرفة وابن جيراننا بالصدفة خرج إلى شرفتهم".

"اااخ يا أمي ليس بالضرورة أن تفعلي أي شيء، يكفي أنّك بنت، فأنت مخطئة سلفاً، مخطئة منذ ولدتِ، تعالي إليّ حبيبتي!".

t.me/yasmeenbook

ضمّتها بين ذراعيها، وهدأتْ من روعها وأخبرتها أنّ هذا الاتهام ليس الأول ولن يكون الأخير. وأنها إن كانت اليوم تواجه قسوة أخيها، فغداً ستواجه قسوة الزوج، وبعد غد قسوة المجتمع بأكمله رجالاً ونساء. يسرا الفتاة البريئة حينها، التي كانت تعقد الآمال على الغد الجميل، تعقد الآن حاجبيها، حصاد الخيبة، نظرت أمّها في وجهها: "حبيبتي يسرا! لم أقل لك ذلك كي تحزني، بل لتعلمي أنّ أمامك الكثير من التحديات، وأريدك أن تكوني أخت الرجال".

صحيح أن يسرا يومها لم تفهم لماذا قالت أمها: "أخت الرجال" ولماذا لا يكفي أن تكون فتاة قوية؟ لكنّها أقنعت نفسها أنّه لفظ يستخدمه الجميع لوصف امرأة قوية، وورثت عن أمّها هذا اللفظ لتطلب من ابنتها سماح أن تكون كذلك "أخت الرجال". لم يمرّ يومها الأمر دون أن توبّخ أمّها الأخ الأكبر الذي كان يمارس سلطة الأب المتوفى على أخته.

تذكرت كل ذلك وهي أمام أم أحمد. إنّ أكثر ما آلمها أن تكون سبباً في حزن أولادها كما قال مراد، اختنقت بالحسرة والألم، ومازالت غير قادرة على البكاء لتواسي أم أحمد.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

حين يتكلّم القلب، لا يكون لائقاً أن يصدر العقل اعتراضات...

ميلان كونديرا

t.me/yasmeenbook

سماح

حمص، شتاء 2018

أهلها باتوا يعلمون أن هناك مدرّساً متميزاً مثقفاً عصامياً شدّ انتباه ابنتهم التي لا تتوقف تقريباً عن الحديث عنه وعن نجاحاته وأبحاثه، "عظيم، لابد أن زوجته متعاونة جداً وأن أطفاله لا يعرقلون عمله!" لغاية في نفسها، قالت والدتها ذلك في إحدى المساءات حين اجتمعوا على العشاء وانطلق لسان سماح عن يومياتها في الجامعة.

" لا يا ماما، إنّه غير متزوج، أصلاً يعدّ الزواج أمراً سخيفاً! ويفضل التفرّغ للعمل العلمي" حين قالت ذلك رأت أمّها بريقاً في عينيها اللتين ارتبكتا فاستقرتا على قطعة الخبز تهرّباً. "اه، حسناً متفرّغ للعمل العلمي، هذا جيّد، جيّد جداً، برافو!" قالت أم ماهر متوجهة بعينيها إلى ماهر ونظرتها تقول الكثير. التزم أبو ماهر الصمت لكن الامتعاض بدا على وجهه تماماً كما كان لومه ليسرا بادياً.

"ماهر لا تغيِّر هذه المحطة! ستبدأ الآن ندوة هامة عن الصراع الديني العلماني في الشرق" قالت سماح في إحدى السهرات.

"الله الله يا سماح، منذ متى تتابعين هكذا حوارات؟! صرتِ مثقفةً مرعبةً، ومن الطراز الثقيل!" قال ماهر ممازحاً.

"الحبُّ يصنع المعجزات!" همست أم ماهر لابنها، وغمزت، ففهم قصدها.

t.me/yasmeenbook

كانت أم ماهر اليوم أشبه بمن استلقى ليلا بهدوء، وفجأة شعر بوخزةٍ في صدره، فقرر ألا يطلع الصباح إلا ويسارع إلى اجراء ما يلزم كي يقطعٍ الشكّ باليقين ويتلقى العلاج المناسب. فهي ليست الأمّ التي يمر ضوءٌ أحمر أمام عينيها فتتجاهله، وليست ممن يسمع صفير الغارة دون أن يسرع إلى الملجأ ليحمي نفسه. علمتْ أم ماهر أن قلب ابنتها ليس في صدرها الآن، وليس ملكها، وأنّه ينبض في صدر رجل، وأنّ ابنتها منوّمةٌ مغناطيسياً بفعل الحبّ. بعد العشاء، نهضت سماح عن كرسيِّها ودخلت غرفتها للمرة الأولى دون أن تساعد أمها في لمّ الصحون وتنظيفها، وكأنّها هنا وليست هنا. أصاب أم ماهر بعض القلق ليس لأنّ وقوع ابنتها في الحب أمراً غير متوقع، بل لأنها تتحمل المسؤولية الكاملة عن كل ما يحدث لسماح وعن أيّ خطأ ترتكبه، وأي خطر تتعرض له بعيداً عنهم في دمشق. افتقدت سلام القريب من روح سماح جداً، والذي كان وجوده سيخفف عنها الكثير، ويزيل قلقها.

لم يكن رجلاً ساحراً ولا بطل زمانه ولا فريد عصره، لكنها كانت ترى فيه كلّ ذلك وأكثر. الحرية والاستقلالية والانفتاح والشخصية الحازمة والرأي السديد والحضور الواثق، والحديث الفصيح الطلق، أمورٌ لم يسبق لسماح أن صادفتها مجتمعةً في شخصٍ واحد. فكيف إن كان هذا الشخص معيداً في الجامعة يزيدها عشر سنوات، وعشرات الكتب والدراسات والمقالات؟! وليد، ابن العاصمة، المتحضر، الذي تأخر في دراسته لظروف تتعلق، كما أخبرها، بوفاة والده ونزوله إلى العمل مضطراً بعد أن فقدت أسرته معيلها الوحيد، فوق ذلك يعدّ رسالة الدكتوراه في علم الاجتماع تحت عنوان /أثر الحرب في قضية المرأة/ ؟ احترامه اللافت للأنثى ودعوته إلى تحطيم

t.me/yasmeenbook

قيودها وتمكين المرأة في المجتمع كل ذلك كان من شأنه أن يزيد من انبهار سماح به. كان يمثّل بالنسبة لها كل ما لم تَرَهُ بالأمس، وكل ما تحلم به في الغد. إنّها تراه فريداً وجديداً متجدداً. والجديد أحيانا يكون ساحراً حتى الخطر، أخّاذاً حتى الضياع.

مأخوذةٌ أو مخطوفةٌ حين يحضر، مسحورةٌ به تماما، تمشي إلى جانبه تراها سعيدة كفراشة متراقصة وتنظر إليه أكثر مما تنظر إلى الطريق أمامها وكأنها لا ترى سواه، وحين يجلسان معا، كان وليد يفتتح مواضيع اجتماعية وفكرية وفلسفية، فكانت تلتزم الصمت مكتفيةً بهزّ برأسها موافقةً على كلّ ما يقول، لا تتفوّه بكلمة حتى ينهي حديثه، حتى أنفاسها تكون شبه مكتومة. لا تتكلم إلا إذا سألها، وحين تبدأ بالكلام، يأتي صوتها منخفضاً مرتبكاً متردداً بعد نحنحةٍ لمرات عديدة.

"سماح ما رأيك بالحبّ، أنا أعتقد أنه أجمل ما في الحياة، بل هو الحياة ذاتها هو السعادة، هو كل شيء ونحن بدونه لا شيء!".

"نعم يا وليد صحيح الحبّ كل شيء وبدون الحب لا قيمة لوجودنا". قالت سماح بخجل.

"حسناً وما رأيك إن قلت لك أن الحبَّ هو الشقاء بعينه، وهو أقسى ما يواجهنا من أقدار. الحبّ يجعلنا أشقياء". صمتت سماح وفي عينيها ارتباكٌ بيّنٌ.

أمام سماح، كان وليد ينوس بين شخصيتين؛ الرجل الشرقي التقليدي، الذي يسعده انبهار أنثى به إلى حد التقمّص، على المقلب الآخر، كان المثقف المتعلم الذي لا يستطيع أن يحيا ازدواجية بين أفكاره وحياته في الواقع. فلم يكن يروقه ميلها إلى الصمت وإلى

المصادقة على كل ما يقول، لذلك كان دائماً يستحثها على الكلام والنقاش بطرق مختلفة تراوحت بين التشجيع والتحفيز والاستفزاز والتأنيب والتوبيخ، ولم تخل أحياناً من بعض السخرية التي كانت تنزعج منها سماح. لكنّ الأساليب جميعها أثمرت، فبعد أقل من سنة من تعارفهما، صارت سماح تزور معارض الكتب أكثر مما تزور صديقاتها، وأصبحت المكتبة المكان الأمثل لأوقاتها، وتفوّقت المراكز الثقافية على المقاهي. الكتاب صار بفضل وليد صديقها الودود وصارت ثقتها، حين تتحدث، أكبر.

ما هديتك في عيد الحب؟" سألتها سلاف مرةً.

كتاب العقد الاجتماعي لـ/جان جاك روسو/" ردّت سماح بفرح.

"يا حسرتي عليك يا سماح، كتب في عيد الحبّ! هذا ذنب من تعشق مثقفاً" قالت سلاف بسخريتها المحببة التي اعتادت عليها سماح.

"حسناً ذنبي على جنبي" ضحكت سماح...

ليست سلاف فقط بل أصدقاؤها وصديقاتها لاحظوا جميعاً التغير الذي طرأ على سماح، أصبحت تعتذر كثيراً عن مرافقتهم إلى الأماكن التي اعتادوا قضاء أوقات طويلة فيها بعد الجامعة. كما لاحظوا أنّها دائمة الشرود وقليلة التركيز، انبهارها بوليد والدفاع عنه وعن أفكاره صار بيّناً:

"على رسلك! فرامل فرامل! لماذا تتحدثين عنه بكل هذه القداسة؟! هو إنسان يا سماح إنسااان، عادي مثلنا، يأكل ويشرب ويمشي وينفعل ويغضب ويضحك ويذهب إلى الحمام لقضاء حاجة، يبرد في الشتاء، ويتعرّق في الصيف، فيتعرى ويستحم، ما بك تؤلهينه؟! " قال أحد الأصدقاء باستياء.

t.me/yasmeenbook

"وتتحدثون عن غيرة النساء! انظر إلى نفسك كم تغار منه! كلكم تغارون منه، اعترفوا أنه الأفضل وأنكم تغارون!" قالت سماح بثقة.

لم تكن سماح مستعدةً للتهاون مع أي رأي ضد وليد، الصورة التي لديها عن وليد تريدها أن تبقى نقيّة، بالإضافة إلى أنّها كانت مقتنعةً أن صديقها هذا يريد تشويه صورة وليد بغيةَ الظفر بقلبها الذي لم يعد ملكا لها الآن.

"تباً لهذه الحرب الأسطورية الخرافية، لم تبقَ دولةً في العالم ولم ترسل جهادييها إلينا، لم يبقَ سياسي محلي أو إقليمي أو عالمي إلا وصرّح ضدنا، لم تبقَ قوة لم تحارب ضدنا، لا ينقصنا سوى سكان المريخ! ألم يرسلوا قواتهم إلى سوريا بعد؟!"...قال أحد الأصدقاء.

في إحدى مقاهي دمشق القديمة، اجتمع وليد وسماح مع الأصحاب بعد مرور سنة ونصف تقريبا على تعارفهما، وراحوا يناقشون المستجدات غير آبهين بقذائف الهاون التي تهطل بالخارج كالمطر.

"لا أسطورية ولا خرافية، على العكس هي واقعية جدا. أكبر قوة في العالم غير قادرة على فعل شيء لو لم نكن نحن متفسخين من الداخل، كذبنا على أنفسنا عقوداً طويلة، ظننّا أننا موحدون منسجمون ومتآلفون، وفي الحقيقة نحن لا نحيا سوى التشرذم المخبوء والصراع الخامد الذي يتحيّن الفرصة فقط كي ينفجر ويدمر كل شيء أمامه!" قالت سماح بلهجة واثقة دون تلعثم أو ارتباك.

"أنا شخصياً لا يهمني الموت ولا الدمار، حقاً لا أخاف الموت، لا أخاف دمار البناء والحي والشارع والمدارس، رغم بشاعة ذلك لكنه قابل لإعادة البناء، لكني أخاف على عقولنا، أخشى على هذا الذي تعبنا عليه، والله تعبنا كثيراً حتى شكلناه وطورناه!" قال وليد ساخراً بألم ممسكاً رأسه بكفيه.

t.me/yasmeenbook

"أما أنا فأكثر ما يخيفني هو الفساد، لولا الفساد لما وصلت بنا الأمور إلى هنا! جرّب أن تنزل إلى أية دائرة حكومية الآن لتجري أية معاملة، ستصاب بالغثيان، وستخرج وأنت تخطط للهجرة فورا"، ردت سماح وهي تحتسي رشفةً من فنجانها.

"اصمت أنت وهو وهي، نحن في حالة حرب سنوات دامية أكلت الأخضر واليابس، ورغم ذلك لم تنقطع رواتب موظفي الدولة شهراً واحداً، احمدوا الله واصمتوا وصلُّوا أن تنتهي الأمور بخير" قال ثالث

"ما الذي تقوله؟! ما رأيك أن تترك الدولة مواطنيها المساكين دون رواتب؟ ألا يكفي ذاك الارتفاع الجنوني للأسعار؟ نحنُ متسولون حقيقيون، ألا تدرك ذلك؟! أنت بحاجة لقرض لتبتاع حذاءً أو معطفاً يا رجل؟ وتقول لي احمدوا الله؟ على ماذا سأحمده؟" قال رابع

استمر الحديث بين اختلاف الآراء، بعضهم كان الوطن عنده أولوية، آخرون أصابهم اليأس، علتْ الأصوات واحتدم النقاش وفي مثل هكذا حالات، لن يخلو الحديث من اتهامات لا أساس لها غالباً ولا مسبب إلا القهر واليأس، ينتهي الحديث بصراعات بعضها يكون قابلاً للحل في اليوم التالي، بعضها الآخر قد يدوم أكثر، تغذيه أفكار وظروف وتجارب وآلام.

خرج الأصدقاء من المقهى مع حلول العصر، ورغم برودة الشتاء، استغل الجميع هدوءَ أصوات القذائف للمشي في أزقة دمشق القديمة الساحرة ولو لوقت، البعض مشى دونما وداع وهو يلقي بالسباب والشتائم، تفرقت المجموعة وظلّ وليد وسماح يتمشيان. كانت سماح تعشق دمشق القديمة بحاراتها المرصوفة التي لا تدخل إليها السيارات، وجدرانها الحجرية التي يفوح منها عطر الماضي الجميل، الجدران التي تخبِر الحكايا عن أيادٍ تعبت وكدت وصنعت

t.me/yasmeenbook

إرث حضارة لا تزول، الشرفات التي حملت مساكب الزهور كما تحمل الأم طفلها بعناية، صغيرةٌ مساحتها لكنّها تنضح بالاحتواء والدفء. راحت تتأمل الأحجار والأبواب القديمة وواجهات البيوت وانحناءات الأزقّة وتراصف الجدران. نوافذ تخاصر الماضي وتتكئ على الحاضر لتبوح بأسرارها، كانت سماح تشعر أنها قادرةٌ على التقاط روائح البيوت عبر نوافذها، بل قادرة على رؤية تشكلات الزمن على وجوه أصحابها. أمام ساحة الجامع الأموي الرخامية الواسعة العريضة، كان يحلو لسماح التأمل، ساحةٌ فيها شيء من إعجاز غريب، ففي الصيف والضجيج، تشعر وكأنها مبعث للبرودة والهدوء، وفي وحشة الشتاء وبرده القارس، تمشي بها فيتسلل الدفء من قدميك إلى رأسك، ويلفك لفاً مؤنساً الروح في سكنى لا مثيل لها إلا هي.

غرقت سماح في تأمل ساحة الجامع الأموي التي كانت تحب، الساحة الرئيسية تسمى الصحن وفيه أروقة مكونة من أعمدة تتخللها جدران وتعلوها أقواس رومانية على شكل حدوة الحصان. الأروقة أصبحت مغلقةً بأبواب خشبية تعلوها قمريات زجاجية ملونة مع كتابات. وقد طعمت أجزاء منها بالموزاييك، وهي بقايا عهد كانت فيه جميع هذه الممرات مطعّمةً بالذهب. والجانب الرابع يمتد أمام الحرم، وجانب منه من الرخام الذي تعلوه جداريات جميلة، وهي تمثل أرابيسك من الموزاييك المطلي الرائع. الأروقة محمولة على صفٍ من القناطر المتراكبة، قنطرتان صغيرتان فوق كل قنطرة كبيرة، وتحملها سواري مربعة ضخمة وأعمدة.

مع تسلل أشعة الشمس الشتوية الغاربة، راحت سماح تتأمل القناطر التي سمعت عنها وقرأت كثيراً. "كم عدد تلك القناطر يا

t.me/yasmeenbook

وليد؟ وترى كم ترتفع تلك القبة عن أرض المسجد؟" سألت سماح وعيناها تحاولان الوصول إلى تخمين.

"أعتقد أن عددها حوالي أربع وعشرين قنطرة، أما ارتفاع القبة فيقارب الخمسين مترا، لا تسألي أكثر، هذا كل ما أعرفه من أرقام". ضحكا معاً.

"تعالي هيا بدأت أغار من الجامع الأموي وساحته وقناطره وأقواسه. هيا أخبريني ما هذا يا حلوتي، ماهذا الذي سمعته ورأيته بالداخل؟ التلميذة صارت أستاذة!" قالها وهو ينظر إليها بإعجاب.

"تلميذتك أستاذ وليد" قالتها باسمةً تتبختر بدلع.

"بالمناسبة! إلى متى ستناديني (أستاذ وليد) أيتها الصغيرة؟! أخشى أن يصبح بيننا أولاد وأنت تناديني: أستاذ وليد" حاول أن يقلّد صوتها الناعم الرقيق. ضحكت سماح ثم قالت: "أولاد؟ ألم تكن عازفاً عن الزواج؟ هل غيَّرت رأيك؟" توقفا في الزقاق أمسكها من كتفيها وأدارها باتجاهه: "هل أنت سعيدةٌ سماح؟ أخبريني هل ما زلت ترين في الحب سعادة أم شقاء؟"

"الحبّ الذي لا يعصف لا يعوّل عليه، والحبّ الذي لا يخلق المحبوب من جديد لا يعوّل عليه، شقاء الحبّ سعادة!" قالت..

"انظري إليّ، من أنا" قال وليد بنظرةٍ واثقةٍ لا ارتباك فيها ولا تردد.

ارتبكت سماح حين حطّت عيناه الضيقتان السوداوان على عينيها ثم ارتفعتا إلى شعرها وجبينها وانزلقتا نحو خديها فشفتيها حيث استقرتا طويلا هناك!. أحسّت سماح حينها أن صوت خفقات قلبها قد أسمع المدينة كلّها، أما فراشات الربيع كلها التي لاحقتها في طفولتها كانت تنتقم الآن فتتراقص في معدتها،

"أتعلمين ما هو النهر الأغزر في العالم؟"

t.me/yasmeenbook

"الأمازون" قالت سماح بصوت خجول خافت...

هزّ رأسه رافضاً :

"لا لا لا، خطأ طبعا، إنّه النهر الذي يجري في عروقي الآن، وأعتقد في عروقك أيضا!".

أمسكتْ زنده كي توقف ارتجاف أصابعها دون أن تنظر في عينيه.

"من أنا؟ هيا! أنتظر شفتيك كي تقولها يا سماح!".

قالت بارتباك وهي تشد يدها على زنده، بيدها الأخرى ترد شعرها إلى الخلف: "أنت، أنت حبيبي؟!".

"لم أسمع جيدا! قوليها ثانيةً!".

صمتت لثوانٍ: "أحبّكَ!".

"أحبكِ".

أطفأ حبهما ليل الحرب البارد مشعلاً سلاماً دافئاً، انهزم صوت القذائف البعيدة أمام إيقاع قلبيهما.

t.me/yasmeenbook

يطحن الحبّ عظامي وأنا أضحك...

بوكوفسكي

t.me/yasmeenbook

ثائر

ريف دمشق، شتاء 2018

"الوطن رائحة قميص أبي التي حرمتني الحياة تنشقها باكراً، الوطن رائحة سندويشات منبعثة من حقيبتي المدرسية قبل نزولنا إلى الفرصة، الوطن منديل أمي، وتجاعيد ظهر يدها التي أقبلها كل يوم لتدعو لي. الوطن هو ما يسكنك وإن كنت في المنفى، فتسكنه!".

فوجِئ ثائر بهذه الكلمات التي قرأها مصادفةً على ظهر ورقة كانت حياة قد دوّنت عليها عنوان مشغل الخياطة بالتفصيل ليستلم حصته ورفاقه من التبرعات، بعد أن فشل المرة السابقة في إيجاد العنوان وقضى نهاره الشتوي البارد ملبياً دعوة أم حياة على الشاي والأقراص الحمصية الشهية. ومن يفوّت مثل هذه الفرصة في زمن الحرب والبرد والجوع.

أعاد قراءة الكلمات مرات وتساءل من عساه كتب هذه الكلمات، هل هي حياة أم أحد غيرها؟! لكن ما لفت ثائر هو الشبه بين ما قرأ ومفهومه هو عن الوطن! كان يرى أن الوطن شيءٌ بسيطٌ جداً وثمينٌ جدا، بريءٌ ونقيٌّ جدا، عصيٌّ ربما على التعريف، هو السهل الممتنع، الوطن يسكن تفاصيل الحياة بأكملها ابتداء بكوب الشاي الذي تصنعه الأمهات لأبنائهن أثناء الدراسة وانتهاء بقلعة حلب وجبل قاسيون وغابات الفرلّق والبحر المتوسط.

تذكر أحد المساءات الحزينة التي حملت أخبارا سيئة من جسر الشغور، الرفاق يلعنون كل من باع الوطن ولا يزال يفعل دون ضمير،

t.me/yasmeenbook

كان ثائر محدقاً في البساط الهزيل، الذي مُدّ ولا فائدة منه، فقد تحلق الرفاق حينها حول الطاولة الفقيرة لاحتساء الشاي فقال فجأة:

" سجادة أمي، كانت تلفها طيلة الصيف وتسندها على الجدار بشكل عمودي في زاوية الغرفة خلف السرير، كنت أخاف خيالها على الستارة ليلاً وأنا صغير، وأحسبه لصاً، فتطمئنني أمي كل صباح، وحين يحلّ الشتاء، كانت تفردها وتمدها وتسندها بأرجل الأريكة أو أرجل الطاولة، وأحياناً، كانت تطلب إليّ، ربما لتشغلني وتستريح من شغبي وحركتي المفرطة، أن أطيلَ الوقوف على طرفها حتى تنفردَ، ولطالما سندتها بقدميَّ اللتين لم تطآ إلا درب الصدق، واليوم أسند الوطن بروحي التي لم تعرف إلا حبّه والصدق في الدفاع عنه، الوطن هو سجادة أمي، كنت أخاف لصّا واحداً في الليل وأمي تطمئنني، اليوم صاروا لصوصاً وفي وضح النهار، وما زالت أمي تطمئنني".

حينها هزّ الرفاق رؤوسهم بألم. "الوطن اليوم منهك ومليء بالأتربة والغبار" قال جوان مشيرا إلى البساط المتعَب.

أمسك ثائر، بالورقة ثانيةً، إنها في جيبه منذ أن كان عندهم في البيت وانتهت إجازته وعاد إلى الثكنة دون أن ينتبه لما كُتب، تمنى لو أنه قرأها هناك وسأل عن كاتبها، كان شبه متيقنٍ أنها حياة، فلبعض العقول عبق مميز، تتنشقّه في غياب أصحابه هو هويّتهم، يدلّ عليهم ولا يخطئ عناوينهم. شعر ثائر أنه عبق حياةّ، نظر في الورقة، طواها بعناية وأعادها إلى جيبه كمن يخبئ شيئاً ثمينا يخفيه عن الآخرين، كان سعيداً وساخراً من نفسه في الوقت ذاته، وكأن ما قرأه هو اعترافٌ بحبّ، أو وعد بوفاء مطلق "أعتقد يا رفاق أننا أصبحنا تحت خط الفقر العاطفي على ما يبدو، أية كلمة تثير مشاعرنا، نحن

t.me/yasmeenbook

المساكين ورثاء الحرب!" قال ثائر وهو يحشر الورقة في جيبه الذي أصبح الوصول إليه صعباً بسبب زيادة وزنه.

"نعم يا صاحبي، أنت على حق، لي صديق يؤدي خدمته الإلزامية في درعا، ذهب الأسبوع الماضي في إجازة، عاد خاطباً، كانت عروسه أول صبيّة تقترحها والدته، أول أنثى يراها منذ شهور، حكى لي أنه حين زار أهلها ودخلت ترتدي فستاناً ضيقا التصق بجسمها، فوصف وكشف وشفّ، قصيرا عن ساقيها فأفصح، لم يتمالك نفسه وطلب ساقيها فوراً، عفواً، أقصد طلب يدها هههههه، الرجل انهار عاطفيا يا شباب" قال جوان وضحك الجميع.

"على الأقل هذا الشاب كان ذاهباً ليرى عروساً، أعرف شاباً يسهر طول الليل يحلم بالجميلة التي استطاع أن ينتزع منها (لايك) على منشور له، وكأنّه نجح في انتزاع قبلةٍ من شفتيها!" قال ماهر.

"لو كتبت له تعليقاً إذن لكان الأمر كفيلاً بنشوته الجنسية هههههه" قال ثائر وقهقه الجميع بينما يده تمسك بجوّاله ويبحث على الفيس بوك عن اسم: حياة سلامة، "يا إلهي! المئات هنا تحت هذا الاسم" تمتم، أخذ يبحث في الصور المرافقة للاسم: "حياة، حياة، حياة، آه هاهي وجدت حسابها، تلك صورتها"، كانت الصورة خارجية في يوم مشمس، اضطرب حين رأى وجهها وابتسامتها المحببة، نظرتها الواثقة وذقنها الطويل الجذّاب وقد رفعته للأعلى قليلاً، شعرها الأسود الذي أشرق كقمر أخذ حصته من ضوء الشمس، ودون تردد أو تفكير قام بإرسال طلب صداقة وأقفل جوّاله كي لا يعيش لحظات انتظار موافقتها.

" كل ما أستطيع فعله حالياً هو طلب صداقة على الفيس بوك، اما طلب ساقين أو يد أو رأس فهذا صعب"، حين قال ثائر ذلك نظر جوان

t.me/yasmeenbook

إلى ماهر مبتسما وغامزاً، سعيداً بتجاوز ثائر لألمه وجرحه، وكأنه يستفسر كذلك إن كانت أخت خطيبته هي سبب سعادة ثائر الذي كان تعافيه بادياً، الغريب أن ماهر لم يبادل جوان الابتسامة، كان يبدو عليه بعض القلق والحزن رغم اندماجه بجو المرح الذي صنعه الأصدقاء.

كان ثائر مؤمناً أن الحروب تضع الإنسان أمام حربين إحداهما خارجية وأخرى داخلية، وفي الحالتين عليه أن يواجه ويقاتل حتى النهاية، وهذا ما فعله ثائر ومازال يفعل، الحرب بالنسبة له كانت أكبر من الكلمات الجوفاء والنظريات والمفاهيم والكلمات، رغم كل شيء كان سعيداً لتعافيه متفائلاً جداً بالقادم، كان يتذوق فعلاً طعم الحياة ويشعر أن العالم يحلو له من جديد، أمسك بجواله فكّر أن يفتح الفيس بوك ليتحقق من أمر كان ينتظره، ورده اتصال من رقم جديد وغير مسجّل لديه من قبل. "ألو"

"كنت أعلم أنك ستجيب على هذا الرقم، اتصلت بك مراراً من رقم لينا، بلا جدوى" صمتت لثوانٍ، "كانت تريد فقط أن تسامحها قبل أن تفارق الحياة، ولم تُفلح" قالت أم لينا وقد اختنق صوتها بالبكاء

وقف ثائر تاركاً عكازه المعدني يسقط أرضاً مع قلبه الذي هوى مصدوماً بما سمع: "قولي أنك تمزحين يا خالة! قولي أنك تريدين أن نعود إلى سابق عهدنا فاختلقتِ هذه الدعابة الأليمة! " قال ثائر غير مصدق وقد ارتجفت يده الممسكة بالجوّال كارتجاف صوت أم لينا الباكية بحرقة.

"ليتها دعابة يا ثائر! ليتها كذلك يا ابني! قذيفة هاون وهي خارجة من عملها! ادعُ لروحها فقط وسامحها!" أقفلت الخط قبل أن يردّ وهي تشهق باكية.

t.me/yasmeenbook

كان فراقهما، الذي اختارته لينا قبل سنة، كالسهم الذي غرز في صدره، فجاء رحيلها اليوم أشبه بنزع ذاك السهم بألمه وبالنزيف المرافق، وكأنه لا يجد لبعض السعد طريقا، موجةٌ عارمةٌ من سخطٍ وحزنٍ عصفت به، أخذ الغبار يعلو حوله حين ضرب الأرض بكلتا قدميه السليمة والمصابة دون أن يأبه، الحصى التي كان يتناولها من الأرض ويرميها بغضب انتشرت بعشوائية في كل الاتجاهات تماماً كروحه المتشظّية حينها.

"ثائر! هل حدث مكروه لأهلك؟! " قال جوان وقد هرول بسرعة خارج الغرفة حين سمع صراخ ثائر.

وكأنه لا يرى جوان ولا يسمعه أخذ يمشي بعيداً ثم يعود ويلتف في المكان نفسه مرات، ثم صرخ فجأة:

"هل ترضين وتشبعين ظمأك إلى الفاجعة إن أفرغتُ رصاصةً في رأسي الآن أيتها الحياة العاهرة؟!" صرخ ثائر

تقدم ماهر مومِئاً لجوان أن يترك ثائر قليلاً ينفّس عن حزنه. وهمس له: "لينا استشهدت، ذلك بعد أسبوع من إصابتها بقذيفة هاون في دمشق، المسكينة لم تنجُ، أخبرتني سماح بالأمس، لينا جارة إحدى صديقاتها، لم أشأ أن أخبره! " قال ماهر بحزن.

"إنا لله وإنا إليه راجعون، تبدّل الحياة جرحاً بجرح" قال جوان.

"هاهو ينتقل من مصدوم عاطفياً إلى مذنب دون أن يدوم مروره بالفرح سوى لحظات، ليته أجاب على اتصالاتها مؤخراً، الذنب سيجعل مصيبته مصيبتين!" أضاف ماهر.

"ومن أين له أن يعلم أنها سترحل فجأة؟! ثم كيف سيجيبها ويسامحها بهذي السهولة هل هو إله أم ملاك؟! صحيح أنها رحلت،

t.me/yasmeenbook

الله يرحمها، لكن لا تنسى يا ماهر أنه كان مكروباً بسببها، لقد جرحته بعمق، لقد هجرته وهو مصاب! وعانى كثيراً إلى أن بدأ يتعافى، أيفارق العاشق متى شاء، ونصفح عنه حين يشاء هو أيضا؟!" قال جوان بانفعال وقد احمرّ وجهه. صمت ماهر ولم يعلّق على كلام جوان الذي بدا وكأنه يذكِّر ماهر بجرحه لسلاف بهجرها، وأنّه لا يستحق السماح والعفو.

* * *

"الآخرون كما الكُتُب"، توقّف ثائر قليلاً قبل أن يكمل وكأنه يحاول أن يتوقع ما الذي يمكن أن تكون عليه التتمة، ثم تابع:

"... كي تصل إلى الكتاب الجيّد لا بد أن تمر بعشرات الكتب الرديئة المليئة بالحشو والتكرار المضجر، وكي تلتقي الشخص الصحيح لابد أن يكون ثمن ذلك عشرات التجارب الأليمة، وكأنّ ثمنَ الشخص الحقيقيّ عشرات المحبِطين".

كان ذلك أول ما قرأ على صفحة حياة، سُرّ كثيراً حين وافقت على طلب صداقته على فيس بوك كما طفل أسعدته هدية العيد، وبسعادة الترقب التي تسكن عيني الطفل لحظة فكّ الشريط وتمزيق غلاف الهدية فتح صفحتها. راح يتصفح منشوراتها الواحد تلو الآخر، فوقعت عيناه على التالي: " الوطن رائحة قميص أبي التي حرمتني الحياة تنشقها باكرا...".

أخذ يبحث في جيوبه، وجدها، أخرج الورقة من جيبه، على وجهها عنوان مشغل الخياطة، على ظهرها تلك العبارة التي تأكد الآن من هويّة كاتبها. للحظة أحسّ بسخافة ما يشعر وما يفعل، لم يعرف سر اهتمامه الشديد بأمر الورقة وما كتب عليها، سخر من نفسه يومها

t.me/yasmeenbook

حين دخلوا قاعة الاجتماعات، وبينما الحديث جارٍ عن خطط ومداهمات وتحليل أخبار أتت من هنا وهناك، كان يفكّر فيما كتبت حياة بالأمس وفيما ستكتبه اليوم أو في الغد. بات يشعر وكأنه على موعدٍ مع كتاباتها كل يوم، يأتي متلهفا كمن وقعت يداه على كنز وكأنّه لم يعد يرغب في شيء قدرَ متابعتها. أسعده كثيراً ذاك الرّباط الذي أحسّه بين ما يقرأ لها وما يفكر به، حول الوطن والوطنية، حول الحرب والحدود والجغرافيا، حول الخيانة في الحب وللبلاد، حول هواجس الحبّ، حول العقل وشقاء العقلاء. لفته جداً ما تذيل به منشوراتها: "إليه!".

لم يكن قادرا تماماً على تحديد ما يسعده، هل كان الأمل هو السبب؟

لم يؤمن يوماً بالأمل كوعودٍ خارقة خارج وجود الإنسان وقدرته، الأمل بالنسبة له بضاعة العاجز، أما الأقوياء فينتزعون نصرهم ويظفرون.

ليس هاماً أن يجد تفسيراً للسعادة التي تلفّه، فقد علمته الحرب أن ينصت إلى تيار الحياة الجاري في عروقه كلما جرت الدماء خارجاً، وأن يستسلم للفرح دون مساءلة، وأن يقتنص لحظات السعادة مهما كانت بسيطة وقصيرة وألا يتخلى أبدا، مهما تمكّن منه الإحباط واليأس، عن إرادة الفرح، فإذا كانت الحياة بخيلة إلا بالألم، وإن كان الموت حتمياً، والحرب عاصفةٌ عاتيةٌ، فلمَ لا يكون السعد هو الغاية والمنتهى؟! وإذا كانت الحياة مرضا عضالا، ستنتهي بنا، لا محالة، إلى حفرة مظلمة، فلم لا يكون الانتصار قراراً!

علّمته الحرب الكثير، لكنّ الحياة علمته أكثر! كان ثائر يرى وكأنّ يداً خفية سخّرتها إرادة ما، لتغمض عيني الإنسان عما لديه الآن وهنا، عن

t.me/yasmeenbook

سعادته الحاضرة، بحيث لا يبقى أمامه إلا ما اختزنته الذاكرة المسكينة من سعادات مضت، أو بعض الحلم بسعادات قادمة.

كان والده يقول لأمه كلما اشتكت من تمرّد ثائر الدائم: "ابنك يا أم ثائر حوتٌ، لكنّه وُضع في حوض لأسماك الزينة!".

قبل الحرب كان ثائر دائم التذمر والاحتجاج، خاصة بعد أن تخرّج من الجامعة، فتارة يريد أن يدخل سوق العمل وتارة يريد أن يؤسس لمشروع صغير، في بعض الأحيان كان يخطط لمتابعة الدراسات العليا، مرات كثيرة كان يعدل عن كل ذلك ويفكر بالهجرة، وفي كل الأحوال لم يكن راضياً، من عرف ثائر جيداً يدرك أنه طاقة مخنوقةٌ.

بعد اندلاع الحرب وإصابته في ساقه أدرك أنه حين كان يتمشى مع أصحابه ويبثهم احتجاجاته، التي استاء منها البعض، فإنه لم يكن حينها منتبها أنّه يمشي على ساقين سليمتين خاليتين من الأسياخ المعدنيّة، في شارع آمنٍ حتى الفجر. حين غابت لينا عن حياته، كره أن يكون المتألم المجروح، وحين فارقت لينا الحياة، تمنى لو يعود الزمن قليلاً فقط إلى الوراء كي لا يكون الآثم الحزين الآن. هو فاقد اليوم ما كان لديه بالأمس، ويتساءل ما الذي يمكن أن يفقده بالغد؟! وما الذي يملكه اليوم ولا يراه؟! لكنّه يعلم جيداً أن للأقوياء يداً تقاوم يد الحياة العنيدة، والصراع هو المصير. يدٌ ستكسر يداً.

"الرصاص ينهال كالمطر يا ثائر وفي البناء الشرقيّ قنّاصون، حاذر يا ثائر!".

يومها ناداه أحمد قبل أن تقرر رصاصة أحد القناصين مصير ساقه إلى الأبد، لكنّ ثائر مضى وكأنّه لا يسمع تحذير أحمد.

"هل تؤلمك ساقك " سأله الطبيب الممسك بساقه بينما يحاول تحريكها ببطء خلال أول جلسة علاج بعد العمل الجراحي، حينها تمنى لو بإمكانه

t.me/yasmeenbook

أن يقول: "جرحي من لينا يؤلمني أكثر!" لن يتوقع الطبيب ولا أحد غيره، أن يؤلم الحبُّ رجلاً كثائر يشبه في حضوره وقوته العاصفة.

اليوم، لم يفكرْ بتفنيد أسباب سعادته، لطالما عرف أسباب حزنه وألمه جيدا. أخذ شهيقا من سيجارته بينما يؤدي دوره اليوم في الحراسة الليلية على الحواجز، أغلق سترته على صدره جيداً، وأمسك بجواله، فتح صفحة حياة على الفيس بوك، كان الطقس هادئا رطباً، سكون الليل جعل الطقس يبدو أكثر برودة، وصورة حياة أكثر دفئاً، تمعن في صورتها جيدا، هو الذي لا يحبّ الصور ويعدّها كالأطعمة الباردة المجمدة. "والله يا لينا لا أحبّ الصور أشعر أنها تقتل اللحظة والبسمة بتجميد الحركة والزمان والمكان" هكذا كان يعلق حين كانت لينا تهمّ بالتقاط الصور.

كان يكره كل ما لا حياة فيه، ضحك ماهر كثيراً ذات أمسية حربية، حين سمع ثائر يتحدث عن الشبه بين الأشياء الباردة المجمدة كلّها: "يا أخي فكرت بالهجرة، نعم فكّرت، لكني اكتشفت أنني لا أستطيع أن أحتمل البرد والباردين، لا أحتمل العيش في البلاد الباردة، ولا أحب الأطعمة الباردة والناس البليدة، أحب الدفء والحركة، نحن أبناء الشمس لن نهوى البرد يوماً!".

لكن صورة حياة التي أطال التمعن بها اليوم لم تكن كغيرها من الصور الجامدة، ولم تكن مجردة عن الحركة ولا الزمان والمكان. بل كانت تضج حياةً. قرّب أكثر على ملامحها، شعر وكأنها على وشك أن تنطق، تأمل فيها جيّداً، كانت صورة خارجية وكأنّها في حديقة ذات نهار صيفيّ، زهرة صفراء ظهرت خلف حياة في الصورة، فبدت وكأنّها قد زرعتها في شعرها الأسود الذي بدا لامعاً أخاذاً كقمر استمد من الشمس ضياءه. أطال النظر في عينيها ونفث الدخان عاليا زافراً بقوّة وكأنه لا يريد أن يعترف أمام نفسه بما رأى، يا إلهي هل

يخيّل له أنّها تشبهها؟! أم أنها كذلك حقاً؟ هل رحيل لينا يجعلها حاضرةً في خياله أكثر من قبل؟ كان لحياة عينا لينا السوداوين الواسعتين وبشرتها القمحية وشعرها المسترسل.

ما يشعر به ثائر الآن ليس الأمل بل الإرادة، كان مستعداً لارتكاب أخطاء جديدة. ولم يكن يريد أن ينسلخ عن إنسانيته كإنسان يخطئ ويكسب مرة ومرة يخسر، وكان يعلم أن بعض الآلام على الأقل بانتظاره، كل ما أراده استراحةَ محارب، فقد نال نصيباً لا بأس به من الألم، وقد آن الأوان ليفسح في المجال لبعض الفرح ولبعض الحياة، ولحياة، ربما.

تذكر ما كتبته حياة قبل أيام حول الناس الحقيقية والكتب الثمينة، كم تمنى في هدأة الليل أن يكون بين يديها كتابا، بإمكانه أن يعدَها أنها لن تخيب! تمنى أن يخبرها أنّه عرف العديد من المحبطين فهل يكفي ذلك الثمن ليبدأ موسم الحصاد في حياته؟! كان مستعداً كعمال المناجم أن ينسى كل الظلام والخطر اللذين رافقا تنقيبه، فقط إن حظي بالماسة التي يحلم بها! كان سيتجاهل أطنان الأتربة التي اضطر لتنقيتها إن هو ظفر ببعض الذهب.

الإخبارية التي وردته عن سيارة مفخخة تخطط للدخول من المدخل الشرقي للمدينة لم تزد إلا من إرادته على المواجهة، أما نور الرضا والسكينة الذي أُضيء بداخله فكان من الصعب أن يخبو.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

إذا حزنت مرّة دونما سبب، فثق أنّك كنت حزينًا طيلة حياتك دون أن تعرف...

اميل سيوران

t.me/yasmeenbook

سلاف

حمص، شتاء 2018

كان الأمر أشبه بمسرحية مرت أحداثها بهدوء واستقرار، كلّ بطل فيها يعي دوره ويحفظه غيباً، وإذ ببطل جديد لم يكن أحد يتوقع ظهوره مطلقا، يعتلي خشبة المسرح فيخطف الأبصار ويغيّر في السيناريو والحوار، بل ويفرض على الأبطال أدواراً جديدة فتصبح الأحداث أكثر مشهديّة. هكذا راحت سلاف تواجه قسوة ما يحدث صامتة وتائهة. تنوس بينٍ هذا الذي قفز من ماضي أم هشام ليدخل حاضرها فيزيده اضطراباً وإرباكاً. وبين أم هشام التي لم تعلم بظهوره بعد، والتي كانت سلاف تخشى أن تكون دون قصد، قد حوّلت أم هشام من معلمة وأم روحية إلى منافِسة لها وتهديدٍ لغدِها. الأقسى بالنسبة لسلاف أنّها أخذت تشعر وكأنها تقتحم مكانا ليس لها، ما الفرق بينها وبين سهر التي شنت عليها سلاف ذاك الهجوم الشنيع إذن؟! أليست أم هشام أحقّ بماضيها من سلاف؟ ألم ترَ سلاف أنها الأحق بماهر من سهرٍ؟ لكنّه الإنسان! كائن متناقض ومسوّغ !ازدواجيّ المعايير، ظالمٌ هنا وعادل هناك، حكيم هنا وأخرق هناك. ضحية يتباكى هنا، وجلاد بيده السوط هناك! قادر على الابتسامة البديعة والعبوس المرعب بآنٍ معاً!.

تساءلت سلاف كثيراً لماذا تؤجل إخبار أم هشام بالأمر؟ وكيف لها أن تتكتم عمّا يمكن أن يجلب لأم هشام سعادة لا مثيل لها؟ تساءلت كثيراً حول هذا، وفي كل مرة كان الجواب غائباً والتبرير غائماً.

t.me/yasmeenbook

ولتخفف من وطأة الذنب الذي استبد بها راحت تلقي باللائمة على أسباب وأشخاص خارجها، فتارة تلوم أبا هاني الذي لم يكلّف نفسه في البحث عن رفيقته ولا السؤال عن مصيرها! فلماذا تبحث عنه أم هشام ولماذا ترشدها سلاف إليه؟! وكذلك ماهر! أليس هو الخائن المنسحب المتردد؟! فما ذنبها إذن وما ذنب سهر وأم هشام؟!. "أيخون الرجال ونغض الطرف عما يقترفون؟! وفوق ذلك نحاسب أنفسنا ونجلد ذواتنا نحن النساء التعيسات؟!" راحت تتمتم.

كانت سلاف تتوقع أن يخطر ببال أم هشام أن تسألها عن الرجل الغريب الذي كان يقف بالباب والذي حال موعدها مع الطبيب دون سؤالها عنه فورا. هل ستسألها يا ترى عن اسمه بالتفصيل؟ ستسأل بالتأكيد فأم هشام لا تفوتها شاردة ولا واردة. وقد اعتادت سلاف أن تخبرها كل شيء، إنها تعلم عنها أكثر مما تعلمه والدتها. لكن سلاف كانت تنوي إخبارها قبل أن تسأل، فهي لم تكن مستعدة لخسارات جديدة، فقد فقدت حبيبها وصديقتها سهر، التي ستصبح زوجته، والصديقة الأخرى (أخته) التي كبرت ونضجت ولم تعد تتقبل نصائح سلاف. فهي غير مستعدة أبداً لخسارة أم هشام التي تعد نفسها الأم التي لم تلدها، وهكذا كانت سلاف تراها، لا سيَّما وأنّ والدة سلاف كانت مغيبة الدور والحضور. فمنذ حادثة خطفها وهي منكفئةٌ ومنطويةٌ على ذاتها تتجنب لقاء الناس وترفض رفضا قاطعا مرافقة سلاف إلى المشغل رغم إصرار سلاف مراراً، حتى التسوّق، كانت تتجنبه كي لا تلتقي أحداً في السوق، لم تكن قادرة على تحمل النظرات التي يتبادلنها النساء والهمسات والغمز واللمز حولها. قد لا تكون هي المقصودة في كل ما تشير إليه النساء حولها ولكنها كانت تفسر أية التفاتة ضدها، وترى في كل كلمة تلميحاً مضمراً للنيل من سمعتها.

t.me/yasmeenbook

حاولت سلاف كثيراً أن تحررها من سجن العار الذي وضعت نفسها فيه لكن الفشل كان مصير محاولات سلاف كلها تقريباً.

سلاف تعلم أن والدها كان سبباً أساساً في غرق والدتها في الحزن؛ لا تخرج من البيت تقريباً إلا عند التعازي وتراها في مجالس العزاء مطرقةً كالآثمة وتكاد لاتنطق بحرف ثم تنتهز أول فرصة للعودة للبيت، إلى ملاذها الآمن، عزلتها. كانت سلاف واثقةً أن قسوة والدها على والدتها وسلبيته حيالها كانا أشد قسوة من جلد المجتمع لها وحكمه عليها. لقد أدار ظهره حين ينبغي أن يفعل العكس تماما. الأدهى أن والد سلاف لم يتنصل فقط من دوره في الأخذ بيد زوجته للتعافي من ذاك الرض النفسي الذي حل بها، وإنما عدّ نفسه هو المنكوب المحتاج للمداواة، وهو المظلوم الضحية، لو أدرك حقيقة دوره وحجم مسؤوليته عما حدث لما كانت أمها بهذا الدمار النفسي والروحي الذي هي عليه الآن، ولكانت أكثر توازناً ورغبة في الحياة، صحيح أن أباها فارق الحياة، لكن هناك ما هو أصعب من مفارقة الحياة، هو أن تفارقك الرغبة بالحياة والإرادة على مواجهة عراقيل الحياة.

كانت سلاف تعلم أن الأنثى تزداد قوّةً وبأساً عند الشدائد، كل ما في الأمر أنها تنشد رفيقاً يترفق بها يمسك بيدها لتعبر الزمن العسير، لا لأنها عاجزة عن عبوره بل لأنها لا تريد عبوره وحيدة. كانت ترى أنها لابد ستتجاوز الألم وتولد من جديد، لكنها لا تدري متى سيحدث ذلك!

"ظلَمَنا أبوك الله يرحمه. لم يثق بي ولم يقف بجانبي، فكيف لي أن ألوم الآخرين؟! كان بإمكانه أن يحررني ويحررك من هؤلاء المتربصين بنا بالخارج، لكنّه، ربما عن غير قصد، سامحه الله، مكّن ألسنتهم منّا وكأنّه يسلمهم مفاتيح زنزانتي وزنزانتك، ثم رحل" قالت

t.me/yasmeenbook

أم جميل ذلك بغصّة وألم كبيرين. لكنها حين لمحت الحزن في عيني سلاف قالت: "كل ما أحمد الله عليه هو أنّ لي ابنة مثلك، لقد استطعتِ تحطيم زنزانتك وخرجتِ، وكل ما علي فعله هو الدعاء لك وطلب الرحمة والسلام لأبيك ولنور عينيّ، جميل".

أطالت سلاف النظر في ملامح والدتها المتعبة المنهكة الحزينة فوجدت ملامح أم هشام تقفز مباشرةً إلى ذهنها لتنافسها بملامح أم هشام القوية المستقرة، رغم أن ما تعرضت له أم هشام كانت أشدّ قسوةً على جسدها وروحها، فلماذا كانت أمّها بذاك لتعب والاستسلام ولماذا ترى أم هشام ممتلئة قوة؟! هل لأنّ شاباً صغيرا أمسك بيدها حين أمعنَ الجميع في إيلامها، فمنحها القوّة وهو الصغير الفقير الذي لا حول له ولا قوّة إلا القلب المحبّ. حين تذكّرت هشام (أبو هاني)، قررت أن تخبر أم هشام الليلة. أرادت أن تتجنب أيّ خصام يؤدي إلى خلافٍ أو خسارة.

أمسكت جوّالها وهمّت بالاتصال بأم هشام وفي داخلها نيّة بحديث صريح، وإذ بتحية صباحية على شاشة جوالها مذيّلةً باسمه: (فليكن هذا الصباح منكِ ولكِ..هشام المصري)، أخذت تنظر حولها وكأنها تتأكد أن أم هشام ليست هنا ولم ترَ الرسالة، زاد اضطرابها اتصال ورد في اللحظة ذاتها، كانت حياة.

"ما الذي تقولينه يا حياة؟ أشمت به؟ أشمت بماهر وهو على الجبهة؟ يا إلهي! هل تعتقدين أنني سيئة إلى هذا الحد؟ هل هو في خطر؟ كيف حاله الآن؟" قالت سلاف.

"الوضع في الغوطة الشرقية سيّءٌ جداً، آسفة سلاف أردت فقط أن تزيلي من قلبك أيّة مشاعر سلبية تجاهه وتصلي لسلامته، أؤمن بما بداخلك من خير، سامحيني إن حدث أي سوء فهم!".

t.me/yasmeenbook

"لقد قسَتْ الحرب علينا كثيراً، لن نقسو على بعضنا، الله يحميه ورفاقه؟!" ردّت سلاف.

"آمين يارب، حسناً مادمنا لن نقسو على بعضنا، لدي سؤال: هل احتمال أن أراك أنت وسهر صديقتين مجدداً هو الصفر؟" قالت حياة بصوت ملؤه المحبة والرغبة بالمصالحة.

تنهدت سلاف ولم تجبْ. فقالت حياة: "حسناً هل تقبلين دعوتي إلى القهوة؟ لدي أخبار جديدة!".

قال سلاف بلهجة تشي بعدم الحماسة للقاء وعدم الاهتمام بجديد حياة: "جيّد، سأحاول أن أجد وقتاً، فالزبونات لا يرحمنني".

"اسمعي سلاف أنا امرأة مثلك وأعلم ما تشعرين به تماما، يقولون: من كانت يده بالماء ليس كمن كانت يده في النار، ..."

قاطعتها سلاف:

"لا يا حياة، لا، أنا يدي ليست في النار اطمئني، وما دمتِ امرأةً مثلي فأنتِ إذن تعلمين أن الماضي بالنسبة لي ذهب تماماً كما ذهب ماضيكِ، وإلا لما كانت لديك أخبار جديدة! صحيح؟! أمس ذهب مع أمس، ولسنا بحاجة لمواساة، لا أنت ولا أنا".

"حسناً لن أطيل عليكِ، عِديني أن نلتقي!" قالت حياة.

"سأرى مواعيدي في المشغل ونتواصل!" ردت سلاف باقتضاب.

لم تُفاجأ حياة برد سلاف، فلطالما رأت فيها عزّة نفسٍ وفطنةً لافتةً وبديهةً حاضرةً تتفوق فيها على أترابها وعلى من تابعوا تحصيلهم العلمي. كانت سلاف تشبه حياة أكثر مما تشبهها سهر. كثيرون في المدرسة والحيّ كانوا يعتقدون أن سلاف، وليست سهر، هي أخت حياة.

t.me/yasmeenbook

أقفلت سلاف الخط، كانت هناك جملة من المشاعر تعتريها...حزنت لأجل ماهر وتمنت ألا يصيبه مكروه، أما سهر التي لا تزال غريمتها، فبدأت تتعاطف معها لأنها وجدت أن ما حدث بالأمس بينها وبين سهر، لا يختلف كثيراً عما يحدث اليوم بين سلاف وأم هشام. يا لنا من كائنات كريهة ومقيتة! لم تعرف الطبيعة كياناً غريباً وكائناً متناقضاً أكثر من الإنسان. حين يدافع أحدهم عن مذنبٍ أو مجرم، فاعلم أنه إما اقترف ذنباً بالماضي، أو يخطط لارتكاب جريمة في المستقبل. لا يؤيد جلاداً إلا جلادٌ مثله. راحت تفكر أكثر قبل أن ترفض دعوة حياة لاحتساء القهوة كمصالحة مع سهر!.

حين استدارت سلاف فوجئت بأم هشام تقف وراءها في الصالة.

قالت سلاف مندهشة: "أهلا! منذ متى أنت هنا؟! كنت أحاول الاتصال بك، يجب أن نتحدث!".

"جئتُ حين كنتِ تعدين أحدهم أنّكِ سترتبين مواعيدكِ من أجل لقاء قريب، من كان هذا يا سلاف؟!.

أصاب سلاف ارتباكٌ شديد، شعرت حينها وكأنها تحوّلت إلى مراهقةٍ فاجأتها والدتها تهاتف حبيبها، فاستبد بها القلق، سارعت لتريٍ أم هشام رقم حياة وتخبرها بما حدث وكأنها تنفي عن نفسها تهمةً قد تسقطها من عيني معلمتها، لم يحظَ شخصٌ بحب وتقدير سلاف قدر ما حظيت أم هشام، ومامن أحد كان قادراً على إرباك سلاف وإرجاعها طفلةً قدر أم هشام.

"هناك ما هو أهم من حياة ودعوتها لي، أريد أن أخبرك أمرا هاما" قالت سلاف وقد نوت أن تتخلص من عبء ما تخفي. بدأت سلاف بالكلام: "أولا الله يرحم أم هاني وابنتها هناء.." فقاطعتها أم هشام وهي تأخذ مكانها المعتاد في صالة المشغل: "تعلمين يا سلاف ما هو

t.me/yasmeenbook

أكثر شيء أحبّه في مشغلك؟" سألت أم هشام محاولةً التخفيف من التوتر الذي أصرّ على الظهور في ملامح سلاف رغم محاولتها إخفائه. استغربت سلاف سؤال أم هشام المفاجئ والذي بدا لها أقلّ جديّةً بكثير مما كانت تنوي البوح به.

"أكثر شيء تحبينه في مشغلي! آه حسناً، أعتقد أنّه أنا طبعاً هههههه، ؟!" قالت سلاف ممازحة وعلى وجهها ابتسامةٌ منقوصة.

"أحبّ هذي الأريكة وقماشها المخملي الأحمر، بل إنّه أقرب إلى الخمريّ! هذا اللون يسحرني" قالت أم هشام وهي تمرر يدها على مخمل الأريكة ببطء وتميل برأسها جانباً وتنظر بإعجاب شديد.

"كنت مغرمةً في طفولتي بمسلسلات رمضان التاريخية التي تظهر فيها الممثلات يرتدين فساتين فخمة، كنت أفرح كثيراً حين أرى إحداهن وقد ارتدت فستانا من المخمل الخمريّ، فتراني أراقب تموجات الفاتح والغامق منه بفعل الضوء، وأتمنى لو تمشي أصابعي على قماشه، أو أن ألبسه أو أخيطه بيديّ هاتين، رغم أنني لم أكن أعرف بعد أنني سأعمل في الخياطة" تركتها سلاف تسترسل في حديث الذكرى دون مقاطعة :" كنت كذلك أنتظر المشاهد التي يظهر فيها الملك أو السلطان ممسكاً بكيسٍ مخمليٍّ خمري اللون وضع فيه الدراهم لشاعر امتدحه مثلاً! فتراني لا أفهم شيئاً من الأحداث التاريخية المعقدة ولا أسماء المدن ولا أسماء الشخصيات الصعبة، ولا آبه بالشعر الذي ألقاه المادح، كل ما يلفتني الكيس في يده، عشقت الأقمشةَ الفاخرةَ باكراً".

كانت قهقهة أم هشام كافيةً لتري سلاف تلك الطفولة المستعادة التي فاض بها وجهها، أطالت سلاف التفرّس في ملامحها فوجدت نفسها تستحضر مباشرة زينة البريئة ذات الاهتمامات الصغيرة

t.me/yasmeenbook

والأحلام الصغيرة، زينة التي كبرت قبل أوانها بفعل الكارثة الكبيرة والألم الفادح والجرح الكبير، لكن سلاف وجدت نفسها لا تستحضر زينة وحدها، لقد كان هشام الصغير بقربها في الصورة، أحسّت سلاف بضربات قلبها تتسارع مع أنفاسها، همّت بقول شيء لكن أم هشام قاطعتها مجدداً. "لم أسألك يا سلاف، من فصّل لك هذي الأريكة".

"تفصيل؟ أيّ تفصيلٍ هذا؟! لقد ابتعتها من صديق والدي الذي نوى السفر بسبب الحرب، وبدأ يفرغ محتويات بيته ويبيعها بأرخص الأثمان، مثل كثيرين". قالت سلاف ساخرةً

"ساحرة هذه الأريكة!" قالت أم هشام دون أن تزيح نظرها عن الأريكة.

"انتظري سأصنع لك شيئاً يعجبك!" قالت سلاف.

"ماذا تفعلين أيتها المجنونة" سألتها مندهشة حين رأتها تتناول إحدى الوسائد عن الأريكة وتنزع عنها بسرعة الغطاء المخملي الخمري نفسه.

"اصبري على رزقك يا معلمتي! ثقي بتلميذتك ومهارتها!" قالت متحركةً بنشاطٍ وحيويةٍ لافتين.

قصّتْ سلاف قماشَ الغطاء على شكل دائرة، ثم جمعت أطرافه وأخذت خيطاً وإبرة وبدأت تخيط الأطراف، ثم تناولت عن طاولتها شريطاً ذهبيّاً أنيقاً جمعت به الأطراف وعقدته عقدةً جميلةً.

"تا رام ..هذا كيس الدراهم ولا أريد منكِ شعراً ولا نثراً ولا مديحاً" قالتها بمحبة وقدمت الكيس لأم هشام مترقبةً ردّ فعلها. ذُهلت أم هشام لما فعلت سلاف وعلى وجهها الملامح الطفولية ذاتها لكن هذه المرّة

t.me/yasmeenbook

نابت الدمعة عن الضحكة. "أتعلمين يا سلاف! صرتُ في العقد السادس من العمر، ولا أذكر أنني سبق أن تلقيت هديةً من أحد، شكراً لك حقاً" قالت أم هشام بصوتٍ مخنوقٍ لم تسمعهُ سلاف مسبقاً.

عانقتها سلاف بمحبة: "الآن دوركِ، ستهديني هدية" همست لها ترتجي.

""اطلبي حبيبة قلبي! اطلبي!".

"أريدك أن تتولي أمر فستان سهر، لا أحتمل مجيئها مع أم ماهر إلى مشغلي، هذا فوق طاقتي حقاً، أكملي لها ما بدأته أنا في مشغلك، الفستان شبه جاهز لكن صبري نفذ والله. أرجوك!" قالت سلاف بغصةٍ.

"إن كان الأمر كذلك، سأفعل، لك ذلك، حسناً سأكمل لسهر فستانها، لكني أريد المقصّ الذي سبق أن أهديتكِ إيّاه، للأسف لا يمكنني أن أعمل إلا به، وسأعيده لك، هذا وعدُ امرأةٍ حرّة ،ووعد الحرّ دين عليه!" قالت أم هشام.

شكرت سلاف معلمتها لتفهمها وأمسكت بالمقص مسحته بقطعة من القطن ثم نظرت حولها باحثةً عما تضعه فيه، فأخذته أم هشام من يدها ووضعته في الكيس المخملي الذي صنعته سلاف: "هذا جيّد، إنّه على مقاسه بالضبط وكأنّه فُصّلَ له خصيصاً!".

"المفروض أن يكون مليئاً بالدراهم لا بمقصي القديم هههه" قالت أم هشام.

"والمفروض أن أكون سلطانةً لا خياطة!" قالت سلاف

"أنتِ كذلك، أنتِ سلطانةٌ يا حبيبتي، أيتها الفنانة المجنونة التي أفسدتْ غطاء الوسادة!".

t.me/yasmeenbook

"لا عليكِ، المهم عدِيني أن تعيديه لي، لو تعلمين قيمة هذا المقص عندي؟! إنّه أثمن ما في مشغلي، وعلى فكرة لن أسمح لك باسترداده أبداً، هناك قانون يقول: الهدية لا تُستردّ".

هزّت أم هشام رأسها موافقةً، وحين لمحت ساعة الحائط فجأةً، انتفضت: "يا إلهي تأخرت مجدداً على موعد الطبيب، أعانه الله على هذه المريضة المشاغبة" قامت بسرعة واتجهت نحو الباب واضعةً الكيس ذا المقص في حقيبتها على عجل وقالت:

"أذهبُ إليه للاطمئنان على وضع القلب، يبدو أنّني سأتسبب له بأزمة قلبية بمواعيدي الفاشلة" ضحكتا معا وخرجت أم هشام.

حين بقيت سلاف وحدها انتبهت أن الحديثَ سرقهما ولم تصارحْ أم هشام بما أخفتْ عنها.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الـماضي لم يمتْ أبدا، هو حتى لم يمضِ بعد...

وليم فوكنر

t.me/yasmeenbook

أم ماهر

حمص، شتاء 2018

ربما من الصعب تحديد أولاء الذين باعوا الوطن، لكن من دفع الثمن معروف ولا يمكن أن تخطئه بصيرة. الحرب سكين لا يشبع نهمها للتقسيم والتجزئة، كيف لا وقد صنعت لهذا الغرض؟! فهي تقسم الشعب إلى مؤيّد ومحتج، وموالٍ ومعارض، وراضٍ ومتمرّد، وغنيّ وفقير، وصالح وفاسد، والأفراد بين مخلصٍ ومنشق، والعقول بين ماضوية ومستقبلية، والجغرافيا إلى مناطق وقطاعات، بحسب الانتماءات الدينية والمذهبية والطائفية والعرقية والقومية، وأقدار الأفراد بين غرق ونجاة، وقلوب الأمهات بين رفض وتسليم، تنزف دمعاً ودماً وتتوزع على الجغرافيا حيث يكون أبناؤهنّ، فسواء كانت الهجرة هي قرار الأبناء أو استقرت بهم الأقدار على جبهات القتال، لن يكونوا بمنأى عن تأثيرات الحرب، ومهما كان المبدأ الذي يعتنقونه فإن قدر الأم في الحروب ألا يعرف جفناها النوم. وحين تخطف الحرب الأبناء، تنوس الأمهات بين حزن وداع أبديّ ولقاء مستحيل من جهة، وبين تسليمٍ لأقدار الحرب التي تجعل من دم الأبناء وحده الثمن لحفظ الأرض من جهة أخرى. وأم ماهر إحدى الأمهات التي كان قلبها منقسماً ثلاثة أقسام أحدها في دمشق مع صغيرتها ووحيدتها سماح، والثاني في غوطة دمشق حيث يؤدي ماهر خدمته الإلزامية منذ اندلاع الأحداث. كانت كلمة "ريف دمشق" المذكورة في نشرات الأخبار أو في الأحاديث المتداولة بين الناس،

t.me/yasmeenbook

بمثابة جرس إنذار يقرع في رأسها مباشرةً، فتتيقّظ كل حواسها وتستنفر أعصابها لتلتقط أية كلمة وأية إشارة حول الحدث الجديد.

الجزء الثالث المتبقي من قلبها كان قد اقتطع وما زال مكانه ينزف منذ خطف ابنها سلام منذ ثلاث سنوات، والذي حتى الآن لا تعرف عنه شيئاً لكنها بالوقت نفسه واثقة أنه سيعود يوما، ولا يمكنها أن تصدق أنّها لن تتمكن من ضمّه إلى صدرها مجددا، وأنها لن تطهو له الملوخية التي يحبّها مع الثوم والليمون، لقد توقفت عن طهوها مذ غاب، على أمل أنّها ستحضرها له يوماً بفرح. "يا ويلي لا أصدق أنّ أم ماهر التي نستمد منها القوة والصبر يمكن أن تجعلها رائحة الطعام تنهار بهذا الشكل! سلامة قلبك يا أم ماهر! هوّني عليكِ!" قالت إحدى جاراتها مرةً حين كانت أم ماهر في بيتها وانفجرت بالبكاء حين بدأت رائحة طبخة الجارة تتسلل إلى أنفها. "يا حبيبي يا ابني كان يحب رائحتها ويستعجلني كي أسكب له، أين أنت الآن ياترى؟! يا حرقة قلبي عليك يا بني، يا نور عيني".

على الرّغم من أنّ أم ماهر لم تكن كغيرها من النساء المتحفظات التقليديّات، إلا أنها لم تكن تعبر عن محبتها لأبنائها بطريقة مباشرة وبكلمات صريحة، فكانت ترى في ذلك تقليلاً لهيبتها. "ابتعدي يا محتالة، لا تعانقيني وتقبليني بهذي الطريقة" كانت تصدّ سماح في عيد الأم.

"معك حق ماما، عيب على البنت أن تعانق أمّها وتقبلها مرة في السنة وفي عيد الأمّ! حسنا، سأعانق بابا بدلا منك"، هكذا كانت تغيظها سماح ويضحك الجميع.

لم يحدث أن عبّرت أم ماهر لسماح عن مدى تعلقها بها، إلى الحد الذي حمل سماح على الاقتناع أنها غير مميزة أبداً عند والدتها

t.me/yasmeenbook

مع أنها وحيدتها، ورغم أن أم ماهر هي من اقترح أن تدرس سماح في دمشق، إلا أنها بعد أن اختبرت ذلك أصبحت لا تطيق فكرة خروج ابنتها عن سيطرتها المباشرة، اعتادت أن تكون المراقب المباشر لتقدم النصيحة في الوقت المناسب، كما تراه هي طبعاً، ظنّت أم ماهر أن ابنتها ستبقى الصغيرة التي ربّتها سنوات طويلة، تصطحبها إلى المدرسة صباحاً ثم تعود بها ظهراً، بعد أن تكون قد أجرت مسحاً كاملاً على كلّ ما مرّ بها خلال اليوم عن طريق المدرّسات، الزيارات والواجبات والمناسبات الاجتماعية كانت كلّها من إعداد وإخراج أم ماهر، زنزانة سماح كانت كبيرة نسبياً لكنها أخذت تضيق شيئاً فشيئاً منذ اشتعال الاضطرابات في البلاد. أصبحت أيّة حركة بمئة حساب، القتل والاغتصاب والاختطاف أمورٌ سبّب تكرار حدوثها الذعر، إصابة أبي ماهر التي غيّبتْ دوره كأب وغياب سلام وماهر، جعل العبء الملقى على عاتق أم ماهر أضعافاً مضاعفة تماماً كما تضاعف تعلّقها بأفراد هذه الخليّة الصغيرة.

انضمام سهر، ذات الشخصية المطواعة، إلى هذه الخلية شكل مجالا جيداً لأم ماهر لتمارس ما يروق لها من تحكّم، فتراها لا تكف عن توجيه النصائح والإرشادات والتوجيهات المتلاحقة دون توقف. وأكثر نصيحة كانت تستمتع بها أم ماهر هي ما يتعلق بعلاقة ماهر بسهر.

"تخيلي أنّه لا يتصل بي يا خالة! أنا التي أتصل وأطمئن عنه! وكل مرة لديه حجج وذرائع جديدة ، وعندما أعاتبه يصبح عصبيّاً ويعلو صوته وينقلب كلامه إلى صراخ لا يطاق". قالت سهر

"لا تحزني يا سهر ولا تعاتبيه، أنت تعلمين تماماً ما الذي يمرّ بهم، لا تنسي أنّهم على جبهة القتال، إنهم يقاتلون يا بنتي! لا يمرحون ويلعبون، الخطر يحيط بهم من كل جانب". ردّت أم ماهر

t.me/yasmeenbook

في البداية شعرت أم ماهر ببعض الغبطة فهي الأمّ الشرقية التي تسعدها شرقيّة ابنها كلما اشتدت، وتثلج صدرها بعض القسوة منه، لكنها أخفت ذلك محاولةً أن تخفف من انزعاج سهر بإيجاد الأعذار لماهر وتقصيره، كانت سهر تتحدث وأم ماهر تفكّر فيما إذا كانت الأسباب التي ذكرتها لسهر مقنعة وكافية لتشفع لماهر، وفي قرارة نفسها كانت تعلم أن ماهر لن يتواصل مع سهر إلا بتحفيز وتذكير، فلا دافع ذاتي لديه ليقاوم الظروف ويتجاوز العوائق، كانت مدركة تماماً أن ارتباطه بسهر هو إرضاء لرغبتها كأم، وقد ساعد في سهولة تنفيذ قرارها الذنب الذي حاصر ماهر عقب استشهاد أحمد، كانت تعلم أيضاً أنه مهما بلغ شعوره بالواجب والالتزام الاخلاقي والاجتماعي حيال سهر وابنها، فإنه لن يكون بحجم حبّه لسلاف التي لم يكن يمنعه أي ظرف عن الاطمئنان عليها وزيارتها أو الاتصال بها مهما كانت طريقة هذا الاتصال والتواصل.

"ألم تنهِ مكالمتك بعد يا ابني هذا لا يجوز، امتحانات التخرّج على الأبواب وأنتِ تهدر وقتك بلا طائل ولا مردود!" سألته حين دخلت غرفته للمرة الخامسة وهو ممسك بهاتفه وعلى وجهه غبطة العاشق.

"وهل من طائلٍ أكبر من الحب بذاته يا أمي؟! وهل هناك من مردودٍ أسمى من السعادة التي تحيط بي كلما سمعت صوتها ؟ صدقيني كلما كلمتها، شعرت وكأن "الدنيا عم تشتي ياسمين" كما تقول فيروز ؟!" قالها ماهر وقد أزهرت ملامحه حبّاً.

" وإن لم تتخرجْ يا حبيب أمك، الدنيا رح تشتي خيبات!" قالت فقهقه ماهر.

لم يفلح غضبها في إخفاء روح الدعابة التي تملكها ولا في إخفاء ابتسامتها حين ضمّها ماهر الذي لم تبعدْه عن حضنها كما تبعد سماح،

t.me/yasmeenbook

ممازحات والدته التي طالما أحبّها واستفزها ليحصل عليها، امتزجت يومها بصوت قلبه الذي ينبض سعادةً، أو ربما كان قلب سلاف هو الذي ينبض حينها في صدره.

انقباض ما أصاب قلب أم ماهر بينما تتكلم سهر مشتكيةً متذمرةً من قسوة ابنها، امتزجت كلمات سهر بالمشهد الذي قفز من صندوق ذكريات أم ماهر حول حب ماهر لسلاف. بين كلمات سهر المنطوق بها سمعت أم ماهر المسكوت عنه، الذي لم تبحْ به سهر ربما خجلاً، لقد شعرت أن قلب سهر يقول:

"كان أحمد حنوناً عطوفاً لا يشبه في قسوته ابنك ماهر، لكنّه حظي التعِس!" لقد رأت هذا في عينيها وقرأته في صوتها المرتجف معبراً عن تمرّد وغبن واحتجاج.

سرقت الحرب أحمد من زوجته ومن ابنه، ومن سهر رجلا يحبّها بدفء العاطفة التي تحتاجها كل أنثى، والحرب سرقت من سلاف حبيبها وحلمها والكثير من شبابها، ومن أمها أم جميل ابنها وزوجها، وسلامها النفسي وكرامتها بين الجميع وأهدتها لقباً كريهاً! لحِقَ بابنتها. الحرب سرقت الأمل من الجميع، وسرقت الوعود. الحرب خطفت سلام الذي لا يعرف أحد عنه شيئاً حتى اليوم، والحرب جعلت ماهر بلا قلب وبلا دفء وبلا حلم، والحرب سرقت سماح من عالم آمنٍ إلى آخر مفتوح على الاحتمالات كلّها، لا تعلم عنه أم ماهر شيئاً ولا تدري إلى أين سيذهب بها، والحرب سرقت دور الأب من أبي ماهر وبالتالي سرقت من أم ماهر أنوثتها حين اضطرت أن تكون الأب والأم والمراقبة والمتحكمة و و و حتى أصبح اسمها بين غمز ولمز النساء وكثير من الرجال "المسترجلة".

t.me/yasmeenbook

"لماذا تسكتين يا خالة؟! حسناً ربما من الصعب أن تقولي إنّه كذلك ولن يتغير، وعليّ أن أتكيف مع طبعه كرجل قاس" قاطعت سهر شرود أم ماهر.

أرادت أم ماهر أن تخبرها حينها أنه ليس هناك من رجلٍ قاسٍ وآخر حنون، وما من رجلٍ مبادرٍ وآخر قاسٍ، ببساطة هناك عاشقٌ وغير عاشقٍ. وفي التواصل ليس هناك من وقتٍ ملائم، الأوقات كلّها ملائمة لمن يصغي إلى إيقاع الحبّ، ضيق الوقت ذريعة المتهربين اليوم، ذريعة العازمين على الهرب، العازفين عن الإصغاء لصوت العقل والغارقين في نبض القلب.

ربما كانت سهر على علمٍ كامل بكل ما دار في رأس أم ماهر وقتها لكنها ستخدع نفسها مضطرةً لتستمر الأمور بخير لا سيّما أنّها ممن تشربنَ كلام النساء اللاتي يتقنّ الحديث الذي يصبرنَ به أنفسهنَّ : "ومَنْ مِنَ الرجال كامل ؟! كلهم يشبهون بعضهم بعضاً". كذبن الكذبة وصدقنها ! حسناً جيّد أن الإنسان هو أكثر الكائنات مهارةً في خداع نفسه وفي الكذب المشروع على نفسه....

حاولت أم ماهر أن تنسى قليلاً أن المشتكى منه هو ابنها وتعاطفت مع سهر "اسمعي يا سهر! الرجال كالأطفال يمكنك أن تتعاملي معه كطفل. أن ترتبطي برجل فهذا يعني أنك ستقومين بالعديد من الأعمال التي لا تريدين القيام بها، وتقولين الكثير من الكلمات التي لا تقنعك! ستصبحين ربما مخادعة نوعاً ما، محتالة كثيراً، ربما هذا هو كيد النساء، لكنه كيدٌ اضطراري كما تعلمين! وماهر طيّب ومهذب تحملي قليلاً وكأنّ لديك طفلين: أحمد وماهر".

تمنت أم ماهر لو بإمكانها أن تضيف كلمة يحبك للعبارة التي قالتها: "ماهر طيب ومهذب...ويحبّكِ" لكنها تعلم كما تعلم سهر أن

t.me/yasmeenbook

قلبه ليس مع سهر. أرادت سهر أن تقول شيئاً لكنها تـذكرت أن عليهـا الذهاب، فأحمد الصغير لم يكن بصحبتها بل كان مع خالته حياة الـتي يجب أن تذهب إلى عملها. "عليّ أن أذهب وسنجد حلاً لكـل شـيء، أبلغي سماح سلامي" خرجت سهر تاركةً أم ماهر وسماح الـتي تراجـع دروسها لامتحانات قادمة.

ودّعت أم ماهر سهر وبينما تغلق الباب خلفها، صوت ما جـاء مـن خلفها، خالت أنّه قادمٌ من الخارج قبـل أن تـدرك أنّـه صـوتُ سمـاح تصرخ على الهاتف صراخاً سرى في ركبتي أم ماهر بدلا مـن أذنيهـا، برودةٌ حلّت في أطرافها :

"ماذا؟! سـيارة مفخخـة!! ثـائر لم يخبرنـا أن مـاهر في المشـفى". صرخت سماح

كأنّما طنٌّ من الإسمنت ثبّت قَدَمَي أم مـاهر، تجمـدت في مكانهـا غير قادرة علـى التحـرك، روحهـا أخـذتْ تهـرول ولسـانها يـردد مـا اختنقـت بـه حنجرتهـا: "روحـي فـداء لروحـه يـا رب، روحـي فـداء لروحه، روحي فداء لروحه".

t.me/yasmeenbook

ليس للفراغ بابٌ نخرج منه...

مالكولم دي شازال

t.me/yasmeenbook

حياة

حمص، شتاء 2018

"هل خطر ببالكما يوماً أن تكونا آلة؟ ماذا لو كنا آلات؟ هل تخيلتما ذلك لمرة واحدة؟ بالله عليكما، ما الذي سيكون عليه شعورنا لو كنا مكانها؟" سألت حياة والدتها وسهر وهي تقف بباب المطبخ، بينما عيناها مثبتتان على فرّامة اللحم التي شغّلتها والدتها بلا رحمة لأكثر من ساعة بلا توقّف.

"دعي الآلة وشعورها جانباً يا حياة وتعالي ساعديني!" قالت والدتها بغضبٍ ساخر.

"وأنتِ سهر؟!" سألتها وهي تلمّ شعرها للأعلى بحذر وتدخل المطبخ، "هل سبق لكِ أن تخيلتِ نفسك فرّامة لحم أو أيّة آلة أخرى!".

"سؤال غريب، لكن، في الواقع لا، وأنتِ؟" سألت سهر باقتضاب كعادتها.

"أنا؟ ولماذا أتخيل إن كنت كذلك فعلاً!! وهل ترين أنني أكثر من آلة؟!" أجابت حياة بينما ترفع أكمامها وتطويها إلى أعلى لتكشف عن ساعديها، "أعمل وأرهق، لا أتذمر ولا أشكو حتى لو تعبت، إن زاد إرهاقي مرضْتُ، مرضُ الآلة هو تعطّلها، أتناول الأدويةَ التي تصلحني تماماً كما نصلح الآلة..."

قاطعتها والدتها: "حياة! حاذري من سقوط أيّة شعرة هنا!" قالتها بحزم، فأشارت حياة متذمرةً إلى شعرها الذي لم تترك منه خصلة كبيرة ولا صغيرة إلا وحزمتها جيداً استعداداً للمشاركة في إعداد الطعام.

t.me/yasmeenbook

تقدّمت حياة من طاولة العمل المليئة بالأواني والخضراوات وطبق كبير امتلأ بقطع اللحم الحمراء التي تنتظر دورها للدخول في الفرّامة كسجناء محكومين بالمقصلة، بدأت حياة تطبّق الحكم على قطع اللحم وتراقب خروجها متناهية في الصغر صالحةً لصنع الكبة[1]. كان من الصعب تمييز صوت فرّامة اللحم من صوت البلدوزرات التي تزيح بالخارج آثار الأبنية المدمرة بفعل التفجير الأخير في الحي الخلفي الموازي تماماً لحي بيت أم حياة، رائحة اللحم والبصل والفلفل الأسود والبهارات والمكسرات المحمصة امتزجت بعبق الأمل وإرادة الحياة التي تستمر ولا تتوقف في تدفقها، فمن رحل قد رحل، أما الباقون، فباقون، ولا أحد يموت قبل أن يأتيه الموت!.

حياة لا تحب العزائم والولائم، وتكره المناسبات والأعياد والتجمعات، ولا تهوى العطلات إلا لتنم جيداً عند الصباح. وفي حين يجب أن تكون تلك التجمعات فرصةً للمرح والتسلية وتعزيز العلاقات والروابط الاجتماعية، كانت حياة تراها عبئاً تخرج بعده منهكةً جسدياً ونفسياً، لأنها تقضي ساعات طويلة وسط أبخرة الطهو ورائحة البصل والثوم والشيّ والتحمير، واقفةً دون راحة، لكنّها اليوم لن تتأفف كعادتها لأن الأمر يتعلق بسهر وترتيبات موعد زفافها. فاليوم، ماهر وأهله مدعوون على الغداء لتحديد موعد الزفاف، أما أم حياة فغارقة في المطبخ بين الأواني، لاهثة لبذل ما بوسعها لتقديم أفضل ما يمكن، كيف لا! وهي التي اشتُهرت بأطباقها الشهيّة المميزة. كان أحمد الصغير يحول دون مساهمة جيّدة لسهر في إعداد الطعام، فكانت حياة تساعد في الاهتمام به، أسنانه

---

(1) أكلة شعبية مشهورة في بلاد الشام؛ عبارة عن غلاف من اللحم والبرغل، يحشى باللحم والبصل والمكسرات والتوابل ثم يقلى.

t.me/yasmeenbook

الصغيرة الواعدة التي تكشف عنها ابتساماته المضيئة، أنست حياة أنها لم تنجح في أخذ قسطٍ من الراحة يوم عطلتها الأسبوعية الوحيد. أم حياة التي دوّختها أبخرة الطهي لم تكن بغافلة عن الأمومة الكامنة لدى ابنتها، فكانت تسترق النظر إلى الانعكاس اللافت لضحكات أحمد في عيني حياة، هناك ابتسامة معينة لا نبتسمها في أيّ وقت، ابتسامة فريدة جداً، ومختلفة جداً عن ابتسامة المحاباة والمجاملات الاجتماعية التي تتكرر في اليوم الواحد مرات عديدة، هي ابتسامة دافئة حيّة تبدو أمامها الابتسامات الأخرى باردةً وصنعيّةً، الابتسامة الفريدة تلك، لا يفلح في إخراجها من دواخلنا إلا لحظات الصدق مع أناس معينين، ولا يمكن أن يرسمها على وجوهنا إلا نقاء الشعور، تلوّنها البراءة الخالصة والصدق المحض والمحبة اللامشروطة وحدها. تشعر وكأن لها لوناً وعبقاً، وكأنها قصيدة أو أغنية، وكأنها الطبيعية الأصيلة الأصليّة وكل ما دونها صور أو رسوم ونسخ لا توازيها في الحياة التي تختزنها وفي الألق والنضارة والنور. وكأنّها الفطرة وكل ما سواها مكتسب، تلك هي بالضبط الابتسامة التي رأتها الأم على وجه حياة اليوم، ابتسامةٌ لم ترها منذ سنوات بعيدة، ربما منذ طفولتها.

للأمهات قدرات عجائبية وأخطبوطية لا تقل في العمل اليدوي عنها في التركيز الذهني، فأم حياة كانت تطهو وتقطع الخضراوات وتراقب عمل الفرّامة، وتتابع القِدر الذي يغلي على النار وفي الوقت نفسه منتبهة إلى القلق المتزايد على ملامح سهر كلما اقترب موعد قدوم ضيوفهم، وغير غافلةٍ عن قلب حياة الذي يتراقص مبتهجاً على وقع قدمَي أحمد الصغير، ولم تنسَ الدعاء لابنتيها ببدايةٍ تعوّضهما عما فات.

* * *

t.me/yasmeenbook

"لمَ البكاء يا سهر؟! لمَ يا بنتي؟! حرام عليكِ الصغير يرضع حليبك وسيشعر بألمكِ! توقفي!" قالت الأم لسهر التي بدا عليها حزن شديد، حين بدأت تجهّز نفسها لاستقبال الضيوف.

"صدقيني لو حدث هذا الآن أو بعد عشرين سنة، فلن يغير من الأمر شيئاً، ستبكين أحمد كلما خطر ببالك، هذا طبيعي يا حبيبتي، هيا كفي عن البكاء الآن، انظري إلى الغد، وإلى أسنان هذا القرش الصغير! إنها جديدة وحادّة جداً، جيّد أنك تنوين فطامه، إنّه وحشٌ مفترسٌ جميل"، قالت حياة ذلك ممازحةً أختها، ثم كشّرت عن أسنانها وراحت تتظاهر أنها سمكة قرش، فتقترب من الصغير الذي راقت له المسرحية فانفجر ضاحكاً يسرع إلى أمّه ليحشر رأسه في صدرها.

أسعد الأم كثيراً أسلوب حياة في قلب أجواء الحزن إلى فرح. لقد ورثت حياة عن أبيها المزاج الطيب وروح الدعابة، كان يكفي أن يدخل المنزل كي يستحيل الحزن فرحاً

ويزول الاستياء، لم تذكر أنه دخل البيت مرة واحدة عابساً، كان يعتقد أن الأب الجيّد هو الذي يضع همومه خارجاً ويحمل إلى بيته، مع الخبز والجبن والبيض، ابتسامةً رحيمةً وقلباً ودوداً وروحاً تعانق أرواح من يحبّ على الدوام. أرادت أم حياة أن تقول شيئاً لكن جرس الباب قاطعها. "يبدو أنهم وصلوا! سأفتح الباب وأنت لا تفتحي صنبور دموعك مجدداً!"، قالت حياة متجهةً نحو الباب، بينما دقات قلب سهر بدأت تزداد.

"يا لها من مفاجأة! جئت ظانّةً أن ماهر وأهله بالباب وإذا بك أنت!" قالت حياة مندهشة.

"مفاجأة؟ ما الأمر؟!" قالت أم حياة تاركةً سهر مع الصغير ومتجهةً نحو الباب.

t.me/yasmeenbook

"أيها الغالي، ومجيئك غالي يا بني، لماذا تقف بالباب تفضل بالدخول" قالت بدماثةٍ مشيرةً إلى ثائر أن يتفضل.

"في الحقيقة إنها ليست مصادفة يا خالة، فماهر هو من أرسلني!" قال ثائر وهو يدخل غرفة الجلوس، فتجمدت ابتسامة كلّ من حياة ووالدتها، تبادلتا نظراتٍ قلقة.

"أرجوكما لا تقلقا، ماهر على ما يرام، إنّها إصابة بسيطة بالأمس على حاجز التفتيش. سيارةٌ مفخخةٌ، والحمدلله تم تفكيك العبوة الناسفة على أيدي مهندسين خبراء، لكن عبوة أخرى أصغر حجماً انفجرت قبل إنهاء تفكيكها. في الحقيقة المهندس الذي كان يفككها إصابته خطيرة، أما ماهر واثنان معه كان حظهما أفضل بكثير".

"يا إلهي ماهذا؟! هل هذا بالضبط ما حدث فعلاً يا ثائر؟! أرجوك أن تخبرنا الحقيقة" سألت أم حياة.

"صدقيني يا خالة إني أخبركم الحقيقة!، لا داعي للخوف أجابها ثائر.

أول ما فكرت به الأم هو سهر التي كانت تستمع خلف الباب، تفكّر في حظها السيء وفألها الأسوأ على الرجال! أما حياة فلا تعلم لماذا خطرت ببالها سلاف! ماهذه المصادفة السيئة؟! ماذا لو علمت سلاف الآن ما أصاب ماهر في هذا اليوم بالتحديد؟! هل ستحزن لأجله؟ طردت سريعاً تلك الأفكار وتمنت السلامة لماهر، ووجدت أن عليها أن تفكر بأختها المسكينة التي بالتأكيد ستكون منهارة الآن، هرولت إلى غرفة سهر دون أن تستأذن من ضيفهم.

"اسمعي يا حبيبتي! ماهر بخير، ثائر لم يخبرنا إلا الحقيقة، سيكون قريباً على مايرام ويأتي إليك" قالت محتضنةً بقوّة أختها التي تنتحب.

t.me/yasmeenbook

قلت لكِ إنّه بخير أسمعتِ؟!" أبعدتها قليلاً عن حضنها ونظرت في وجهها الحزين المكروب أخذت تمسح دموع سهر عن خديها بسرعة مشجعة إيّاها:

هيا فكّري بإيجابية، ماهر سيكون بخير قريباً جداً، تمني له ذلك!" لكن سهر لم تجبْ.

اطردي تلك الأفكار السوداوية! أعرف ما يجول بخاطرك الآن! اه طبعاً أنتِ السبب فيما حدث له! وفيما حدث لأحمد، وأنت السبب في التفجيرات الأخيرة، وفي كل ما يحدث في العالم من شرور!" مازحتها من جديد بلا جدوى.

"وأهله؟ كان الجميع على موعد معنا اليوم! كيف أخبرتهم؟! وما الذي قلته لهم؟!" سألته أم حياة.

لم أخبرهم الحقيقة كي لا يقلقوا، لأن الخالة أم ماهر لن تصدق ولن تطمئن حتى تراه أمامها سالماً، هذا ما أعرفه لا أدري إن كان أحدهم قد أوصل الخبر لأهله" أجابها ثائر.

الله يحميه ويرده سالماً ويحميكم جميعاً يا بني والله دمرتنا هذه الحرب!" قالت الأم، بينما ثائر يتساءل فيما إذا كانت حياة ستبقى بالداخل أم أنها ستمنحه بعض الفرح ثانيةً. أخذ يسترق النظر إلى باب الغرفة الذي أغلقته خلفها قبل قليل، وكأنه البوابة على الفردوس، كم تمنى أن يُفتح وتطل منه حياة الآن، أخذ يصبّر نفسه بأنها أول من استقبله، تمنى لو أنّها أطالت البقاء.

ساد الصمت لحظات فكّر فيها ثائر أن يستأذن بالذهاب إلا أنّ شيئاً ما بداخله لم يسمح له بالذهاب. أخذ يتساءل: هل هناك ما تشعر به حياة التي دخلت هناك؟ هل وحده يصلّي كي تأتي؟!هل أحبّها؟! هل يحبّها حقاً؟ ربما، لا تهم التسمية، المهم أن بداخله الآن شيئاً

t.me/yasmeenbook

عاصفاً وخطيراً ولا خير في ذاك العصف إن لم يكُ قادراً على جعل ثائر يبتكر طريقة ما أو يخترع ذريعة ما ليراها ثانية على الأقل ليودّعها وداعاً على قدر هذا الذي يفتعل بداخله.

رغم أنه كان كلّ يوم يتمنى أن يلتقيها، لكن لقاء كهذا الذي حدث اليوم لم يكن ثائر يتوقعه أبداً. ربّ ضارّةٍ نافعة، فقد أرسله ماهر إلى بيت أم حياة، دون أن يخطط هو لشيء، وكانت هي من فتح الباب له واستقبله، وبدتْ سعيدة لرؤيته، على الأقل هذا ما شعر به، كان يبدو له الأمر وكأنه إشارة أو تآمر جميل من القدر، للمرة الأولى ربما في حياته، أعجبه السيناريو الجميل، ووجد أن عليه أن يخرجه إخراجاً يليق بجمال المصادفة التي صنعته.

"أودّ أن أرى أحمد الصغير قبل أن أودّعك يا خالة"، لم تكن ذريعته زائفة تماماً، فقد كان حقاً يتوق لأخذ أحمد بين يديه يشم به عبق شهيد مجموعتهم.

قبل أن تهم الأم بالنهوض لتحضر حفيدها، فتحت حياة باب الغرفة وأطلّتْ فتفتّح الأمل في وجدان ثائر من جديد، ابتسامتها له زادته يقيناً، شعر أن أمراً جيداً، حدوثه بات وشيكاً، تأمّل جمال قامتها ومشيتها الواثقة ونظرتها الجذابة وابتسامتها الدافئة، والمعاني البديعة في كل ما تقول وتفعل، بفستان بني بسيط وطول فارع سمح بحذاء كعبه غير مرتفع، كان لها حضور آسر، حتى أنه لم يلحظ أحمد الصغير الذي كانت تحمله، حضورها كان طاغياً جاعلاً المشاهد الأخرى خافتةً جداً، الكلمات التي دوتْ بداخله نافست كل الأصوات الأخرى، استسلم للإبحار في ملامحها حتى الغرق، أسعده منها الصدى الذي عانق صوته، فبثّت حياة في عروق ثائر الحياة الأمر الذي دفعه إلى ما لم تتوقعه حياة ولا أمها ولا حتى ثائر نفسه.

t.me/yasmeenbook

كانوا مُحقينَ حين وضعوا الحُبَّ بالكُتبِ،
رُبما لم يكن ليعيشَ في أي مكانٍ آخر...

وليم فوكنر

t.me/yasmeenbook

جوان

بين ريف دمشق وحمص، ربيع 2018

"يا رجل! بيرك غميق! ذهبت تخبرهم عن إصابة ماهر، فطلبت يد حياة؟! أنا متفاجئ فعلاً" قال جوان مندهشاً.

"والله أنا متفاجئ مثلك هههههه، الأمر كان وليد اللحظة، بلا أي تخطيط مسبق" ضحك ثائر.

"هكذا أجمل، عموماً ألف مبروك، نحن بحاجة لخبرٍ جميل وجيّد وسط الأخبار السيئة، عقبى للفرحة الكبيرة" قال جوان.

"الله يبارك فيك جوان، عقبى لفرحتك، صحيح أخبرني كيف قبل العقيد أن يمنحك الإجازة بهذه السهولة؟. ليست عادته!" سأل ثائر.

"لقد فعل ذلك مباشرةً، ولم يعرقل الأمر هذه المرّة، ربما ظلمته مسبقا، أعتقد أنّه شخص طيِّب ومسكين!" أجاب جوان.

"طيِّب ومسكين! ربما، شخصياً صرت أكثر حذراً في إطلاق مثل هكذا أحكام! ذلك بعد أن اكتشفت أنني أنا الطيّب والمسكين في كل مرة اعتقدت أن الآخرين كذلك" رد ثائر.

مالم يدركه جوان من قبل، أنّ الحرب أشبه بعدسة ميكروسكوب تضخّم كل شيء، فالخلاف يصبح أكبر والهم يغدو هموماً، والحزن والقلق يزداد أضعافاً مضاعفة، وكذلك الحذر، ربما الوجه الجيّد في الأمر أنّ الفرح أيضاً يصبح أكبر إذ تكفي كسرة صغيرة من رغيف فرح

t.me/yasmeenbook

لتقتات عليها أياماً. خبر صغير كما برعم من أمنية كفيلٌ بأن يبقيك على أمل خلال أيام الحرب البخيلة الحالكة. كان يكفيه أن يسمح له العقيد الجديد بإجازة حتى يبقى سعيداً لأيام، رغم شوق أهله في قامشلو وعتاب حبيبته هيف، إلا أنّه كان ينوي الذهاب إلى حمص لغايةٍ في نفسه تبدو أبعد من مهمة استلام التبرعات والمعونات التي لم يفلح ثائر في جلبها لأسباب عديدة، وهذا ما عدّه جوان من حسن حظّه.

"لم أرك سعيدا إلى هذا الحد منذ وقت! ستلتقي الأحباب؟!".

حين قال ثائر هذا الكلام، صمت جوان لحظة وراح يتساءل فيما إذا كان ثائر فعلاً ينتظر جواباً منه فيما إذا كان سيرى حبيبته هيف، أم أنه فقط يلمّح إلى أمر آخر؟! لكن جوان كان يرجّح أن ثائر يريد أن يقول له أن هناك حبيبة لا ينتظر انتظارها له، ولا يحتاج احتياجها، على الأقل حالياً. قد لا يكون ذلك هو قصد ثائر وإنما الذنب الذي يحسّه جوان.

قال جوان: "كل ما أعرفه أنني سعيد الآن، وهذا يكفيني" توقف لحظة وعندما رأى عيني ثائر مثبتة عليه بصمت، أضاف:

"أحبّ دمشق كما أحبّ حمص واللاذقية وطرطوس وقامشلو، والنساء عندي، كمدن بلادي، يمكنني أن أحبهنّ جميعاً، وكما لا ينفي حبّي لحمص حبّي لدمشق، وكما لا يقلل حبي لياسمين دمشق من حبي لنواعير حماة، أو قلعة حلب أو ميناء طرطوس، كذلك فإنّ حبي لامرأة لا يلغي حبي لأخرى ولا يعني بطلانه. أقسمُ أنني أستطيع أن أحبهنّ جميعاً وبالدرجة نفسها، وكلهنّ حبيبات دون أن أخدعهن، فعلاً هنّ لي حبيبات!".

"هذا كلام كافٍ لتغتالك أيّة امرأة، أقصد أيّة حبيبة منهن" قال ثائر.

استرعت كلمات جوان سمع ماهر الذي أنصت إلى حديث صديقيه محاولاً إخفاء اهتمامه بما قيل.

t.me/yasmeenbook

تابع جوان:

"حين يشتد الخطر على مدينة تتجه إليها لحمايتها والدفاع عنها دون أن تفكر بأي شيءٍ على الإطلاق، إلا زوال الخطر، عنها لأنك تحبّها، وحين ترى امرأةً مكروبةً ومحزونةً، تجد نفسك حاملاً على عاتقك مهمة تخليصها من كربها وكأنّما خُلق الرجل كي لا تكون هناك امرأة محزونة على وجه الأرض ولا مدينة محاصرة!" قال جوان.

"يا رجل ما هذا الذي تقوله! ما هذه الأفكار العجيبة؟! تخلصها من كربها؟! أنت تخلص أنثى من كربها؟ من تظن نفسك؟ ما رأيك أن النساء يرين أننا، نحن الرجال أكبر سبب لكربهن وألمهن؟!".

"نحن كذلك فعلاً!" علّق ماهر ساخراً.

تابع ثائر: " لو أجريت استفتاء بين النساء لكانت نتيجته أن كل معاناة النساء سببها نحن الرجال، ثم أخبرني: هل تعتقد حقاً أن امرأة محزونة تحتاج رجلاً لتتخلص من همّها، لا يا صاحبي أنت واهم، صدقني، أنت بحاجة إليها في كربك أكثر مما تتخيل، إنّك تذهب إلى إحداهنّ ظانّا أنّك المخلّص، فسرعان ما تدرك أنّك من يحتاج مخلّصاً، وأنّها هي من قام بدور الشافي وأنك أنت المريض الذي يتعافى على يدها، ستعرف الأنثى عنك همّاً لم تشكه لها، وستكشف لك عن كربٍ لم تكن منتبهاً إليه! ستشفيك كما لم تكن تتوقع! لا أدري لماذا مازلنا نعتقد أننا معلمون ونحن في الحقيقة لسنا إلا تلامذة مساكين، وأمام المرأة نحن الأبناء الذين لا نكبر ولن، إنه لغز الأنوثة يا جوان!" قال ثائر.

اكتفى جوان بحركة من يده إلى الأعلى هازّاً رأسه، عادته حين يريد أن ينهي نقاشاً يبدو له عقيماً ولن يغير أحدٌ رأيه في نهايته. فما

t.me/yasmeenbook

يتحدث عنه ثائر لن يقنع جوان، والعكس بالعكس، صوتان مختلفان سينتجان بالضرورة نمطين مختلفين من الصدى، أولهما جوان الذي يسعى لشفاء أنثى من جرح رجلٍ آخر، وواثق من حاجتها لدوره كمخلّص ومن نجاح مهمته، والآخر، ثائر، جرحته أنثى وها هو يتعافى الآن على يد أخرى.

كان ماهر صامتاً منصتاً تماماً إلى ما يقوله جوان وسؤال واحد يدور في خلده لا يعرف ماهر لماذا بات ملحّاً، أو ربما يعرف لكنه يحاول أن يتخلّص من إلحاح عقله وقلبه على ما يجب أن يعدّه جزءا من ماضٍ، سؤالٌ لم يكن ماهر متأكداً من جوابه: "حسناً عليك أن تسرع في تحرير المدينة قبل أن يقوم غيرك بهذي المهمة" قال ماهر متظاهراً بعدم الاكتراث بتلميحات جوان المستفزة.

"إجازة موفقة جوان لا تطل علينا الغياب لك وحشة يا غالي" قال ثائر.

حين وصل جوان إلى مدينة حمص، لم يشأ أن يتجه مباشرةً إلى هدفه ومقصده، بل قرر أن يتمشى في شوارعها وراح يجوبها وكأنه يعرفها منذ الصغرِ، تعرفه السريع على الأماكن كان يوازي الألفة السريعة التي يعيشها عادةً حيال الاشخاص، لم يشعر بغربة المكان أو غرابة اللهجة. صحيح أن ما لفّ الشوارع من خراب ودمار، عصف بقلبه، إلا أنّ غبطة ما كانت تجتاحه بقوة رافقته دون أن تزيد أو تنقص، رائحة ما أعادته سنينا إلى الوراء، لم يستطعْ تحديد ماهيتها أو مصدرها، ليست رائحة طعام ولا عطر ولا رائحة دخان أو حريق، وكأنها لا تشبه شيئاً، وكأنها كل ذلك مجتمعاً، ربما هي رائحة وطن ورائحة الحياة هنا، مختلفة عن رائحة الموت والبارود التي ترافقهم هناك. كان يشعر أن المدينة بأكملها تحتضنه، وأن الشوارع هي التي تمشي به لا هو الذي يمشيها، تمسك بيده وترشده إلى الأجمل والأكثر أمنا تماماً كما كانت

t.me/yasmeenbook

أمّه تفعل حين كان صغيراً. للمرة الأولى يشعر أنّ الوطنَ بحاجةٍ أيضاً إلى وطنٍ، ووطنُ الوطنِ وفاءُ أبنائه.

لا يمكن أن يفهم ما يمر بجوان إلا من عاش تجربة عسكري في إجازة وصل فيها إلى المدينة المأهولة بالناس، وراح يتمشى في شوارعها رغم تعبه وحاجته إلى الاستحمام والطعام والراحة والسؤال عن أهله وأقربائه وأخبار رفاقه، إلا أن توقه لتذوق الحياة وتنشّق عبق التنوّع، كان أكبر، لطالما آمن بإشباع الروح قبل إشباع الجسد. أخذ يمشي ويمشي وبه جوعٌ مؤلمٌ ليرى الحياة تهزم منطقَ الموت الذي يحيق بالجميع، ومن كلّ جانب، الحياة خارج المناطق القتالية والجبهات والثكنات مختلفة تماماً عنها هنا، مستمرة بقوّة في أشكالها المتعددة.

هنا يعلم المرء أنّ الحياة ليست مفهوما معقداً أو صعباً وليست مسألة شائكة، كما يعتقد كثيرون، بل فكرة بسيطة جداً تراها في التفاصيل أينما نظرت، تراها على أيدي ربات المنازل اللاتي نزلنَ يتبضعن، وفي كيلو الطماطم الذي تختاره إحداهنّ بعناية لتصنع طبقا مميزاً لأسرتها غير آبهة بالحرب وتهديد الموت. وتراها في عيني صبيّ تعبر نظراته الشرفة ليحملق في نافذةٍ منتظراً أملا يطلّ عليه من خلف ستارة على هيئة ابتسامة أنثوية واعدة، وتراها على الشرفات في أصيص الزرع الذي ظلّ أخضرَ لأنّ من يسقيه باق، وتراها على حبل الغسيل الذي يحمل مظاهر الحياة فيخبرك أن هناك أناساً يروحون ويجيئون ويعملون ويتعرّقون فيبدلون ملابسهم ويغسلونها ويعلّقونها على الحبل ويستحمّون، هم أحياءٌ، بمحض المصادفة ربما، وربما لأن ساعتهم لم تحِنْ بعد، أو لأن رصاصة من رصاصات الحرب أخطأتهم.

الحياة هنا تُرى على بسطة الخضار وعلى عربات الباعة

t.me/yasmeenbook

المتجولين، وتُسمَع في أصواتهم حين يصيحون بأعلى صوتهم ليسمِعوا حتى من مكث في منزله: حمصي يا باذنجان، خناجر يا باميا، أحمر الخد يا مشمش..

رغم أنهم كانوا يعلنون عن بضاعتهم ويصفون ما تحتويه عرباتهم، لكنّ جوان كان يسمع شيئاً آخر: "ها نحن أحياء، ها نحن نمتلئ بقوة الحياة ولم نمتْ، لن نموتَ قبل أن يدركنا الموتُ! ، ها هي الحياة حاضرة فينا وستبقى".

تتصارع الحياة والموت على الدوام إلى الحد الذي يدفع بأحدنا ربما إلى (اقتناء دي في دي) لمسرحية كوميدية وسط جوّ من التهديدات بقصف وضربات جوية وتحالفات غربية، وقد يدفع آخر إلى ترتيبِ لحفل زفاف في الوقت الذي يتم فيه الإعداد لطقوس تشييع أحدهم، الحياة حاضرة في قلب الموت. يقول البعض أنّها العبثية التي تفرزها الحروب، ربما هذا صحيح لكنها على الأغلب إرادة الحياة السعيدة التي لا تستسلم ولا تعلن نهايتها ببساطة، فالفرح ملازمٌ للحياة كما الحزن وإلا غرقت سفينة الوجود.

صحيح أن البصمات القاسية للحرب في كل زاوية وكل شارع أحزنت جوان، فكان المشهد أمامه أشبه بفيلم بالأبيض والأسود، لكن صورة ما كانت تقفز إلى ذهنه فجأة، تلوّن كل ما حوله وتزيل الحزن الرماديّ من المشهد، فتغيِّر وجه كل ما هو غير جميل. رغم انتظاره لرؤية تلك الصورة عن كثب، ورغم أنها كانت جلّ مقصده من زيارة المدينة، إلا أنه كان يؤجل وصوله لها، فالطريق إليها كانت بحد ذاتها غاية، والدرب إلى الجميل هو الجمال بعينه، والسعي أبهى من الوصول، وكلما كان الهدف عزيزاً، كانت متعة انتظاره الممتزجة بالتوق أكبر.

t.me/yasmeenbook

"الأمل في الحب كالتجارة، والتجارة شطارة، مرة ربح ومرة خسارة، عليك أن تضعِ في الحسبان الاحتمالات كلّها، اترك طريقاً للإياب ولا تعوّل كثيراً على الخيال يا صاحبي، السقوط إلى الأرض شاقّ جداً بعد التحليق في الأعالي! يمكنك أن تحبّ الشمس، هذا مشروع، أما أن تثق أنك قادرٌ على إحضارها إلى ركنكَ، فهذي حماقة!" كان ذلك ما قاله ثائر ذات مساء بعد حديث استشف منه أملاً لجوان بزيارة مكان هجره ماهر.

لكن هذا كلّه لم يكن يعنيه، ولم يشغله الغد أو الأبد أو ديمومة أمنيته، كل ما أراده جوان هو أن يراها ثانيةً، بعد أن كانت المرة الأولى يوم عزاء أحمد، هذا كل ما في الأمر، الآن على الأقل، لم يفكر أبداً فيما سيحدث بعد ذلك. يريد أن يرى عينيها دون أن يرمقه أحد، يريد فقط أن يخبرها أنها جميلة وأنها جعلت أيامه مؤخرا أجمل! ربما أراد أن يخبرها أكثر من ذلك، وربما يكون الأمر، كما يقول ثائر، كالرمال المتحركة، ربما، لكنّه لا يريد أن يحسب حساب الغد، وهل يقوى على الإعداد للآتي من فقد أمسه ولا يملك يومه أصلاً ؟!

توقفت قدماه عن المشي، رفع نظره إلى أعلى قليلاً، وكمن يريد أن يتأكّد أن العنوان الذي لديه صحيح، قرأ اللافتة:

/مشغل سلاف للخياطة وتصميم الأزياء/.

إنّها ساعات الصباح الأولى، الهواء نقيّ وكأنه غُسل غسلاً، كان الحيّ هادئاً، كما الجوّ الأمني يومها، آثار الدمار في هذا الشارع أقلّ من غيره. لفتته سيارة فارهة مركونة على باب المشغل، جفل حين انفتح الباب قبل أن يتقدم نحوه ليطرقه، شخصان أطلا منه، ويبدو الحديث الذي يتبادلانه جديّا، الرجل ذو اللباس الأنيق والذقن

t.me/yasmeenbook

الخفيفة بيده سيجار فاخر، يودّع بإعجاب بالغ السيدة الشابة الساحرة وكأنه لا يقوى على ذاك الوداع. كانت تبدو مثله لكنها تكابر وتتظاهر بالعكس فتستعجله ليذهب. أصاب جوان الذهول لا لأمر واحد، ولم يكن الأمر الأبرز غير متوقعٍ لكنه بالطبع كان صادماً، فليس كل ما نتوقعه يمر دون أن يصفعنا ولا يكفي أن نتمنى أمراً كي يتحول إلى حقيقة واقعة! لم ينتبه أحد منهما إلى وجوده بالخارج، هل كان بعيداً عن الباب إلى هذا الحد دون أن يلحظ؟! أم أنهما كانا منشغلين بالتحديق ببعضهما حتى أنّهما لم يلحظا أن رجلا بطول قامة جوان يقف هنا؟! هل هو هامشيّ إلى هذا الحد كي لا يلحظ وجوده أحد؟! أخذت ثقته بنفسه في تلك اللحظة تتراجع بقدر ما تقدمت الخيبة خطوات، وبقدر تلاشي الأمل الذي ولد بداخله قبل شهور، وشعر أنه حقاً كائن لا يرى، وأنه غير جدير بأن يراه أحد أصلا! أخذ فعلاً يتحسس وجهه ويديه ورقبته وكأنه يريد أن يتحقق أنه موجودٌ وأنّه ليس خفياً، تأكّد من صحوه ومن وجوده. رأى أمامه خيالات عديدة أولها كان لثائر يحذره من وهمه بأنثى تنتظره ليحررها، خيال آخر كان لماهر الذي يعجّله ليحرر المدينة "قبل أن يحررها غيره" كان ماهر ساخراً ضاحكاً ربما لأنه يعرف المدينة أكثر منه هو، الخيال الشامت الساخط لحبيبته هيف آلمه كثيراً. لم تتفوّه بكلمة كانت مقطبة الجبين، وحين نظر في عينيها أعرضت عنه، ومشتْ وابتعدت. الألم الأكبر أتاه من خياله هو، لم يكن بمقدوره النظر في عيني جوان الذي أخطأ في حقّه وقلل من احترامه.

للحظة خشي على عقله لولا أن قدرة مداركه المتشعبة منحته بعض الطمأنينة وسط الشك والقلق. فكان قادراً على التركيز في عدة أمور بآنٍ معاً، ينقّل نظره بين سلاف والرجل الأنيق ويراقب نظراتهما إلى

t.me/yasmeenbook

بعضهما البعض ليفهم أمرا علّه يفصح أكثر عما يـودّ أن يفهمـه، ثم يسترق النظر إلى السيارة الفخمة التي بات متيقناً أنها تعود لهذا الرجل، ويتأمل يدي الرجل التي ترفض أن تودّع يدي سلاف، وحين خطف بصره الخاتم ذو حجر الزمرّد الذي زين خنصر الرجل ذي المعطف، هرولت عيناه إلى أصابعه هو، وكأنه يراها للمرة الأولى، حملق فيها، كانت تشبه أقلام القصب ليس فقط في سماكتها وثخنها وبريّتها، بل في أنين الحزن المنبعث منها والذي سمعه بوضوحٍ حينها. كان يسمع أصابعه تئن كدحاً وشقاءً، بل وتلعن الحرب ومقادير الحروب وقد أصبح الغبار لونها والبارود رائحتها. أراد أن يشعل سيجارة دون أن ينظر ثانيةً إلى السيجار الفاخر الذي لم يفارق يمين ذاك الثري الوسيم..

انتابته أولاً رغبة عارمة في تحطيم كل الأخيلة التي أحاطت به مؤنبة وعاتبة وشامتة، ثم تمنى لو يختفي ويتلاشى، من كل شيء وعن كل شيء، تمنى لو بمقدوره ابتلاع ذاته بذاته، قرّر أن ينسل من المكان ومن مشهد كان فيه الكومبارس السخيف، وجوده فيه يساوي العدم! تمنى لو كان هو العدم.

حين سمعها تقول : "الله معك هشام"، أراد أن يسرعٍ، لكنّ انفجاراً عنيفاً كان أسرع منه، هزّ المكان وغيّب نور النهار.

t.me/yasmeenbook

وسترى أشلاءَك فوق رغيف وسترى الزَّمن يتقدم قبراً قبراً...

أدونيس

t.me/yasmeenbook

سهر

حمص، ربيع 2018

"ألو صباح الخير كيف حالك خالتي، هل وصلتما دمشق بالسلامة؟ هل ماهر بخير؟" قالت سهر.

"لم نغادر بعد يا سهر، لم نغادر يا ابنتي! فأم هشام العجوز خرّفت ونست إحضار نتائج فحوصات الدم بالأمس من أجل الاستشارة الطبية في دمشق، فكان علينا انتظار الصباح وها نحن خارجتان معاً إلى المخبر أولاً، ومن ثم إلى محطة البولمان" ردت أم ماهر بينما أم هشام تقهقه: "أنا خرّفت؟! يسلم صباكِ يا عشرينية".

- "انتظرا! أنا قريبة من المخبر سأحضر لها نتائج الفحوصات وأودعكما بنفس الوقت، أليس المخبر نفسه؟. مخبر الحكيم؟" قالت سهر.

- "نعم هو ذاته، بارك الله بك يا بنتي، هل الكتكوت أحمد معك؟".

- "لا لقد تركته مع أمي في المنزل، لأحضر له الحليب والحفاضات".

- "اشتقت له، الله يحميه ويقويكِ، حسناً نحن بانتظارك!".

وردها اتصال من ماهر، لم تجبْ، أجّلت الرد كي لا يؤخرها الحديث معه عن السيدتين اللتين تنتظرانها. تابعت السير في الزقاق المفضي إلى المخبر، كان الطقس يومها دافئاً مغبراً والحركة فيه شبه طبيعية بعد أيام من الهدوء الأمني. عاود ماهر الاتصال، ردت: "ألو ماهر".

t.me/yasmeenbook

أجاب ماهر: "أهلاً كيف حالك؟ أين أنت الآن؟ هل كل شيء على مايرام؟ هل أنتم جميعا بخير؟".

"أرسلت لك رسالة على ماسنجر هل قرأتها؟" قال ماهر.

"لا في الحقيقة لم أقرأ شيئاً، ولم أفتح حتى صفحتي ولا حسابي مع أنني كنت أنوي أن أرسل لك رسالة لكنني انشغلت بالصغير قليلا" حين قالت ذلك صمت ماهر فسألته: " ما الأمر ماهر! أخبرني هنا ماذا كتبت؟".

"حسناً أمري لله، سأخبرك رغم أنني حاولت تجنّب الكلام بالهروب إلى الكتابة لكن يبدو لا أنه جدوى".

تابع وهي تستمع بتركيز: "اسمعي سهر لا أدري لماذا اليوم تحديداً أردتك أن تعرفي ذلك، لم أنمْ الليلة الفائتة".

"ما الأمر يا ماهر؟ أخفتني!".

أتذكرين هاتفك المحمول والفرمتة التي قام بها الشاب وغضبك يومها وحزنك على الصور ومقاطع الفيديو الخاصة بأحمد".

"نعم بالتأكيد أذكر، كم ندمت أنني أرسلت هاتفي للتصليح!" قالت بصوت خافت.

"سهر! في الحقيقة، أ،ا ، أأنا أنا من طلب إلى الشاب أن يقوم بذلك، أنا يا سهر، اعتقدت أنني أخفف عنك ألم الذكرى، ربما غير ذلك لا أدري لكن...." قال ماهر مرتبكاً.

"لا تقل شيئاً ماهر! هذا يكفي لا شيء بأيدينا لنفعله الآن، كل شيء ذهب وراح، الصور وصاحب الصور الله يرحمه" قالت بحزن.

"الله يرحمه، لا أعرف ماذا يمكن أن أقول. لكن لم تخبريني أنتِ ما الذي كنت تنوين قوله في رسالتك؟ آه سهر سأكلمك لاحقا إنهم ينادونني" أقفل الخط بسرعة دون وداع.

t.me/yasmeenbook

تابعت سهر طريقها قبل أن تخبره أنّها كانت تنوي الانسحاب من هذه العلاقة المتعبة غير العادلة، أرادت أن تخبره أنّه حرٌ ليس فقط من التزامه بخطبتها، بل من الذنب الذي يلاحقه حيال المرحوم أحمد، وأنه ليس هو من قتله فالأعمار بيد الله، وأنها حين قبلت بالخطبة كانت مشوشة وحزينة ومضطربة، فوقعت تحت تأثير كلام أمها وكلام نساء أخريات، لكنها لن تقبل الآن الزواج برجل تعلم مسبقا أن قلبه لأخرى، كما أنها قادرة بوجود أحمد إلى جانبها على مواجهة الحياة وصعوباتها. همّت بوضع هاتفها في الحقيبة لكنه رنّ، إنّه ماهر مجددا، ردت: "ألو ماهر هل نسيت أمراً آخر لتقوله؟".

"أين أنتِ الآن بالضبط؟ وكيف الأوضاع حولك؟" سأل بسرعة وقلق.

"أنا في طريقي إلى المخبر لجلب نتائج تحاليل متعلقة بأم هشام، ستسافران هي وأمك إلى دمشق لرؤيتك".

"عودي إلى المنزل بأسرع وقت هيا! حالاً! ولا تخرجي أنت والصغير، أنا قادم اليوم إليكم، لا داعي لسفرهما في هذه الظروف، قولي لهما أني قادم! أفهمتِ؟!".

"الصغير في البيت، مابك ماهر! لقد رتبتا كل شيء للذهاب حتى موعد أم هشام مع الطبيب في دمشق!".

"لن يسافر أحد، أخبريهما حال رؤيتك لهما، وأنت هيا عودي بسرعة إلى البيت وابقوا حيث أنتم!".

"أخفتني يا ماهر ما الأمر؟".

"افعلي ما طلبته منك حالا هيا لا تهدري الوقت" قال وأقفل الخط بسرعة.

ودعته سهر وأقفلت الخط وقد انتابها استياء شديد، أولاً لاعترافه بما فعل بجوالها حين حذف عنه كل شيء، وثانيا لنبرة التسلط واللهجة القاسية التي يحادثها بها قبل أيامٍ قليلة من زفافهما المفترض؟! راحت تبحث له عن مبررات فتارة تعزو ما يحدث إلى الحرب التي قتلت الصبر لدى الجميع، وتارة تعزو ذلك إلى خوفه على والدته من مخاطر السفر، وتارة تقول ربما أصدقاؤه إلى جانبه ولا يمكنه أن يكون على طبيعته. لكن ذلك لم يخفف من امتعاضها.

وصلت المخبر سلّمت على الممرضتين اللتين تعملان هناك، لاحظت بعض الارتباك على وجه إحداهما التي طلبت منها تحاليل أم هشام، كانت بلا تركيز شاردة الذهن، حتى أنها لم تنظر في وجه سهر ولم تردّ السلام. راحت سهر تتأمل ملامحها القلقة، لم تمنعها ظروف الحرب وقسوة الأيام من تصفيف شعرها المصبوغ باللون الأشقر الذهبي بعناية، ومن إحاطة أصابعها بخواتم عدة لكن لم يكن بينها خاتم خطبة أو زواج، كانت متبرجة بطريقة لافتة، وحاجباها مرسومان بدقة، ومسحوق التجميل السميك على بشرتها لم ينجح في إخفاء أثر السنوات وبعض الخيبات، أخذت تبحث في الدرج عن التحاليل وهي تقول: "يا رب عفوك!، كل يوم خبر جديد وتسريبات عن بلاوي ومصائب قادمة، الله يستر!".

سألتها زميلتها عن الخطب بينما سهر منصتة: "يقولون هناك سيارة أو حافلة مفخخة بكميات هائلة من المواد المتفجرة دخلت المدينة ليلة أمس، هيا فليفجرونا ويخلصونا من هذه الحياة! ماذا بقي لنا أصلا؟ هل هذه بلاد أصلا؟ دمار أينما ذهبنا، أسعار فظيعة، ولم يبق أحد في هذه البلاد، كل الشباب هاجروا أو استشهدوا أو يحاربون على الجبهات، ونحن يا حسرتي ننتظر الفرج!" قالت وهي تحشر

t.me/yasmeenbook

أوراق أم هشام في ظرف ضيّق بعصبية شديدة بينما استقرت عيناها على خاتم زواج سهر.

"سيارة مفخخة إذن؟! حسناً ماذا سنفعل؟ هل سنوقف مدارس أولادنا وعملنا وحياتنا؟ هل نسجن أنفسنا في المنازل؟ كيف سنعيش؟ رغيفنا من أين سنأتي به بلا عمل؟ زوجي عسكري ولم يحصل على إجازة منذ أربعة أشهر، والله مللت وأنا أخترع حججاً للأولاد، قولي لي ما الذي سنفعله؟! " قالت زميلتها بألم.

"حياة هذه أم موت مؤجل؟! والله نحن ميتون مع وقف التنفيذ، موت، دم، فقر، عنوسة، ارتفاع أسعار، ذعر، قذائف، قوافل شهداء، افففف ياربي الرحمة" قالت الأخرى بغضبٍ وسخطٍ شديدين.

دون أن تعلّق، أخذت سهر الأوراق من يد الممرضة المستمرة بالشكوى مع زميلتها، شكرتهما فلم تسمعها أيّ منهما. خرجت مسرعةً وقد عرفت سبب لهجة ماهر القاسية على الهاتف، أسرعت في خطواتها وقد استبد بها الذعر، اتصلت بأمها وأخبرتها ألا تخرج هي وأحمد من المنزل أبداً، اتصلت بحياة واطمأنت عليها وحذرتها.

على بعد أمتار قليلة من مشغل أم هشام، نظرت نحو المدخل فخيّلَ لها وكأن الباب مغلق، خافت أن يكون تأخيرها جعل السيدتين تملان الانتظار فسافرتا، أمسكت هاتفها المحمول واتصلت: "ألو هل ما زلتما في المشغل؟ لقد وصلت".

"لم نغادر بعد تعالي نحن والقهوة بانتظارك" قالت أم ماهر.

قبل أن تقفل سهر الخط، اهتز المكان إثر صوتٍ أقوى مما يمكن أن يتخيله المرء أصابها بالطرش فسقطت أرضاً إلى الخلف على ظهرها، انقذف المحمول من يدها عالياً بسرعة هائلة، بينما ارتطم رأسها بالرصيف، وجهها نحو الأعلى وعيناها تراقبان أوراق

t.me/yasmeenbook

التحاليل الطبية وقد تناثرت في الهواء فوق رأسها، دخان رمادي أخذ يتكاثف بأسرع من قدرتها على التفكير بما يحدث، داهمها صوت ماهر: "عودي إلى المنزل بأسرع وقت!" "لا تخرجوا" "ابقوا حيث أنتم".

الرطوبة التي شعرت بها تحت رأسها حملتها على مد يدها بصعوبة لتتلمس ما ظنته ماءً، اللون الأحمر القانئ على أصابعها نفى ظنّها، مسحتْ يدها بسترتها حين سمعت من بعيد بكاء طفل، وكأنّها خافت عليه من مشهد الدم، ابتسمت في سرّها: "أحمدك يا ربّ، صغيري في البيت"، صرخات مذعورة: "يا ويلي! يا ويلي!".

عاد إليها الطرش مجدداً إلا من صوت ممرضة المخبر: "سيارة مفخخة بأطنان من المواد المتفجرة".

عيناها بالكاد ترى، أرادت أن تنهض، حاولت، لم تقوَ، حاولت ثانيةً لكن عبثاً، الدخان يزداد رماديةً حتى أصبح أسودَ، الشهيق يرفض الاكتمال، الأوكسجين لا يدخل رئتيها، الوعي الذي جهدت في دعوته، يأبى إلا أن يغيب، والدخان يتكاثف ويتكاثف فوق رأسها.

طفلةٌ صغيرة بيدها دمية جميلة وصوت والدتها: "سهر! بابا هنا وطعام الغداء جاهز هيا! تعالي أنتِ وحياة!" مشت إلى أبيها لتخطف من يده قطعة الحلوى فخطفها بين ذراعيه ورفعها عالياً.. عالياً، طارا معاً، سهر وأبوها يحلّقان الآن، نظرت إلى الأسفل رأت والدتها و"الطفلة حياة" وقد دخلتا المنزل، سمعت أمها تقول "أحمد الصغير بالداخل" ...أرادت أن تناديهما، لم تستطعْ، أمّها وحياة ابتعدتا، ابتعدتا، بينما هي تحلق عالياً. شعرت بالعطش الشديد، وكأنّ أشواكاً استقرت في بلعومها.

t.me/yasmeenbook

أمام عينيها المفتوحتين، غاب الجميع، غاب كلّ شيء، خفتتْ الأصوات جميعها، تلاشت صورة الأوراق المتطايرة والدخان الأسود، صورةٌ أخرى نقيّة ملونة حلّت محلها، ربيعٌ ملوّنٌ ظهر وسط الجحيم، كان أحمد يمدّ إليها يدَه مبتسماً كعادته...

يشتدّ الحبُ كثافة كلّما اقترب من الـموت...

غابرييل غارسيا ماركيز

t.me/yasmeenbook

سلاف

حمص، ربيع 2018

دون أن يحرّك رأسه، فتح عينيه ونظر حوله بهدوء، أدرك أنه قد أُسعِف إلى المشفى. أغمضهما ثانيةً. كان يسمعهم وهم يتحدثون مجتمعين فوق رأسه، سلاف، السيد الأنيق الوسيم، ورجل ثالث يبدو أنه الطبيب:

"لا حروق ولا جروح، والصور لا تشير إلى كسور ولا إلى أذيّة دماغيّة، ربما عنف الانفجار، رغم بعده نسبياً، أفقده وعيه، سيصحو اطمئنوا إنّه بخير، ما قرابتكما به؟!".

"صحيح أن الحرب جعلتنا كلنا أقرباء، لكننا في الحقيقة لا نعرف عنه شيئاً، كل ما في الأمر أنّه كان في المكان عند حدوث تفجير اليوم، وعندما وجدناه على ماهو عليه، أتينا به إلى هنا قبل أن نعرف أي شيء عن تفاصيل التفجير ونتائجه ومكانه" قال أبو هاني.

فسارعت سلاف للقول: "اسمه جوان توركو من مدينة القامشلي" التفت إليها هشام مستغرباً دون أن يعلّق.

" كما ترى إنّه في البدلة العسكرية فهو يخدم في ريف دمشق، التقيته مرةً يوم عزاء جارنا في الحيّ، صديقه، ولم أتوقّع أن أراه المرة الثانية مصاباً، المسكين!" قالت ذلك بتأثر

"شكرا لكِ! لابد أن بحوزتهِ ما يثبت شخصيته، سأذهب الآن وأرسل من يدوّن بعض البيانات لملء استمارة دخوله، عموماً حظه

t.me/yasmeenbook

جيّد جداً، حاله أفضل من غيره بكثير! التفجير كان بعيداً، الحمدلله على السلامة".

قال الطبيب مسرعاً ليتابع الحالات الأخرى من الإصابات التي أخذت تتوافد إلى المشفى منذ حدث التفجير، صفارات سيارات الإسعاف دوت خارجاً في الأحياء. في المشافي كان الناس يتدافعون في الممرات وقد علتْ أصوات مختلفة متباينة في سبب ارتفاعها، بعضها تصبّ اللعنات على الحرب وعلى المتسببين بالتفجيرات، كثر يطمئنون ذويهم عبر الهواتف المحمولة، أصوات أخرى لمصابين يصرخون ألماً ويستغيثون بأي شيء يوقف ألمهم حتى لو كان الموت، بعض المسعفين راحوا يتشاجرون مع طبيب هنا وممرضة هناك ويشتكون البطء وسوء التعامل مع حالات خطرة: "يا عم توّقف أرجوك عن الصراخ، المصابون كلّهم أبناء ولهم آباء وأمهات أيضا، ابنك ليس الوحيد، اهدؤوا وتعاونوا معنا قليلاً، أرجوكم!" قالت إحدى الممرضات بغضب.

دخان التفجير الذي كان من الصعب منعه من الدخول، أعاق الرؤية، واختلط برائحة الدم ورائحة الكحول، عبق ذلك المزيج بالمكان.

انتبهت سلاف إلى هشام الذي يرمقها بصمت، أما جوان فرغم أنّه غير صاحٍ تماما، إلا أن الاهتمام الذي قرأه في عيني سلاف أراحه، حتى لو كان ذلك حينها نوعاً من التعاطف فحسب.

وفي انتظار الممرضة التي ستملأ الاستمارة، ساد الصمت لحظات تبادل فيها هشام وسلاف نظراتٍ مسروقة مليئة بالأسئلة، راح هشام ينقّل نظره بين سلاف والشاب الذي تعرّفت إليه سلاف حالاً، بل تذكرت اسمه الكامل، رغم أنّها التقته لمرة واحدة.

t.me/yasmeenbook

"هشام لـو سمحـت، هلّـا بحثـت في جيوبـه عـن أوراق ثبوتيـة أو بطاقته العسكرية" قالت سلاف لتكسر الصمت. "نعـم، نعـم، بـالطبع" أجابها هشام.

نظرت سلاف إلى هذا المستلقي على سـرير المشـفى منتظـراً الصـحو ليصدر الحكم عليه بالنجاة من الموت بمحض مصادفة، بينما اقترب منـه هشام بارتباك ليبحث لديه عما يثبت هويّته.

كان بإمكان يديّ هشام اللتين تتحسسان الجيوب الخارجيـة العلويـة لبدلـة جوان، أن تجسّا عضلات صـدر الشـاب القويـة المشـدودة المتصـلبة الـتي امتلأت بحيث لم تترك مكاناً لارتخاء أو ترهلات، الغبار الـذي علـق بشـعره جرّاء سقوطه على الأرض مغشياً لم يفلح في إخفاء سواد شعره الـذي يرسـم الشباب، أما جبينه العالي الذي حدّق فيه هشام طويلا، لم ترسم فيـه السـنون بعد خطوطها العرضية والمائلة، كما فعلت في جبين هشام وفي شـعره الـذي خالطه البياض حتى أصبح رمادياً كلّه. اليدان المتشابكتان على صـدر جـوان، واللتان كانتا قبل قليـل تئنـان حزنـاً وكـدحاً، رآهمـا هشـام أحـد تجسّـدات الحياة، فالعروق البارزة كانت تقول أن تدفق الدم فيها قوياً كالنـهر في موسـمٍ شديد الأمطار. ولأنّ كلٍّ يلفته في الآخر ما غادره ومـا فقـد، فكأنّمـا انقلـب السحر على الساحر، وتبادلٌ في الأدوار حدث.

وبينما يبحث، وجد أخيراً بطاقة شخصية عسـكرية، حـين أمسـك بها هشام، شَعَرَ بقبضة جوان تحكم الإمساك بيده وترفعها عن صدره: "آه، قبضتك متماسكة وقويّة، الحمد لله على سلامتك، الآن تأكّـدتُ من كلام الطبيب أنك بخير" قال هشام.

التقت عينا جوان السوداء اللامعة الفتيّة بعينيّ هشام الخبيرة الواثقـة المحاطة بالتجاعيد. كانا أشـبه بمتصـارعين علـى حلبـة واحـدة وكـلٌ يعرف نقاط القوة ومواطن الضعف لديه ولدى "غريمه" .

* * *

t.me/yasmeenbook

"ألو ماما كيفك؟ أنا بخير الحمد لله ولم يصبني أي مكروه، أنت كيف حالك؟ أعرف أنك بعيدة عن المكان أرجوك ابقي في المنزل، سأنهي زيارة لصديق في المشفى لديه إصابة طفيفة وآتي إليك" قالت سلاف على المحمول تطمئن والدتها وقد خرجت من غرفة الإسعاف تاركةً هشام وجوان.

ما إن أنهت مكالمتها مع والدتها حتى رنّ جوالها مجدداً، كانت المكالمة واردة من سماح، ردت سلاف مفترضةً أن سماح قد سمعت بالتفجير الواقع في حمص وتريد الاطمئنان "ألو سماح أهلا حبيبتي نحن بخير حبيبتي وأنتم كيف الحال؟".

أما سماح فتحدثت وكأنها تفترض أن سلاف تنتظر منها اتصالاً لتطمئنَ عن أحوال ماهر:

"أنا في دمشق، ماهر إصابته خفيفة جداً الحمد لله، صحته ممتازة وقال الطبيب يمكنه الخروج بعد ظهر اليوم، وقد يأتي غداً بنفسه ليطمئِنَ الست أم ماهر على حبيب قلبها" قالت سماح سعيدة بشفاء ماهر ونجاته من الموت بأعجوبة.

أدركت سلاف أنّها لا تعرف ما حدث لماهر ،كما انتبهت أنّ سماح لم تسمع بالتفجير بعد، فلم تشأ أن تخبرها كي لا تفسد فرحتها بنجاة ماهر، فمادامت الأمور على ما يرام والجميع بخير، لا داعي إذن للأخبار السيئة الآن "لكن والدتك لم تستطع الانتظار يا عزيزتي سماح، وقد انطلقت إليكم فجراً في وفد ثنائيّ مع أم هشام، أعتقد أنهما وصلتا دمشق، انظري حولك ستجدينها" قالت سلاف بثقة.

"لا، يا صديقتي لم تغادرا بعد، كلمتني ماما باكراً لتخبرني أنها وأم هشام في المشغل تنتظران نتائج تحاليل وفحوصات الدم التي أجرتها أم هشام، وقد طمأنتها عن ماهر وطارت فرحاً" ردّت سماح.

"ما الذي تقولينه يا سماح؟! أمّك وأم هشام ما تزالان هنا في حمص؟!"

t.me/yasmeenbook

دبَّ الذعر في قلب سلاف حين سمعت كلام سماح، أقفلت الخط دون أن تودّعها، تملّكها صمتٌ رهيبٌ، بينما عاد دوي الانفجار يدقّ رأسها وكأنّه الآن، سمعته مرّات ومرّات.

"ألو ألو سلاف أين ذهبتِ، سلاف أتسمعيني؟!..تباً لشبكة الاتصالات!" قالت سماح بقلق.

وجدت سلاف نفسها تمشي بسرعة كبيرة، وتشق جموع المتدافعين في الممرات قاصدةً مخرج المشفى، ثقلٌ مؤلمٌ في ساقيها أخذ يهبط إلى القدمين، وكما في الكوابيس، بل أقسى، يهرول المرء ولا يصل، يصرخ ولا يسمع صوته، ضجّت مسامعها بأصوات من حولها، من المصابين، النازفين، المسعفين، المستغيثين، الباكين، المنتحبين، المتضرّعين إلى الله، الفاقدين أحبّتهم، واليائسين، المنتظرين على أبواب غرف العمليات والمصلّين. هرولت وفي صمتها تمتمت:

"ما كان عليّ أن أطلب إليها أن تكمل فستان سهر! ما كان يجب أن أؤخرها، تركتها في مشغلها وحيدة! كوني بخير يا أم هشام! كوني بخير يا زينة! فقط كوني بخير أرجوك! كيف لم تخبريني أنّك لم تغادري؟ أرجوك كوني بخير! وسأترك لك هشام! أعدكِ لن أحادثه ثانيةً، ولن أردّ على رسائله، ولن أراه، فقط عديني أن تكوني بخير! كوني بخير، أرجوكِ، أرجوكِ!". كان تدافع الهواجس في رأسها أقسى من تدافع الجموع المختنقة حولها في الممرات. تفوّقت أنفاسها المتسارعة على خطواتها، دقات قلبها التي أصبحت طرقات في أذنيها، علت على الضجيج المحيط دون أن تمنع سلاف من أن تلتقط كلمات إحداهنّ في الممر، كان ذلك أشبه برصاصة، سمّرت سلاف

في مكانها، أطرافها شُلّتْ، وكأنّ أصابعها تخشّبت، بينما اشتعل الحريق في أحشاءها:

".. لقد تعرفتُ على جثتها، إنّها الخياطة الأشهر في البلد، كنت إحدى زبوناتها، الله يرحمك يا أم هشام، الله يرحمك ويجعل مثواكِ الجنّة!".

صنارة الصيد التي نزلت من السماء، التقطت قلب سلاف واستقرت بداخلها، لا هي تأخذه وتصعد ثانية إلى السماء ولا تترك قلبها وتعود أدراجها، رعدُ الحربِ وبرقُ الموتِ عصفا بروحها.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

على الناس الذين نحبّهم أن يموتوا مع كلّ أشيائهم...

غابرييل غارسيا ماركيز

t.me/yasmeenbook

ماهر

دمشق، ربيع 2018

من خلف الزجاج العازل وأمام الاحتمالات العديدة التي تغتاله والتي كان الموت على رأسها، كان ماهر جالساً، يراقب والدته التي بدت كالكائن الفضائي لكثرة الأنابيب والتوصيلات الممتدة بين جسدها والأجهزة العديدة في غرفة العناية، لم يستطعْ أن يصدق أن هذا الكائن المستلقي بكل هذا العجز والضعف والمرض هو والدته أم ماهر. أبهذي البساطة تتراجع القوة ويتلاشى الشموخ؟ أبهذي البساطة نمّحي ونتحول إلى عدم؟ لكن الأمر الذي كان يؤرقه أكثر هو أن ترحل والدته قبل عودة أخيه سلام؟! بدأ يتساءل: "ماذا لو غفوتُ الآن لأصحو بعد قليل على صوت إحدى الممرضات تنقل لي خبراً أن أمّي، بقدرة الله وجهد أطباء العناية، استعادت وعيها وبدأت استجاباتها تعود إلى الحالة الطبيعية؟! فها هي تومض بجفنها، وتشير بيدها فتثني إصبعها وتومئ بعينيها أنها على ما يرام؟ وإذا كان الله لا يريد لذلك أن يحدث، لماذا لم يعدْ سلام لتحتضنه مرة، مرة واحدة على الأقل، قبل أن تغرق في موت سريري؟ لماذا لم تتح لها الأقدار فرصة عناقه مرة إضافيّة فقط؟ لماذا تغدو أشياءٌ بسيطةٌ جداً ضرباً من المستحيل؟! أليس الله قادرا على كل شيء؟!هل من الممكن أن يكون الله ظالما؟ ولماذا يتجاهل دعاءنا اليومي لسنوات؟ ما الحكمة من ذاك الألم كلّه. حسناً لقد اعتاد القدر أن يعلّمنا مغزى الوجود عبر الشقاء مرّات ومرّات، وأن يختبر صبرنا عن طريق الألم مئات المرات، وعن طريق الجرح مئات

t.me/yasmeenbook

المرات والفقد عشرات المرات، وما هي النتيجة؟ أننا غدونا كائنات مشوّهة مثقلة بالهم؟! لماذا لا يختبرنا مرةً بضخ السرور في أرواحٍ شاخت بفعل الألم؟ لماذا لا يعلمنا الحكمة عن طريق السعادة؟ ألسنا نكذب ونواسي أنفسنا حين نقول أن الخبرة لا تأتي إلا عن طريق الشقاء؟! هل الصفعات هي المعلم الوحيد في مدرسة اسمها حياة؟! وترانا نردّ شيخوختنا وهرمنا إلى سنيّ عمرنا وهي منّا براء، نحن نشيخ بفعل الجراح وألوان الألم، لا بفعل السنين."

صمت ماهر ثوان مغطياً خديه بكفيه، فرك عينيه بأصابعه بقوة محاولاً استعادة توازنه، استسلم للهواجس التي تصحو حين نكون حبيسي الجدران فتخرج من رأسنا لتصطدم بالجدار وتعود بقوة ارتداد أكبر لتصفع أرواحنا بعنف، فكيف إذا كانت هذي الجدران جدران غرفة العناية الفائقة؟ وكيف إن كان الراقد في غيبوبته لا حول له ولا قوة هو: الأمّ؟!.

يمر الوقت ثقيلاً عصيباً جداً، كان صوت النبض المضخم قاسياً ومؤلماً في مسامع ماهر، شعر أن الأجهزة تتربص به واستبد به هوس رهيب مخافة تغير هذا الإيقاع التواتري عند حدوث خلل ما. حتى اللحظة التي دخل فيها غرفة العناية، كان يظنّ أن صوت الرصاص والقذائف والمدافع هي أقسى الأصوات التي يمكن للمرء أن يسمعها، لكن اليوم سقطت تلك الأصوات جميعا أمام الموسيقى الجنائزية التي تحدثها الأجهزة هنا في صمت الليل وهدأة الحرب الكئيبين. الشاشات تراقب التنفس والنبض والضغط ودقات القلب، بينما يراقب ماهر صدر أمه الذي يطمئنه في صعوده والهبوط، أنّها لم تنتقل إلى العدم بعد.

رغم العدد الهائل من الشهداء الذين شيّعهم ماهر من رفاقه، ورغم ما شهده من قتل وتمثيل بالجثث وتقطيعٍ لأوصال، ورغم تغيّر مفهوم

t.me/yasmeenbook

الفقد والرحيل بفعل الحرب، ورغم انعكاس الدم في أعين المقاتلين حيث بات الأحمر لوناً من ضمن ألوان ليس إلا، رغم صموده أمام ذلك كلّه، كان عاجزاً عن الصمود أمام صوت نبضاتها المضخمة عبر الجهاز، هنا فقط لم يعدْ مقاتلاً على الجبهات أو مرابطاً على الحواجز، فقد أعادته غرفة العناية إلى المرحلة الجنينية بما تعنيه من ضعف واعتماد وبدائية، لكن بينما كان جنيناً متكوراً في رحم أمه تصلهُ نبضاتها عبر ذاك الجوف الذي كان له فيه كل أسباب الحياة من غذاء ودفء وحماية وأمان، هو الآن متكورٌ على نفسه على كرسي بجانب سريرها يسمع نبضها ودقات قلبها عبر مضخمات الصوت، في "رحم" آخر لا يمكن أن يلدَ إلا الخوف والذعر والموت.

من قال أن حزن الأبناء على فقد الأم أسهل وأخفّ وطأة من حزنها إن رحلوا قبلها ؟ ومتى كان المنتمي أقوى وأشد صلابة من الانتماء؟ ومتى استمر الجنين خارج الرحم؟ وهل للشراب شكل دون الكأس الذي يحتويه؟ حين كانوا يسألونها لماذا تدعو الله وتبتهل أن يكونَ رحيلها قبل أولادها، كانت تجيب أنّه ما من أمّ تحتمل ثقل وداع الأبناء، فلماذا ارتضت لهم ذاك الحمل الثقيل جداً ولماذا قبلت لهم كل هذا الضياع؟ هل هي من الأنانية بحيث تقبل أن يفقدوا الرحم، هل تعلم أنّهم مازالوا يحتاجونها؟ ليس هم فقط بل أبو ماهر الذي أحالته لعنة الحرب طفلاً يتبع أمه من غرفة إلى أخرى ممسكاً بطرف ثوبها متلمساً بعض الحنان والأمان، وحين تغيب الشمس ويأوي إلى سريرهما، يزول عنه السحر فيصبح رجلاً زوجاً دافئاً، وما إن يبزغ الصبح حتى يعود طفلها المعتمد المتّكل كلياً! أيعقل أن تغادر ولم يغادرها دورها بينهم بعد؟.

ماهر الذي لم يتحرر بعد من ذنبه القديم الجديد حيال أحمد الشهيد وأحمد الصغير، والذي حمل ذنباً آخر حيال سهر التي كان

سبباً في جرحها حين طلب محو تسجيلات صوت أحمد وصوره عن جوّالها. سهر التي قضت بسببه هو كما يرى، فلولا والدة خطيبها لما حرصت على التواجد يومها في ذلك المكان وتلك اللحظة بالتحديد، أخذتها المنيّة إلى حتفها هناك بسببه.

الذنب الأعظم كان حيال والدته التي سألت الله أن يفتدي بروحها روحه ليلة أصيب بريف دمشق. شعر ماهر وكأنّه القاتل المتسلسل الذي يحمل ساطوراً ويحركه بعشوائية يمنة ويسرة، فيقتل هنا ويدمي هناك مرة واثنتين وثلاث، كيف لهذا النبع من الشقاء ألا ينضب؟ وهل الألم شعلةٌ لا تنطفئ؟ تألم ماهر حين فكّر كيف مرّت به لحظات اعتقد فيها أنّه بلغ قمة معاناته، ثم اكتشف أنّ هناك متسعاً لعذابات أكبر، الحياة مطاطةٌ جداً عند الألم، شحيحةٌ جداً عند الفرح.

ففي الفترة نفسها التي كان ماهر يتعافى خلالها من إصابته بدمشق، وقع التفجير بحمص ليحكم على والدته بالموت السريري في انتظار رحمة الموت الكامل فيما لو استحالت العودة إلى الحياة.

كانت لدى ماهر قناعة راسخة أن الغائبين عن الوعي يسمعوننا حين نخاطبهم حتى لو كانوا ماتوا سريرياً، كان يراقبها من خلف العازل الزجاجي الذي يمكن أن يفصل الأجساد، أما الأرواح فلا جدار يفصلها ولا قوة. حين سمح له الأطباء بالدخول إليها، جلس بقربها، احتضن يدها كطفل تائه وراح يقبّلها مراراً، تنهّد طويلاً تأمل في عينيها المغمضتين إلى أَجَل، وجهها الذي فارقه اللون والتعابير. فمها المطبق كجدران الغرفة على صدره، أنفها الشامخ كروحها، ينتظر فرصته خلف قناع الأوكسجين، ذهبت به الذاكرة خمس سنين إلى الوراء حين انتشر وباء انفلونزا الخنازير وراح العديد يرتدون الكمامات خوفاً من انتقال المرض بالعدوى، حينها

t.me/yasmeenbook

رفضت والدته الكمامة التي أعطاها إياها سلام لأنها تكره كل ما يعوق تنفسها وحركتها. في السيارة كانت تكره حزام الأمان، وحين تختار لهم الملابس تكره ربطات العنق حتى لو كانت فاخرة، ورغم اعتراض معلمات المدرسة، كانت تترك شعر ابنتها سماح مسدلاً مسترسلاً دون عقد أو شرائط ملوّنة كباقي البنات، كانت حرّة وتهوى الحرية، وها هي اليوم مقيّدة أشد تقييد بالأسلاك والأنابيب والشرائط الطبية اللاصقة والقثاطر الوريدية، وفوق ذلك مقيّدة برحمة الموت الكامل الذي ينهي حالتها العصيبة. مسح بيده على أصابعها، إصبعاً.. إصبعاً، "كم أنت ضعيف أيّها الإنسان وفانٍ وبلا غد"، بلا خلود! شدّ على يدها وحين خاف أن يؤلمها راح يمسح على ظهر كفها بهدوء ورفق فكان جلد يدها الرقيق المجعد يلحق بحركة إصبعه جيئة وذهاباً، تأمل في بشرتها، أحسّ أنّه ينتبه للمرة الأولى أن أمّه شاخت! انتابه الذعر حين رأى ملامح السنين "أرجوك لا تشيخي، ابقي كما أنت لأجلنا، لأجلِ سلام كي يتعرف عليكِ، أخاف ألا يعرف سلام ملامحك إنْ شختِ! أرجوك لا تهرمي الآن!، لا تضعفي"! شدّ ثانيةً على يدها وقبّلها وراح يحادثها كما لو كانت بوعيها الكامل.

أخبرها أنّها الأم كما ينبغي أن تكون، أخبرها أنّ ليالي الحرب الدامسة التي ظنّها الأقسى على الإطلاق لا توازي لحظة من غيبوبتها، حدثها عن حنينه لدفء سعادة مضت لم يكن يراها في حينها، وعن احتياجه العاصف لسلام في هذه اللحظات، طلب إليها أن تسامح الله لأنه خذل صلواتها سنوات، ولأنه لم ينهِ غياب سلام قبل أن يعلن غيابها عن الوعي، الأرواح المعذبة المقهورة هي التي تملك العفو والغفران. حدّثها عن قلقه على سماح، وعن توقه لعوالم أخرى

t.me/yasmeenbook

وكواكب بعيدة لا حرب فيها على الأقل، "أخبرتني سماح أنكِ حين سمعتِ بإصابتي على الحاجز، ابتهلت إلى الله: "روحي فداء لروحه" ليتني رحلت وبقيت أنتِ يا أمي، على الأقل كنت شهيداً إلى جانب رفاقي، إلى جانب أحمد على الأقل، أبو ماهر مازال يحتاجك يا أم ماهر، وكذلك سماح. حين حجبت دموعه الرؤية، رفع يدها ومسح دموعه بها كما اعتادت أن تفعل، وكأنه يحاول استحضار ماضٍ طفوليّ باتت استعادته صعبة بل مستحيلة.

"حرام عليك يا ماهر، إنك تؤلم روحها بهذي الطريقة، كفى بكاء أرجوك، إنّها تسمعك وتشعر بك" ظنّ أنّه يهلوس حين سمع صوتها، التفت ببطء وما زال يحتضن يد أمه، رآها، تقدمت خطوتين باتجاهه، كانت متشحةً بالسواد، ملامحها تنضح حزناً. نظر إليها دون أن يقول شيئاً.

"أخبرتهم أنها خالتي كي يسمحوا لي بالدخول، أردتُ أن أكونَ إلى جانبكَ، فقد علمت أن سماح لا يمكنها أن ترافقك وتترك والدك." قالت سلاف بصوت منخفض، ثم تابعت: "أتعلم! كل الذين رحلوا عنّي استعجلوا قبل أن أودّعهم، أغبطك فلديك الوقت الكافي لوداعها"، لاحظ ماهر جفنيها وقد بللتهما الدموع، أمس كانت سلاف بالنسبة له الأنثى التي يعشقها ويحلم بحياتهما معا، أما الآن فهو يراها الرصيد الأخير لوجوده وتوازنه، الورقة الأخيرة في لعبة القدر القاسية. نهض عن الكرسي جلس على طرف السرير وأشار لها بيده كي تجلس مكانه. جلست سلاف بهدوء مستسلمةً للشعور الغريب الناجم عن دفء ماهر الذي احتفظت به الكرسي ونقلته إليها، "المدفأة البشرية" هكذا كانت تدعوه أيام الدراسة، لطالما حرص على أن يسبقها في الجلوس على مقعد الصفّ في أيام الشتاء قارسة البرودة

t.me/yasmeenbook

في حمص، وكان لا ينهض حتى تصل. حين تذكرت ذلـك أرادت أن تبكي وتضحك معاً لكن الصمت كان الرابح السائد للحظـات، إلى أن اخترقه صفير أحد الأجهزة الذي أعلن ابتداء العهد الرحيم بـأم مـاهر، الرجيم بأسرتها.

t.me/yasmeenbook

من لا يخفق قلبه للحب بصدق، لن يشمئز قلبه من البشاعة التي هي الحرب والمرض والأنانية والقسوة

غادة السمّان

سـماح

دمشق، ربيع 2018

" قتلوا أمي يـا وليـد أمـي! أمـي ماتـت في غرفـة العنايـة الفائقـة! وتطلب مني أن أتفهّم؟! كيف أتفهم؟!" صرخت سماح

"أرجوكِ كفى! لا تزيدي الهم على قلـبي، لا أحتمـل!" قـال وليـد بحزن.

"رحلت أمي مختنقـة محروقـة، وكـدت أفقـد أخـي الـذي يحمـل روحه على كفّه! أبي المقعد وأخي الآخر لم أره منذ سـنوات، وحـتى اليوم لا نعلم إن كان حياً أم ميتاً، وتقول كفى؟!".

"إنّها السياسة يا سماح!" قال بصوت مخنوق.

"السياسة؟!هل تريدني أنْ أنتظر حـتى أخسـركَ أنـتَ أيضـاً لأقـول عادي إنّها السياسة؟! لا تهمني الأحزاب ولا التنظيمـات والاتجاهـات المتصارعة، لماذا أدفع ثمن ذلك؟ تباً للسياسة وللسياسيين وللمصالح وللحروب، لا يعنيني ذلك كلّه".

"لكننا نعنيهم يا سماح، أنا على الأقـل، أنـا أعنـيهم كـثيراً، الآن أكثر من أي وقت مضى أعنيهم، افهمي ذلـك جيـدا، أرجـوكِ!" قـال وليد

سماح التي لم تكن قادرةً بعد على استيعاب الفقد، والتي لم تكـن لتصدّق أنّها حقاً يتيمة الأم الآن؟! لم تفقد أملـها بعـودة أخيهـا سـلام لحظة، بل على العكس كان انتظارهـا لسـلام وأملـها بعودتـه يشـتد،

t.me/yasmeenbook

لا سيَّما بعد رحيل والدتها، لم يكن حديثهما يومها يشبه الجو الهادئ بعد أيام من ضجيج القذائف. وقع أقدامهما على الأرصفة الحجرية في الشام القديمة كان مسموعاً بوضوح، لكنه كان مضطرباً وقلقاً. وصلا مقهى المملوكية، الذي يفضلانه عادة، في باب توما، كان مزدحما بالشبّان والشابات على نحوٍ لا يشي بحربٍ تجتاح البلاد.

أخذت مكانها المعتاد على طاولتهما في المقهى، علّقت حقيبتها على ظهر الكرسي واقتربت إلى الأمام قليلاً وهمست لوليد: "تعال نغادر هذا الجو الآسن، تعال نهجر ذاك الوباء يا وليد، اهجر السياسة كلها، دعنا لا نتدخل بما يحدث، دعهم لما يحلو لهم ولنحيا ما نريد بعيداً عن كل صراعاتهم، ما شأننا نحن؟ لن نصلح الكون إن بقينا، ولن نفسد شيئاً لو انسحبنا! صدقني!"

"حتى لو هجرنا السياسة لن تهجرنا، ذلك قدرنا، نحن أبناء الشرق الأوسط، أبناء سوريا، السياسة ملحنا وخبزنا، نحن نتنفس سياسة!".

ردت سماح: "ما الذي تقصده من هذا الكلام؟! هل يمكن أن نبقى على هذه الحال من الخوف والقلق والذعر؟ ألا يكفينا كل ما حولنا؟".

حين قالت سماح ذلك، تنهّد وليد طويلاً بتعب ومسح جبينه مغمضاً عينيه بشدة ثم فتحهما وتنحنح واقترب من طرف الكرسي في جلسته وكأنه يريد أن يقول ما كان لا ينوي أن يقولَهُ، ثم استجمع قواه وبدأ بالكلام بصوت منخفض وهو يتلفت حوله يمنة ويسرة كمن يتأكد أن ما من أحد يراه أو يسمعه: "اسمعي يا سماح! اسمعيني جيداً وافهمي ما سأقول! إن علموا بانسحابي سيكون مصيري كمصير العشرات قبلي ممن فارقوا الحياة لأنهم فعلوا ما تطلبينه أنتِ الآن منّي، ظنّوا كما تظنين أن الأمر سهلٌ وأنه سيتم نسيانهم بعد أيام بمجرد غيابهم عن الاجتماعات الدوريّة وعن الجامعة وأن الآخرين سيتركونهم وشأنهم. أنا ميّتٌ.

t.me/yasmeenbook

سأُقْتَلُ! هل تسمعين سيقتلوني إن تركتهم! وإن بقيت معهم ستقتليني أنتِ، لن تحتملي ذلك، أنا أعرفكِ يا سماح، لن تقبلي نفسكِ عاشقة لمن يعمل مع من قتلوا أمك وأهلك وتسببوا في شلل والدك وخطف أخيك وإصابة أخيك الثاني، ستهجريني يا سماح، افعليها الآن وارحميني لا تؤجلي موتي! لن أنتظره!" قال وليد.

صمتت سماح ثوانٍ وعلى وجهها حيرة وقلق باديان.

"أنت لا تعلمين حقيقة الأمور! هذه حرب يا سماح لا تحسب بالعواطف، ولا تقاس بالأفراد، للحرب معايير تختلف عن كل المعايير التي عرفناها، حتى لقاءاتنا يجب أن تكون أقلّ وأن تأخذ منحىً آخر، أنا أخشى عليكِ كثيراً من القادم".

"عواطف؟ وهل بإمكانك أن تفقد عائلتك ويبقى عقلك سليما؟! ولماذا نفترق أليس الأولى أن تفترق أنت والسياسة ؟ أم أنّكَ تبحث عن سبب كي لا نكون معاً!".

"أنتِ مجنونة، الأمر أكبر مما تخيلين بكثير، كبّري عقلك أرجوكِ، أنا متورّط يا سماح متورّط، ومع من؟ مع تنظيم جبهة النصرة!!" قال وقد أطلقت حنجرته زفرةً أليمةً.

تجمدت في مكانها كمن لم يصدّق ما يسمع، لكنّها لم تستسلم: "انسحب يا وليد، انسحب من ورطتك، صحح خطأك! أتذكر حين كنا جميعاً في ذاك المقهى وتحدثت عن خوفك على العقل؟ أتذكر؟! قلت حينها أنك تعبت على عقلك كثيراً حتى أصبح على هذه الصورةً، لا يمكنك تدمير عقلك بهذي البساطة؟! يمكننا أن نغادر المكان كلّه، ونتنقل، نهرب بالبر بالبحر، نطير لا أدري كيف وإلى أين! لكن لابدّ من حل مناسب، لا يمكن أن نموت بهذه الطريقة" قالت مترجيةً.

"ليتني أستطيع ذلك، لا يمكنني الانسحاب، الطريق الذي اخترته

t.me/yasmeenbook

لا رجعة فيه، ولا أريد أن ألقى مصير غيري، سيرسلون أحد أصدقائي لقتلي كما أرسلوني مسبقاً لقتل جميل ضرغام حين انسحب من التنظيم!"

حين شهقت سماح واضعة كفيها على فمها، انتبه وليد أنه اعترف أمام سماح أنه قاتل جميل، ودون أن يعلم أن هذا سيزيد الأمر تعقيداً نظراً للعلاقة الجيدة التي تربط سماح بسلاف وأسرة أبي جميل.

"أنت؟ أنت قتلت؟ جميل ضرغام؟ أتقصد جميل نفسه؟ ابن العم أبو جميل، أخو سسسس، أخو سلاف؟" ابتلعت ريقها وقالت ذلك متلعثمةً.

لم تصدق سماح ما سمعت، شعرت بدوار، حاول وليد البحث عن مخرجٍ مما أوقع نفسه به، لكنه فشل. فلم يكن من خيار أمامه سوى الاعتراف الصريح، فحين ترى اللحظة الكارثية آتية لا محالة، فالخيار الأفضل هو أن تهرب، لكن إلى الأمام، وأن تهروِلْ نحوها، وتستعجل قدومها خيرٌ من انتظارها.

نظر في عينيها فأخذ القلق والارتباك في ملامحه يتحولان تدريجياً إلى قوة: "نعم يا سماح أنا قتلته، قتلت جميل ضرغام، فشلت محاولتي الأولى، فقد ظننت أنه في إجازة بحمص وتسللت إلى منزلهم من نافذة المطبخ، وحين اكتشف العم أبو جميل أمري تعاركنا، لم أظنه قويّ البنية، يبدو نحيلاً لكنّه صرعني ولحق بي، سلمني إلى الشرطة وسجنت وخرجت بكفالة، وعدتُ بعد سنة وشهرين لأقرع باب منزلهم، وسهّل عليّ المهمة بأن فتح لي الباب، وقتلته، نعم قتلت جميل. لقد انسحب باكراً من العمل معنا، قرر المغادرة حين وجد أن الأمر أكبر من احتجاجات شباب متمرد يريد الحريّة، كان شجاعاً وكنت أنا الجبان، وكان الثمن حياته" أطرق رأسه.

تعرّقت راحتي يديها وتسارعت أنفاسها وهي غير مصدقة ما سمعت وقفت ثم عادت إلى كرسيها تتلفت حولها وتنظر في وجهه ملياً وكأنها تنتظر أن يقول لها أنّ كل ما سمعته لا يعدو أن يكون مزاحاً ثقيلاً. وهذا للأسف ما لم يحدث، روى لها وليد كيف تم الزّج بالعديد من الشبان في تنظيمات تنادي أحيانا باسم الحرية، وكثيراً باسم الله، وهي من الاثنين براء، كانوا ينادونه بالمثقف، ويكلفونه بمهام عديدة كأن يفوضونه في صياغة قراراتهم ورسائلهم وأن يدقق اللغة العربية لبياناتهم. لكنه لم يتخيل يوماً أن توكل إليه تلك المهمة السوداء.

"لم أعرف النوم منذ ذاك الحين يا سماح! اختاروني لأنني صديقه ! هل تدركين معنى ذلك؟! هل تخيلتِ بشاعة ذلك؟ تخيّلي أنك تقتلين إحدى صديقاتك هيا حاولي أن تتخيلي ذلك! هيا!".

كان يتحدث بطريقة هيستيرية وسماح لا تجيب، ووليد يتابع:

"وحين علمت أن أباه توفي مباشرة في الليلة ذاتها لصدمته بمقتل ابنه، رأيت أنني قاتل الاثنين معاً، وشعرت حينها أنني انقلبت فجأةً إلى حشرةٍ قذرةٍ، وحين علمت أن أخت من قتلتُ صديقتك، احترقت يا سماح، تباً لهذي الدنيا ما أضيقها رغم اتساعها! تباً للألم الذي يأبى أن يفارقنا رغم براح الكون!".

حكى لها كيف كانوا ضحايا ساذجة لم يدركوا اللعبة وأسرار اللعبة والخفايا إلا بعد فوات الأوان، حدّثها بحرقة عمن لقوا حتفهم بالطريقة نفسها وممن ظنوا أن الأمر من السهولة بمكان أن ينسحبوا حين لا يحلو لهم الأمر، حدّثها عن الصداقة العميقة والأيام الطويلة التي جمعته بجميل في السكن الجامعي بجامعة دمشق. حدثها كيف يمكن للإنسان أن يتحول من مفكرٍ وكاتب إلى إرهابيّ، ومن شاعرٍ

إلى قاتل، ومن ليبرالي إلى تكفيريّ، والأقسى أن يفارق الإنسانُ الإنسانَ فيه، ويتحوّل إلى شيء بل إلى لا شيء، ويقتل لا الآخر فحسب بل يقتل الإنسان داخله حين يقتل الذنب، ويتوقف عن الإيمان بأيّة قيمة إلا بمبدأ واحد اختير له، تسقط أمامه كل المبادئ الأخرى والقيم الأخرى والفضائل والمثل، وتسقط الأفراد والشعوب، ويسقط هو في النهاية. حدثها كيف يصبح غريباً عن محيطه ووطنه وأرضه وأهله ورفاقه وكيف يصبح غريبا عن ذاته التي اختفت لتحضر مكانها ذات جديدة غريبة عنه كل الغرابة. "وكأنني كنت منوّماً مغناطيسياً وكأنّما يحركني أحدهم بجهاز التحكم عن بعد. لكن لا أجرؤ على الاعتراض، ولا أنا بقادر على المضي قدماً ولا الانسحاب. هل تعرفين ما الذي يعنيه أن يقتل المرء شخصا آخرَ بقلب بارد؟!" قالها وقد اجتمع في وجهه الثلج والنار معاً.

سماح المصدومة والمندهشة لم تستطعْ أن تتفوّه بكلمة واحدة. كانت تنصت فقط إلى ما يقول، حتى البكاء كان عصياً تلك اللحظات، لم تكن تعلم ما الذي يمكن أن يكون عليه موقفها وقرارها من هذا كلّه، وما الذي يمكن أن ينتهي إليه هذا النقاش الدامي، وماذا سيحمله الغد لوليد ولها ولوطن يتم تشويه وسرقة أهم وأجمل ما فيه. صوت والدتها كان يرن في أذنيها وكلماتها تقول: "أريدك أخت الرجال، ستكونين قادرة على مواجهة كل ما يمرّ بك".

فقدت الأمل في إقناعه، نظر وليد في عينيها، كانتا حينها خاليتين من أي تعبير وأي معنى، وبدت كأنّها تمثال شمع. قبل لحظات كانت كالغريق الذي لم يفقد بعد الأمل في النجاة، فتراه يخفق بيديه ويخبط برجليه محاولاً زيادة فرصته في الحياة، وفي لحظة، أدرك أنه ما من جدوى من محاولاته كلّها للنجاة، فاستسلم للغرق متخيلاً ما سيكون

t.me/yasmeenbook

عليه بعد ساعات: جثةٌ صامتةٌ ساكنةٌ خاليةٌ من الحياة، منتفخةٌ بالماء فارغةٌ من الوجود ممتلئةٌ بالعدم، تطفو على سطح العبث. هكذا هي سماح الآن.

كي ينجو كان قلبه يستجدي منها رداً وعيناه تكابران، حاول أن يستفزَ ما بقي بداخلها لوليد السابق : "أعلم أنّك لن تحبيني بعد اليوم وأنّك تكرهيني الآن، وأنّك تودّين قتلي انتقاما، أعلم أنّني بنظرك الآن أقذر كائن على وجه الأرض! أنتِ تحتقرينني نعم، أعلم أن وليد الرائع المثقف المبهر هو تمثال ثلج صنعته سماح الطفلة، وهاهو ينهار، فقد سطعت الحقيقة وعلمتِ عني كل شيء وانصهرتُ أمامك يا سماح ذبتُ وسقطتُ وها أنا أتهاوى، أنا حقاً أتهاوى، أنا أنهار، أصبحت لا شيء، رجل بلا مشاعر، بلا إحساس، بلا مبدأ، بلا ماض وبلا مستقبل، أنا شخصٌ وضيعٌ يا سماح، أنا لا شيء، حشرة أنا يا سماح! حشرة".

كم تمنى أن تقاطعه، أن تصرخ، أن تصفعه، أن تقول له أنّه ليس كذلك، وأن وليد مازال في عينيها وقلبها كما كان، وأنّها تبرر له ما حدث، كم تمنى أن تطمئنه أنّه ليس قاتلاً وأنّها لا يمكن أن تراه كذلك. أشعل سيجارة بعصبية شديدة وأصاب حركته اضطراب كان خارج سيطرته، سحب شهيقاً من سيجارته ثم زفيرا عنيفا ثم شهيقا تلاه زفير، ورمى سيجارته أرضاً ودهسها بعنف والذاكرة تعود به أعواماً إلى لقاءٍ في دمشق القديمة مع سماح.

"أتعلمين أن اسمكِ جميل جداً؟! حسناً يقولون أن لكل امرئ من اسمه نصيب، ترى كم يبلغ نصيبي من سماحك يا سماح؟ هل تسامحين؟"

"أسامحكَ على كل شيء، إلا الخيانة، فإنّها خط أحمر!".

t.me/yasmeenbook

نفض عنه غبار الذكرى بسرعة وناداها: سماح!.

أرادت أن تجيب، لكنها لم تقوَ على الكلام، وما كان منها إلا أن نهضت عن كرسيها، تناولت الحقيبة، استدارتْ وخرجتْ من المقهى ومشتْ، قدماها المتثاقلتان في المشي، حقيبتها المعلقة بكتفها دون أن تغلقها، فنجانها الذي برد على الطاولة دون أن تأخذ منه رشفةً واحدةً، سترتها المتروكة على الكرسي مع ما تركت خلفها من سماح القديمة، ومن وليد، كل ذلك كان ينضح بالخيبة، تابعت المشي وتبعها وليد دون أن يعلم ماذا عساه أن يفعل، ناداها لم تجبْ، أخذ يصرخ : "قلتُ لكِ أنني ميت سواء بقيتِ أم مشيتِ، قلتِ أنك تسامحين ولم تفعلي، أنت كاذبة ..كاذبة، كذبتِ عليّ، كنت صادقاً وكذبتِ، ولم أخنكِ ولم تسامحي، لم أحبّ إلاكِ، أنت لم تحبيني، أنا لا شيء أنا ميت، أنا حشرة وأستحقّ أن أُسحقَ ويدوسني الجميع، كلكم تسحقونني بأقدامكم!"

التفتت، أطالت النظر في عينيه، لشدة اضطرابه لم يستطع لأوّل مرة مذ عرفها، أن يترجم ما قالته عيناها، وهل كانت تعفو وتسامح، أم أنّها تعبئ مؤنة لشتاء قلب طويل؟!.

t.me/yasmeenbook

في الحرب الجميع أسرى...

أورسولا لي جوين

t.me/yasmeenbook

سلاف

حمص، ربيع 2018

ما زالت المدينة الجميلة المعروفة بطيب سكانها وحسن معشرهم تشيّع أبناءها ممن ذهبوا ضحية التفجير الإرهابي في ديسمبر 2017، عكرمة[1] حزينة وحمص حزينة، النار لا تميز بين مؤمن وكافر، وأقليّة وأكثرية، ورجل وامرأة، وشاب وشيخ، ومذنب وغير مذنب، عشوائية الموت وعبثية الأقدار مسألة لا يمكن أن يناقشها أو يفسرها منطق الحرب القائم أصلاً على اللا منطق. ومتى كانت الحروب منطقية أصلا؟!.

في سريرها، لم يكن لديها من النشاط ما يجعلها تنهض بسرعة كالعادة، منذ زمن لم تطل البقاء في السرير كما فعلت هذا الصباح، إنّه شباط فبراير 2018 وها قد مرّت سنوات خمس على رحيل أبيها وأخيها، وقت كافٍ لتدرك سلاف بعد كل ما مرّ بها، أنّ الحرب لا تخلق الوهم لأن الوهم موجود أصلا، لكن الحرب تسلط الضوء عليه أكثر، فيصبح كل ما يعيشه الإنسان محض وهم وكل ما يقرره محض هراء! وكلّ ما يتعلق به هباء منثور! الحب؟ الصداقة؟ السعادة؟ الفضيلة؟ أين حبّها الآن؟ كانت أسعد شابّة في العالم؟ وحين هجرها ماهر تحوّل سرورها في غضون ساعات أو أيّام، إلى خيبة ووجودها إلى شتات؟!.

---

(1) من الأحياء المشهورة في حمص والتي شهدت أعنف التفجيرات في سنوات ما سمي بالربيع العربي

t.me/yasmeenbook

استمتعت بشرودها وسلّمت تكاسلها لأفكارها: "ما الذي يمكن أن يبقى من الحب، إن كان العاشق يتقن الانسحاب وبلحظة يمضي هكذا ببساطة؟! وكيف لك أن تصدق قلبك بعد الآن حين ينبض فرحاً وكيف ستثق بصوته حين يهمس لك في عزلتك؟ أيّ ألم أن تكون دائم الحيطة؟ وكيف يفسد الحذرُ الفرحَ؟ وأيّة حياة تلك التي تمضيها وأنت قلقٌ فاقدَ الطمأنينة والسكينة؟ وهل الحياة إلا كل ذلك معاً؟ أين سهر التي خطبها ماهر؟ وأين والدته التي خطب سهر كي يرضيها؟ يا إلهي كم نحن محض أوهام؟ أين أم هشام التي لم تتعلق بشخص في حياتها قدر ما تعلقت بها؟ ولم يؤثر مخلوق في أفكارها كما فعلت؟! التي كان ذنب سلاف حيالها يجثم على صدرها كالصخر حين عرفت من هو هشام، وما الذي يعنيه بالنسبة لزينة الطفلة التي تحضر حين يحضر ذكره؟ فكيف إن حضر فيزيائياً؟ أم هشام التي رحلت قبل أن تصارحها سلاف بحقيقة مفرحة!؟ "أين الجميع الآن؟ وأين أنا؟ ماهر هنا وهشام هناك وجوان بينهما وأنا لا أريد إلا الطمأنينة والهدوء".

"صباح الخير يا ابنتي، ظننتكِ خرجتِ" قالت أمها بصوت حانٍ وقد أطلت برأسها من باب غرفة سلاف نصف المفتوح متوقعةً أن تسمع: صباح النور.

"أخبريني يا أمي، أيتصارع الجميعُ ضد الجميعِ ويؤذي الجميعُ الجميعَ، ثم تنتصر الوحدة والعزلة وتكون المصير الأخير؟ لماذا يحدث هذا لنا؟" فوجئت والدتها بكلامها فاقتربت منها وجلست على طرف السرير، عدلت سلاف من جلستها بحيث أسندت ظهرها على خشب السرير، وثنت ركبتيها.

"اسمعي يا ابنتي!" وضعت أم جميل كفها الممتلئ الذي لم يترك للتجاعيد مكاناً، على ركبة سلاف وقالت: "لا يمكننا أن نعلم ما

t.me/yasmeenbook

تخفيه الأيام لنا، لو كنت أعلم أنني سأختطف في عدرا وأن والدك رحمه الله وسامحه..." صمتت مختنقةً لأكثر من سبب، ثم تابعت: "ولو كنت أعلم أنني سأفقد زوجي وابني في اليوم نفسه وأن ابنتي سيكسر قلبها شابٌ أحبّته كما لم تحبْ فتاة من قبل، لو علمت أن الحرب قدرنا الدائم وأني سأمضي بقية عمري وحيدة كما ترين، لو علمت هذا كلّه، لانتحرت قبل أن أشهده، لكن أمي رحمها الله علمتني أنني ما دمت نقيةَ القلب صافية النوايا ستثيبني الحياة لا محالة، مهما تأخّر الفرج لكنّه قادمٌ، لا تقلقي يا سلاف! لا قلق يا حبيبتي! ما يليق بكِ قادم لا محالة" قالت بابتسامتها الرقيقة الطيّبة وهي تمسح بيدها على ركبة سلاف بينما سلاف تحدّق في وجهها وكأنها لم ترها منذ زمن.

"سترافقيني اليوم إلى المشغل" قالت سلاف بلهجة آمرة.

***

أحد الكرسيين في حديقة مشغل سلاف بات فارغاً يحمل عبق من كانت تشغله. قداحة السجائر التي نستها أم هشام عند سلاف في الزيارة الأخيرة لها أصبحت التحفة الأهم في المشغل. الأريكة الحمراء صارت أهم مقتنيات المشغل وممنوع أن يجلس عليها أحد وكأنها تنتظر عودة أم هشام يوماً ما من عوالم أخرى.

والدتها التي صارت ترافقها إلى المشغل يومياً، اعتادت أن تحضّر لها قهوة الصباح، ثم فطوراً خفيفاً، وترتب لها القماش وتستقبل الزبائن بدماثتها المعهودة، وتساعد في العمل قدر المستطاع، كأمّ كانت تشعر بمسؤوليتها تجاه حزن سلاف العميق، هذه المرة لم تنتظر أن تطلب منها سلاف المساعدةَ، فهي أصلاً لم تعتدْ ذلك. تبعتها إلى الحديقة اقتربت من كرسي أم هشام الراحلة، حين همّتْ بالجلوس ترددت وقالت لسلاف:

t.me/yasmeenbook

"أتسمحين لي بالجلوس هنا يا سلاف على كرسيها، رحمها الله!" قالت منتظرةً جواب سلاف.

إن أمكن للكلمات أن تكون صفعات فإن ما قالته أم سلاف تلك اللحظة، كان من أقسى ما تلقته سلاف خلال حياتها كلها، إنها المرة الأولى التي ينتاب سلاف فيها شعور لم يسبق لها أن عرفته، سنوات وهي غير منتبهة إلى ما يمكن أن يفعله حبّها لسيدة هي معلمتها، في قلب سيّدة أخرى هي أمّها والدتها. بقدر ما كانت عبارة الأم التي قالتها أم سلاف بسيطة وبريئة، بقدر ما استحضرت كل تعقيدات وتشابكات حياة سلاف دفعة واحدة، وبلحظة، وبقدر ما كانت لهجة الأم واضحة وجليّة، بقدر ما استطاعت أن تمخر عباب روح سلاف إلى الأعماق لتطفو على السطح مباشرة أمورٌ لم تكن بحسبان الشابة الجميلة الفاتنة مصممة الأزياء المحبوبة ذات الطالع السيئ. العتب الهادئ الخفي والمؤلم الذي ضجت به حروف والدتها، محاولتها مقارنة نفسها بأم هشام، استئذانها سلاف بالجلوس، وكأنها ترتجي منها أن تتوجها على عرش قلبها وأن تحبها كما أحبت أم هشام، تعطلت حروف سلاف تماماً أمام عيني أمها ونظرة الترجّي البريئة التي رأتها فيهما والتي تنوس بين ابتسامة قبول وتوجّس الرفض، كان باستطاعة سلاف أن تجزم أن أمها تتوقع رفضها، والأقسى أنها كانت متأكدةً أن ذلك لن يحزنها وفوق ذلك أنها ستجد لسلاف ألف عذر، وستتعايش مع فكرة أن ابنتها لا تراها في مكانة سيدة أخرى ومكانها، ومع فكرة أخرى أقسى وأشد وطأة على روحها هي أنها الأمّ التي فشلت في إحداث الأثر الذي أحدثته امرأة علّمت ابنتها، مع أسرار مهنة، بعضاً من أسرار الحياة.

أكثر ما كان يؤلم سلاف هو تأقلم والدتها مع فكرة أن تكون مرفوضة،

t.me/yasmeenbook

ومسروقة القرار، ومسلوبة الإرادة ومهدورة الحقوق حتى دون أن تعترض أو تحتج، وكأن التقدير والاحترام أشياء لم تخلق لها وكأن نصيبها من الحياة والناس يقتصر على تهميش وجودها وتبخيس قيمتها، وتجاهل شعورها. وكأن والدتها لم تقل: "لا"، يوماً. تلك الطاعة الخرقاء آلمت سلاف كثيراً، لم تستطع أن تتقبل انكسار أمّها! وتعايش أمها مع هذا الانكسار، لكن كيف لا تكون منكسرة ولم تجد من يسندها حين اختار القدر أن يتركها تواجه العوائق كلّها وحيدةً حتى من يد شريك حياتها ورفيق دربها الذي خوّنها، فمات في عينيها قبل أن يموت بزمن.

ولماذا تلوم والدها؟ ما الذي قدمته هي كإبنة؟ ألم تقل الأم ذاك الصباح أنها وحيدة!.

عبارةٌ واحدة فقط من أمّها كانت كافية لتجري مسحاً على سنوات مضت وعلى وعي سلاف ولا وعيها، تساءلت كيف لم يحدث أن التفتت إلى تقصيرها. راحت تتساءل كيف لم يخطر لها أن الأدوار بين الأهل والأبناء تتبادل، وكيف فاتها أن اللحظة التي يتوقف فيها الأبناء عن الاتكال على أهلهم متجهين نحو المستقبل، هي بعينها اللحظة التي يحتاج فيها الأهل ليد الأبناء في إيابهم نحو طفولة الروح، ليس أمامهم سوى انتظار حتفهم، وقد غدت الحياة خلفهم وأيامهم في عدٍ عكسيّ إذ صار غدهم أمساً.!! يقظتها المتأخرة، أيقظت بداخلها ألماً وذنباً.

وراحت تتساءل لماذا لم يحدث أن طلبت أم هشام مرة واحدة أن تلتقي بأمها خارج مصادفات الأبواب القليلة والبسيطة التي كانت تجمع الثلاثة إما على باب المشغل أو على باب البيت ومرات قليلة جداً في السوق! وكيف لم يحدث أن نبّهتها أم هشام مرة واحدة على الأقل إلى أمها الوحيدة المنكسرة المنكفئة على نفسها ؟! كيف لم تشعر سيدة بسيطة مثلها عانت ما عانته من نبذ المحيط الجلّاد ؟ كيف

t.me/yasmeenbook

لم تتعاطف امرأة مع امرأة أخرى نسي الناس أن لها اسماً ولقبوها بالمخطوفة وابنتها، بابنة المخطوفة، اللقب الذي بسببه خسرت حبها حين هجرها ماهر لفئران الوقت تقضم أيامها في انتظارات عبثية وتشظٍ للروح مؤلم في بطئه فلا الموت يجهز عليها ويريحها ولا الحل يلوح في الأفق!.

ليس هنالك من شك أن سلاف الشابة كانت منبهرةً بالسيدة الماهرة في الخياطة والخبيرة في الحياة التي تحدت ظروفها وكانت تقارنها بأمها المقهورة التي لا رأي يطاع لها ولا أمر ولا نهي، والتي لم تتمكن من مواجهة ظروفها كما فعلت أم هشام، التي لا يمكنها مهما تعاطفت مع أم جميل والدة سلاف أن تكون مكانها، سلاف كانت الابنة التي منحت معلمتها كل ما يمكن أن تمنحه الابنة إلى الحد الذي بدت معه وكأنها تسرق لأم هشام حصة أمها من الحب والحنان والرعاية والاهتمام، حتى حصتها من الوقت كانت مسروقةً من أمها لأم هشام. في الوقت الذي يفترض المرء أن تشابه ظروفه مع غيره سيفضي إلى الوئام والتفاهم، فإن الحقيقة أن العكس هو ما يحدث غالباً، خبرات متشابهة تقود إلى التنافس والصراع إلى حد تصبح فيه كثرة القواسم المشتركة بين الأفراد نقمة ولعنة عليهم أحيانا وسبباً هاماً في نفورهم وابتعاد بعضهم عن بعض كأقطاب مغناطيس يتنافر فيهما المتماثلان.. وسلاف تعرف أم هشام جيداً، لن تفضل امرأة مثلها أن تتعرف بسيدة مثل أم جميل، لأنها ببساطة لا تتقن الضعف، ولا تريد من يذكرها بتجربتها، كما أنها لا تحتمل البكاء على جروحها القديمة.

تذكرت سلاف ما سمعت عنه مرةً عبر الراديو حول رفض المصابين بالاضطرابات النفسية والسلوكية الاجتماع بمن كانت لهم تجارب مشابهة، ويؤثرون التعافي وحيدين بعيدا عن نظائرهم، هذا ما تفهمه

t.me/yasmeenbook

سلاف جيداً، لكن أن تبتعد أم هشام عن أمها شيء وأن تتسرب عدوى الابتعاد إلى سلاف ذاتها شيء آخر. لطالما كانت سلاف تعلم أن الغيرة ليست حكراً على العاشق، فالغيرة في الصداقة ليست أقل ألماً، وجروح الصداقة ليست أقل عمقاً من جروح الحب، أما جروح الأمومة فهي أعلى الجروح لأنها عالمٌ آخر بل أكوانٌ مكوِّنة.

شُلَّ تفكيرها تماماً، ولم تجد كلاماً فتركت مهمة التعبير لجسدها الذي هرول بها إلى من احتضنتها بقوة كمن استعاد كنزاً كان قد تاه عنه ومنه، لكن ضمة الأم القويّة حرّرتْ صوتَ ابنتها: "الكون كله تحت أمرك يا ماما، تحت رجليكِ، لا الكرسي فحسب، أنت الملكة هنا من الآن!" كانت قبلات سلاف لراحتي أمها مخنوقةً بالدمع تماماً كحنجرة صاحبة الراحتين.

* * *

يقولون أن "الأصعب من أن تفارق الحياة هو أن تفارق رغبتك في الحياة وإرادتك على تحدي مصاعب الحياة." استدارت نحوه حين سمعت صوته الجهوري الواثق. رغم حزنها العميق على أم هشام إلا أن ابتسامتها تسللت إلى سطح جرحها، وهي تمدّ عنقها مرحبة بالقادم بعد غياب.

"غيرتِ اسم مشغلك من سلاف إلى: زينة؟!" سألها هشام.

"هذا أقل ما يمكن أن أفعله إزاء معلمتي رحمها الله! أهلا بك تفضل" ردت سلاف بصوتٍ يتظاهر بالرضا بينما صمتها يضجّ بالعتب. يداها منشغلتان بإزالة بعض الأعشاب الضارة من بين زهور حديقتها.

" الله يرحمك يا زينة! أوجع قلبي رحيلها المبكّر، الله يرحمها" قال هشام بحرقة.

t.me/yasmeenbook

يبست يداها فوق العشب التفتت إليه سلاف مندهشةً فثبت عينيه في عينيها، صمتا لثوان، لم تكن كلماته هربت من لسانه، وإنما كانت فاتحةً لحديث هام: "سلاف! لدي شيء لكِ، لكن قبلِ ذلك، يجب أن تعرفي سبب غيابي الأخير، إن يهمك ذلك طبعاً، كنت مجبراً صدقيني" كانت سلاف تنصت منتظرة المفاجأة التي تشي بها لهجته في الحديث.

"أرجوك أكمل، تفضل بالجلوس ولنكمل حديثنا! ما الذي تريد قوله؟! وبلا مقدمات لم أعدْ أحتمل مفاجآت". قالت بترقب وقد استنفرت حواسها جميعاً، وضعت المقص العشبي الصغير جانباً وجلست على كرسي فاقترب هشام وسحب كرسياً آخر جلس قبالتها في الحديقة، وضع على الطاولة مفاتيح سيارته وجوّاله ونظارته، عدّل من كرسيه مرتين أو ثلاث، تنحنح:

"ربما أكون شخصاً جمعتك به مصادفة، زوج زبونة كنت تخيطين لها فستانا وانتهى الأمر! ربما أكثر من ذلك! أو أقل، لا أدري لكن ما أعرفه هو أنني لا أجد مخرجاً لما أنا فيه الآن! وكأنك إحدى رسائلي في الوجود مثلاً أو كأن هناك مهمة علي أن أقوم بها عن طريقك أنت، الوضع ليس سهلاً، أتفهميني سلاف؟!"

"تابع كلامك أرجوك! ربما أفهمك أكثر حين أسمع المزيد" ردت سلاف بهدوء.

"أنا الذي اعتبرني البعض زير نساء، أنا الذي يحتاجه كثيرون وتلاحقه كثيرات، أقابل أبرز شخصيات المجتمع السوري الفكرية والإعلامية، أعمل مع كبار التجار والصناعيين والسياسيين، أراني أمامك ضعيفا مضطرباً، أنا الذي واجهت أياماً عصيبة منذ وفاة زوجتي وابنتي معاً إلى محاولة اغتيالي التي كان نجاحها وشيكاً، أقف

t.me/yasmeenbook

أمام صدق الأنوثة الذي تحملين وأمام صدق ما بداخلي لك، قلِقاً مرتبكاً. أتعلمين! إنّ أصعب ما يواجه الرجل هو أن يعشق امرأة تحمل ذاكرة حزن! وحاضرها يتفوّق في حزنه على ماضيها تماماً كما تفوقت في نضجها".

"مهما يكن من أمر، يهمني أن أعرف سبب غيابك المفاجئ! أين كنت لأكثر من شهرين يا هشام؟! وما الذي تقوله حول محاولة اغتيال؟!" سألت باهتمام.

كان هشام يعلم أن كل ما يهم سلاف تلك اللحظة هو أن تعرف أين كان غائبا لشهرين دون أي شكل من أشكال التواصل! وهل كان قبل ذلك يلهو ويراهق! وكان يعلم كذلك أنها لن تسمع شيئاً قبل أن تعرف سبب انقطاع تواصله، وأن آخر ما يمكن أن تتوقعه الأنثى في هذه الحال هو أن السبب كان العمل أو الحرب أو خطر ما، في حين أن وجود امرأة أخرى هو أول احتمال وهو التوقع الأكثر منطقية، وهذا يحدث حتى لو لم يكن هذا الرجل الغائب حبيبا، فبالنسبة لامرأة واثقة ممتلئة بذاتها كسلاف، ليس الأمر هو مشاركة أخرى قلب حبيبها وإنما هو اقتراب أخرى من مكانتها ومرتبتها، فإن لهو الرجال في تلك الحال أمر لا يغتفر عندها.

"أهلا وسهلاً، سلاف أخبرتني أن كل ضيوفها يحتسونها مثلها سادة بلا سكر، تفضل!" كانت أمها قد أطلّت من باب الصالة خارجةً نحوهما مرتدية جلابية فيروزية اللون، وعلى رأسها منديل حريري أبيض، تمشي بهدوء، وبيدها صينية القهوة وعلى وجهها ابتسامة رطيبة وبعض الارتباك، همّت سلاف بالنهوض لتناول الصينية من أمها فسبقها هشام مشيراً بيده لسلاف أن تجلس، تناول الصينية من يديها مبتسماً لها: "صحيح أني لم أقابلك مسبقاً، لكن

t.me/yasmeenbook

لسلاف عينيك ذاتهما بالتأكيد حضرتك والدتها" قال هشام متنقلا بنظره بين سلاف وأمها.

ليت لي كلٍ ما فيها، لا عينيها فقط، سلمت يداكِ ماما!" قالت سلاف معجبةً بدماثة هشام وسعيدة لخروج والدتها من جدران الماضي. استأذنتهما بالانصراف وهي تعدل من منديل رأسها بحياء عشرينية، عادت الأم إلى الداخل. جلس هشام مجدداً:

حماكما الله لبعضكما، والدتك جميلة جدا! وطيّبة، ليست شكاكة مثلك" قال مشاكسا سلاف، ابتسمت ولم تجبْ وهي تصب القهوة في الفنجانين.

تعالي سلاف، اقتربي وانظري" اقترب منها وفتح شاشة جواله وبدأ يعرض لها مجموعة من الرسائل التي تحمل عبارات تهديد من مثل:

"إن اشتقت لزوجتك وابنتك، سنلحقك بهما".

"سنسكت فمك الذي لا يعرف السكوت بطريقتنا".

وضعت فنجانا أمام هشام واقتربت بفضول تحاول إخفاءه. وبدأت تقرأ رسائل التهديد والوعيد على جوال هشام.

"لم يقتصر الأمر على رسائل الجوّال، وإنما كنت أجد على زجاج سيارتي قصاصات ورقية، وأحيانا يكتبون حتى على الغبار المتراكم عبارات مشابهة، وأحيانا شتائم بشعة وقذرة ،حتى آن أوان تنفيذ تهديداتهم إثر جلسة للحوار الوطني".

كانت سلاف منصتة بتركيز لما يرويه هشام عن الرصاصة التي انطلقت ذاك الصباح مع انطلاقته للعمل، والتي بعدت بضعة سنتيمترات فقط عن رأسه، مؤجّلةً حتفه، وبضعة سنتيمترات أخرى عن مخزن وقود سيارته، مؤجّلةً انفجارا كبيرا كان سيودي، ليس

t.me/yasmeenbook

بحياته فقط، وإنما بحياة كل من حوله. مكان الرصاصة حيث استقرت في الباب الخلفي لسيارة هشام، كان شاهداً ليس على حادثة الاغتيال فحسب وإنما على كثير من الأمور لعل أقساها الخيبة وعبثية المحاولات لإدخال النور إلى قلب الظلاميين.

"الغريب والطريف في الأمر يا سلاف أنه في الوقت الذي لا حل فيه إلا الاعتدال، تجدين أنه ليس مطلب أحد، بل هو أكثر ما يحاربه الجميع. وكلّ يزيد من تطرفه وتقوقعه وانغلاقه، حتى سجنّا أنفسنا ضمن تلك الحلقة المعيبة! كانت تصريحاتي كلها معتدلةً، أدعو دوماً في السر وفي العلن وبشكل رسمي أو غير رسمي إلى العيش المشترك وقبول الاختلاف ونبذ الخلاف، كل ذلك لم يمرّ دون أن يتم استخدامه ضدّي، لتبرير محاولة اغتيالي"

أدخلته هذه الحادثة بعدها في حالة من العزلة، لكنها ليست عزلة الكآبة بل عزلة سببها الحذر. آثر فيها أن يعزل نفسه عن التواصل والاتصال مع الأصدقاء أو الأقرباء حتى عبر الهاتف العادي. "صدقيني سلاف كنت أنوي أن أتواصل معك عن طريق شخص وسيط للاطمئنان على الأقل، لكني تراجعت، فأنا أعلم تماماً كيف تنضِج نار الحرب بذورَ الدسائس والخيانات والغدر، بحيث لا يمكن الاتكال على معرفتك الطويلة بأحدهم ولا على حدسك وفراستك بالآخرين، كما لا يمكنك الوثوق بأكثر الأشخاص محطاً للثقة، ستجدين نفسك تقطعين اليقين بالشك، والخطر يجعلك تفكرين بالأعزاء على قلبك، وهنا يزداد الأمر تعقيداً، اخترت أن أدفع الثمن الأقل رغم صعوبته وقسوته، وهو أن أغيب، على أمل أن تعذريني" تنهد بعمق بعد أن أنهى حديثه منتظراً عفو سلاف.

t.me/yasmeenbook

"الحمد لله على سلامتك، كن حذراً أكثر في المرات القادمة" صمتت لثوان مطرقة في الأرض قبل أن تسأله: "قلت لديك شيء لي! ما هو هذا الشيء؟".

كان ينبغي أن أسلمك إيّاه قبل شهرين لكن هذه الظروف التي أخبرتك عنها حالت دون ذلك".

فتح حقيبة يده الجلدية الأنيقة، وأخرج منها ظرفاً ورقياً سلّمه لسلاف، حين أمسكت به، أخذت تقلّبه على الوجهين، وعيناها تبحثان عما يدلها على محتوى الظرف، لكنها لم تجدْ شيئاً. هي رسالة وُضِعت في الظرف راحت تتساءل بينما تخرجها، هل من المعقول أن يكتب لها هشام عواطفه على ورقة كرسائل المراهقين! ولماذا لا يكمل حديثه شفاهاً كما كان يفعل قبل قليل؟! هل يعقل أن تكون الرسالة من أحد سواه؟ ربما جوان الذي لم تتح لها الفرصة أن تودّعه في المشفى ذاك اليوم المشؤوم! ربما كتب لها شيئاً قبل أن يغادر المشفى ولم يجد أمامه سوى هشام كوساطة؟! هل من المعقول أن يكون ماهر علم بزيارات هشام المتكررة للمشغل فثارت ثائرته وترك لهشام رسالة يقول له فيه أن سلاف ليست له ويطلب فيها من هشام أن يبتعد عنها مهدداً!.

"افتحي الرسالة فقط يا سلاف، هيا!" قال وهو يحاول أن يشغل نفسه بسيجارته كعادته حين يرتبك ويبحث عن مخرج لارتباكه. فتحت سلاف الورقة المطوية بعناية وأناقة.

"سلاف اقرأي بهدوء ريثما أحضر شيئاً نسيته في السيارة" قال هشام خارجاً بسرعة من باب المشغل باتجاه البوابة.

جلست سلاف على كرسيها الهزّاز وفتحت الورقة وبدأت بالقراءة:

t.me/yasmeenbook

"لا أدري لماذا فضّلت أن أكتب لك كتابةً ولم أقلْ كلامي بشكلٍ مباشر! حقاً لا أدري، لطالما سخرت من هؤلاء الذين يكتبون الوصايا وتساءلت كيف لهم أن يعرفوا أنهم راحلون حتى يكتبوا للآخرين وصايا وأسرار؟! بالنسبة لي أنا لا أعرف لكني أشعر، ربما هي الحرب، علمتنا أن ما نمسي عليه لا نصبح، والمهم أنني الآن أفعل مثل هؤلاء الذين يكتبون، سلاف لم تكوني عندي مجرد متدربة ومتمرنة على الخياطة، أنت تعلمين أنكِ ابنتي التي لم يحملها بطني، هو حمل لا يشبه الحمول العادية التي تتمنى فيها الأم أن تضع وليدها، أما أنا فلا أرغب بأن أضعك، لا أريد أن تفارقيني".

حين عرفت سلاف صاحبة الرسالة التي لم تتوقعها أبداً، سرتْ حرارة في جبينها وبرودة في أطراف أصابعها التي ترتجف ممسكةً بالرسالة. تابعت القراءة:

"رأيته يا سلاف! رأيت هشام وعرفته يا حبة قلبي! " شهقت سلاف حين قرأت هذه الجملة وضعت يدها على فمها ورفعت عينيها عن الرسالة تطالع بنظرها أنحاء الصالة، مرتبكة خجلى وكأنّ أم هشام حاضرةٌ الآن أمامها، ثم عادت إلى القراءة:

"رأيته ورآني وتعرفنا إلى بعضنا بعد تلك السنوات كلّها، لم يقبل هشام في البداية أن يخفي عنكِ أمر لقائنا واستعادة تعارفنا، لكنّه فعل ما طلبتُه منه أنا، نعم يا سلاف عرفت هشام منذ اللحظة الأولى التي كان يقف فيها بباب مشغلك حين كنت مهرولة إلى موعد الطبيب، أتذكرين؟! تخيلي أنني طوال سنوات كنت أخيط لزوجته وابنته ولم أعلم أن أبا هاني، الذي لم أرَه، هو هشام؟ يا لهذه الدنيا العجيبة في مصادفاتها! عرفته، والتقينا وتحادثنا مرات، وعدنا طفلين وبكينا، بكيت

t.me/yasmeenbook

كثيراً، بكيت جروحي، وأمسي ووحدتي وانتصاري على ألمِي، وبكى هشام يا سلاف، بكى زوجته وابنته، وبكى طفولتنا المسروقة، وبكى مغادرتي حماه كما لو أنها اليوم، وبكى الوطن الجريح، وبكى أحلام الأمس وحين كفكفنا دموعنا حضرتِ أنتِ، أنا أغيب والقادم لكِ يا روحي، أنا الماضي، لا تخشي أمراً، لا تقارني نفسك بي أنت الغد، حكيت لهشام عنكِ، عن صبرك وقوتك في عزّ ضعفك، وعن والدك وأخيك جميل اللذين قضيا في الليلة ذاتها وعن والدتك التي كنت تقولين أنها لم تنجح في تجاوز محنتها كما فعلتُ أنا، أتعلمين لماذا يا سلاف؟ لأنها كانت وحيدة!، وكل ما كانت تحتاجه هو أن يأخذ بيدها رجل، لكن ليس أي رجل، رجلٌ حرٌ فقط. قست عليها الحياة، كما قست عليّ لكن الحياة وهبتني هشام ووهبتها ابنة مثلك، ولا أخفي عنك، صرت أواسي نفسي بأن أعدّ أمّك شريكتي بكِ يا ابنة قلبي".

تابعت القراءة والألم يستبد بقلبها وروحها...

"علمت أنك تنوين إخباري وإسعادي بعودة هشام من الماضي، وعلمت أن هذا أربككِ لذا كنت تؤجلين! بل أنا كنت أقاطعك قاصدةً، علمت أنكما تلتقيان ومرتاحان ومتوافقان. ظننتِ أنني لن أعرفه يا سلاف؟! هشام الذي أصبحت أنا (أم هشام) كرمى لشهامته حين تخلى الجميع عني كيف لا أعرفه؟! أتعلمين، هناك أشخاص لا يمكن أن نخطئهم، وكأن حقلا مغناطيسيا حولهم يشدنا إليهم ويجذبهم إلينا جذباً دون أن نشعر، إنّه هشام يا سلاف كيف لا ترقص ذاكرتي باكيةً حين تسمع صوت ذكراه ،أتعلمين أيّ ألمٍ شفيت منه لأنه بجانبي؟ هل تخيلتِ ظلمة النبذ والإقصاء التي عشتها وأيّ نورٍ حمله هشام إليّ حينها؟! وها هو اليوم إلى جانبكِ، يحمل النور لكِ، اطمئني فأنا أبارك لك فصلا جديدا من حياتك معه، كي

تكفي عن قولك أن حياتك فصلٌ واحدٌ من الحزن، أدعو لك ألف ألف مرة، سأكون مطمئنة عليكِ الآن. أنا أعلم كم أنت قويةٌ ومتماسكةٌ ومنتصرة أيتها الجنيّة الجميلة، لكنّي أعلم أيضاً كم أنت وحيدة! لا أريدك وحيدةً يا ابنة قلبي، الوحدة ليست خياراً جيداً يا سلاف، اسأليني أنا عن الوحدة! اسألي معلمتك! أتعلمين أنك ستشيخين؟! ستتعبين وتمرضين بعد سنوات، سيغادرك الجمال والشباب والصحة، ستمرين في الأحياء ولن يغازلك الشبّان، ولا المسنّون، ولن يلتفت إليك أحد، ولن يساعدك الموظفون في الدوائر الحكومية لأنك لم تعودي الفتيّة الفاتنة، ستمر الأعياد وتجتمع الناس عائلات مع بعضها البعض وأنت وحيدة، سيدعونك إلى حفلات عشاء وأعراس لن تذهبي ولن تشاركي، ستعتذرين وتتذرعين بعشرة حجج، لأنك بلا شريك، ستدعوك صديقاتك إلى منازلهن ولن تلبي دعواتهن خوفا من عداوة مبطنة ستعلمين أنهن يخشين منك على أزواجهن، سيكون نصيبك صالات النساء في مجالس العزاء فقط، سيأتي الشتاء القارس ولا أريد أن يتفوق شتاء قلبك وصقيع روحك عليه، اهزميه بدفءٍ ممكنٍ يا حبيبتي، افتتحي مع هشام فصلا جديدا من فرح ورضا ولا تؤجلي قرارك فكلّ يوم يمضي، يصعب علينا القرار، ليتني أخيط لك فستان زفافك بيديّ، وبالخيط والإبرة وبلا ماكينات، هكذا كانوا يخيطون فساتين الأميرات، ابدئي حياة جديدة تليق بك يا أميرة، يا ابنة قلبي وحبة عيني، آه صحيح أوصيك أن تضمّي أمّك كثيراً كثيراً إلى صدرك، عانقيها يا حبيبتي، الجسدُ يحتاج الجسدَ، سأدعو لك أينما كنت لا يهم أي عالم أنا فيه الآن، وأنا واثقة أنّ أمك الأولى ستفرح لما كتبته لك أمك الثانية، قبلاتي لك ولها...أحبّك يا شيطانة!".

t.me/yasmeenbook

بالكاد أتاحت لها الدموع رؤية السطور الأخيرة من الرسالة التي أنهتْ قراءتها للتو، لم تكن تعلم إن كانت تبكي أم هشام الراحلة، أم أمّها المسكينة الوحيدة، أم تبكي ماهر الغائب، أم جميل الذي بخلت الحياة بوجوده إلى جانبها، أم بابا أبو جميل، أم الراحلين كلّهم أم أنها تبكي ذاتها وجروحها، بحثت حولها لم تجد منديلا تمسح دموعها، ولم تقوَ على النهوض، فأمسكت بطرف قميصها وراحت تلمّ الدمع عن خديها، وتلحق بالقطرات التي بلغت أسفل ذقنها، كان تنوح بقهر. رفعت عينيها عن الرسالة التي تطويها يديها بتأنٍ، نهضتْ لتجدَ هشام وقد وقف بباب الصالة يحمل بيده شيئاً، اقترب من سلاف التي شهقت حين رأت ما بيده :"يا إلهي!" كان هشام يحمل الكيس المخملي خمري اللون الذي صنعته لها سلاف ذات عيد أمّ من قماش الأريكة، اختطفته من يده كمن يتلمس عبق الذكرى وفتحته فوجدت مقص أم هشام العريق الذي انصهر فؤاد سلاف حين تخيلت معدنه يذوب وينصهر بفعل نار انفجار ذاك اليوم الأسود. ضمّت الكيس والمقص إلى صدرها وانفجرت بالبكاء. ربّت هشام على كتفيها، ودّ لو يضمّها ويقبّلها ويلم دمعها بشفتيه، لكنه لم يشأ أن تظن أنه يستغل لحظات ضعف تستبد بها.

"في جيبي شيءٌ آخر لك سلاف! لكن هذه المرة ليس من أم هشام الله يرحمها، ولا من غيرها، إنّه شيء مني" صمت ثوان ثم أردف: "شيءٌ لبنصرك، لكنّي لن أخرجه حتى يأذن قلبك لي بذلك، تصبحين على خير يا فاتنتي!".

قبّل يدها وانصرف تاركاً "فاتنته" كالتائهة وعقلها أشبه بصفحة بيضاء.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الحروب تُعَلِّمنا أن نذوق الهواء وأن نمدح الماء.
ونسأل: هَلْ كان في وُسْعِ مَنْ مات ألاَّ يموت ليبدأ سيرتَهُ من هنا؟

محمود درويش

t.me/yasmeenbook

حمص، صيف 2018

"صباح الخير كيف حالك؟" ردّت حياة على هاتف ثائر المبكّر صبيحةَ العيد.

"إنّه عيد الفطر ويحلو لي أن أعايدك في المناسبات جميعها، كل يوم وأنت العيد حبيبتي!" قال ثائر بحبٍّ وحنوّ.

"وأنت بخير ثائر، كيفك؟" ردت حياة.

"أنا جيّد، سأكون أفضل إن التقيتكِ اليوم، أنا في إجازة بالأمس أتينا، جوان وأنا، هو مسافرٌ بعد ساعة إلى القامشلي، هل تودّين أن نخرج بعد ذلك معاً! أم نلتقي في بيتكم؟"

"في الحقيقة بعد ساعة تقريباً سأكون وأمي مع سماح وسلاف لمعايدة من فقدنا، اتفقنا أن نذهب معاً لنضع الزهور على قبورهم: العم أبو جميل، جميل، سهر، والخالة أم ماهر وأم هشام الله يرحمهم جميعا" قالت بصوتٍ حزين.

"رحمهم الله، وهل سيذهب ماهر؟!".

صمتت حياة لثوان ثم أجابتْ: "لا أدري، ربما، أعتقد عليه أن يذهب، بالتأكيد إنّه اليوم الأول للعيد، أول عيد بعد رحيلهن".

"حسناً، ربما آتي معكم، سأتصل بماهرٍ ونتفق".

"حسناً ثائر نلتقي هناك إذن، باي".

t.me/yasmeenbook

"حياة! هل أحمد الصغير سيكون معك؟" سأل قبل أن يودّعها.

"نعم بالتأكيد أين عساه يكون؟".

"إذن أنا قادم بكل تأكيد لأشكّل مع أحمد فريق الرجال، ضد فريقكن" قال ثائر محاولاً ممازحة حياة التي بدا الحزن على صوتها.

"حسناً موافقة".

"أحبّكِ!".

"أراك بعد قليل، باي".

"حسناً يا جميلتي، باي!". قالها بعد ثوان من الصمت

أقفلت حياة الخط، قبّلت أحمد الصغير النائم بجانبها: "كل عام وروح ماما سهر وبابا أحمد بسلام يا روحي!" اختنقت بالدمع وهي تعايده.

حاول ثائر ألا يركز كثيراً في انزعاجه، إلا أنه لم يكن مرتاحاً للطريقة التي جرت فيها المكالمة، فهي لم ترد المعايدة بلهجة توازي لهجة الحبّ التي بادرها بها، ثم إنها لم تبدُ متحمسةً للقائه، حتى أنّها لم تسأله أصلاً عن الإجازة وإلى متى سيبقى! جلس ثائر على الأريكة التي تصدرت صالة بيت أهله، مسنداً ساقه على طاولةٍ صغيرةٍ قبالته، والأفكار تتقاذفه.

كثيراً ما كان يريد أن يحدد موعداً للزواج أو على الأقل إعلان خطبتهما، وتمنى أن يحتفلا بارتباطهما في اليوم نفسه لحفل ماهر وسهر، لكنّ حياة رفضت حينها ورأت في ذلك استعجالاً ليس له من داعٍ.

كان قلقه يزداد يوماً بعد يوم لكنه لم يكن يمتلك الجرأة على مصارحتها بما يجول في خاطره من احتمالات، كان قلقاً أن تكون

t.me/yasmeenbook

الظروف الجديدة قد غيّرت من قرار حياة. هواجس عديدة كانت تؤرّقه بسبب ترددها، احتمال أن تكون حياة قد خططت أن تعيد النظر، أو فكّرت بماهر مثلاً، أو ربما يكون ماهر هو الذي لمّح لها بشيء! لا سيَّما أنه مازال يشعر بالذنب تجاه أحمد وابن أحمد، وارتباطه بحياة سيكون جيداً جداً من أجل الصغير، إذ تهبه الحياة الأم الحنون خالته حياة، وأباً سيهتم به جيداً بعد ذنبه الدائم إزاء أبيه، أليس هذا حلا مناسباً لكل الأطراف؟! لا شك أن حياة ستفكر في الأمر وستعيد النظر في علاقتهما، خاصة حين تقارن بين ثائر ذي الساق المصابة وماهر السليم المعافى. العلاقة القديمة الطيّبة والجيّدة بين العائلتين واهتمام حياة بسماح ودروسها حين كانت في المدرسة، كل ذلك لابد أن يسهم في زيادة رصيد ماهر عند حياة وسيجعل الأمرَ أسهلَ. شعر ثائر بالتهديد وأحسّ برأسه على وشك الانفجار من تزاحم الأفكار، تناول حبوباً مسكنة، استلقى على الأريكة، وحاول الاستسلام للنوم، عادته حين يريد الهربَ من أفكاره.

في المنام كان جالساً على كرسيّ وحياة تقف بجانبه بثقةٍ، تحادثه ببرودٍ لم يعهده من قبل، وبينما تتحدث كان صوتُ أمّها من بعيد يناديها، الغريب أنها نادتها: "لينا!" والأغرب أن حياة ردّت، أراد أن يسألها ليتأكد من اسمها نظر في وجهها فكانت حقاً لينا، التفتت نحو والدتها: "أنا آتية ماما" ثم عادت ونظرت في عينيه تستأذنه بالذهاب فكانت حياة!! كانت حقاً حياة لا أحد سواها.

نهض مذعوراً، زفر بقوّةٍ محاولا أن ينفث تلك المخاوف مع زفراته التي تخرج من صدره بسرعة، أدرك حينها أنه لم يشفَ بعد، ليس من جرح لينا وإنما من عقدة التخلّي، فالشفاء من الغدر لا يتم بين عشية وضحاها، ربما لأنّ جروحنا من البعض تتحوّل بدورها إلى

t.me/yasmeenbook

سكاكين نجرح بها آخرين لا ذنب لهم سوى أن الأقدار وضعتنا في طريقهم ثم نحاسبهم بذنوب غيرهم، وكأنّ آلامنا أثوابٌ لا نكتفي بها على أجسادنا بل نجبر آخرين على ارتدائها سواء كانت تناسبهم أم لا! الغريب ليس أن البعض آلمنا في الماضي، بل أننا نؤلم آخرين في الحاضر، وهكذا فإن الذين قتلونا فعلوها مرتين، مرة حين قتلونا، ومرة أخرى حين حولونا إلى قتلة.

دخل جوان متكاسلاً متثاقلاً في مشيته حاملاً منشفةً يجفف بها وجهه رمى بجسده على الأريكة الأخرى: "صباحك يا عريس! العاشقون فقط يصحون باكراً يهرولون إلى هواتفهم لمعايدة الأحبة، الفاشلون المحبطون، مثل حضرتنا! ينهضون متأخرين، هذا إن نهضوا، لا أحد ينتظرهم ولا هم ينتظرون أحداً، اممم مريح هذا الوضع نوعاً ما، الحريّة.. الحريّة!" قال جوان بطريقته الساخرة المعتادة ممططاً ذراعيه ومتثائباً بتراخٍ.

"ماذا؟ الفاشلون المحبطون مثلك؟ أين هيف؟ هل أخرجت لك الكرتَ الأحمرَ هي أيضاً؟!".

"والله لو كنت أنا مكانها لطردتني!، ثم ماذا تقصد ب: (هي أيضاً) احترم نفسك قليلاً!" ضحكا معاً.

"ها أنت مسافر لها، أتمنى أن تثمر المصالحات الوطنية عن عودتكما كالسابق، خاصة إن كان هناك تدخل خارجي قوي من أهلك وأهلها".

"والله إن لم تثمر المصالحات، سأضع لحني الجديد على الباغلمة خاصتي، وسيكون بعنوان: /خيبتي/" قال جوان ساخراً.

"ولم لا يكون عنوانها: /الخازوق الجديد/" صحّح له ثائر فانفجرا بالضحك.

t.me/yasmeenbook

دخلت أم ثائر حين سمعت ضحكهما: "الله يديم الضحك والفرح يا أولادي، كل عام وأنتم بخير، هل تريدان قهوة أم شاي مع الأقراص الحمصية اللذيذة التي صنعتها بيديّ؟!".

"القهوة أولاً يا خالة، القهوة! وأنا سأعدّها لكم على الطريقة القامشلية الكردية" قال جوان.

"علمني هذه الطريقة يا ابني!" كانت أم ثائر جادّة في سؤالها.

"امم حسناً! أنتم تضعون القهوة في الماء أما نحن فنضع الماء في القهوة" قهقهت أم ثائر حين قال جوان ذلك.

* * *

"بالله عليكِ أخبريني! هل سبق لك أن سمعتِ عن شابٍّ يطلب يدَ حبيبته وهو آتٍ ليخبرَ أهلها عن إصابةِ صهرهم؟ " قال ثائر مازحاً.

"و بالبدلة العسكرية وذقنه طويلة وغير مشذّبة؟!" أجابته حياة.

"لا أؤجل أمراً بلغ حدّه، وحينها كان حبي قد نضج، واليوم أتوق لتناول الثمر".

"ثائر! نحن ذاهبون إلى مقبرة نعايد أمواتنا، كن عاقلاً!".

"امم، مقبرة؟! والله المقبرة برأيي أقل كآبةً وموتاً من هذا الذي أراه أمامي يا حياة!" أجاب ثائر مشيرا إلى الشارع حيث وقفا بفناء بناء بيت أبي ماهر بانتظار سماح وماهر، وإلى جانبهما أم حياة وقد أمسكت بيد أحمد الصغير ذي السنوات الأربع، تتمشى به ريثما يصل الجميع حسب الاتفاق، كانت الأبنية على جانبي الطريق متهاويةً لم يبقَ منها إلا الركام، الحديقة التي كانت على زاوية الشارع تحولّت إلى ركامٍ واللون الأخضر فيها تحول إلى رمادي أما ألعاب الأطفال فتحولت إلى بقايا منصهرة لا معالم لها. ومع ذلك ظلّ بعض الأطفال

الـذين فقـدوا كـل مـا يمـت للحيـاة والطفولـة بصـلة، يقصـدونها ويستخرجون منها أعواداً وعصيّاً وبقايا معادن، يصنعون منـها أسـلحةً وهميةً فيتصارع فريقان والجميـع يقلـد أصـواتَ تراشـق النـار بحرفيـةٍ عالية، تلك خبراتهم الجديدة وألعابهم الجديدة.

وفجأةً توقفت سيارة فارهة ونزل منها هشام بكامل أناقته المعهـودة فتح الباب الأمامي لسلاف التي اتشحت بالسّواد الـذي زاد مـن سـحر إطلالتها. بالوقت نفسه كان ماهر وسماح قد نزلا وقد بـدا علـى مـاهر الاستياء لأكثر من سبب. "كل عام وأنتم جميعا بخير ووطننا بلا أحزان يا رب" قال هشام بثقةٍ ولباقة.

"أبو هاني! هشـام المصـري، أحـد أقربـاء أم هشـام وأتـى ليعايـد روحها في المكان الذي أوصت أن تدفن فيه الله يرحمها" قالت سـلاف معرّفةً الجميع بهشام.

"أعرفكم جميعاً فرداً فرداً، حدثتني سلاف عنكم كثيراً" قال هشام.

تبادل الجميع التـهاني والتعـازي بوقـت واحـد. اقتـرب مـاهر مـن سلاف هامساً: "يبدو أنك لا تفتحين بريد الوارد! راسلتك قبـل أيـام!" نظرتْ إليه ولم تجبْ ثم استدارت نحو الحاضرين.

قالت حياة: "ما رأيكم أن نتمشى على الأقدام فالمكان لـيس بعيـداً والطقس اليوم مشمسٌ ورائع!"

اقترب ثائر من صديقه ماهر: "مابكَ يا ماهر؟ وأين العم أبو ماهر؟".

"رفض المجيء معنا، كان خروجه من البيت نادرا جدّ، وبعد وفـاة أمّي صار يرفض الخروج مطلقاً! لم تبصر عيناه الشمس منـذ شـهور!" أجاب ماهر بينما يسترق النظـر إلى هشـام وسـلاف الـتي ابتسـمت لـه بحبّ.

t.me/yasmeenbook

"اتبعني ماهر إلى فوق هيا! سيّدي هل بإمكانك مساعدتنا من فضلك!!" قال ثائر مخاطباً هشام

"بكل تأكيد!" أجاب هشام بدماثة دون تردد وتبعهم مهرولاً.

بعد دقائق خرج ماهر من مدخل البناء حاملاً أباه على كتفيه وفي عيني أبي ماهر ابتسامة رضا وكثير من الحسرات، بكت سماح "بابا!"، ظهر ثائر وهشام من خلف ماهر يحملان الكرسي المتحرك، وضعاه على الأرض مشيرين لماهر أن يجلس أباه، لكنّ ماهر لم يأبه، ظل واقفاً دون أن يُنزِل أباه، اقتربت سلاف، سلّمت على أبي ماهر بلهفةٍ واحترام كبيرين وظلّت واقفةً بقرب ماهر، نظرة اطمئنان ارتسمت على وجه ثائر.

حين رأى الكرسي، ركض أحمد الصغير ضاحكاً وجلس بسرعةٍ ثم نظر إلى جدّته: "توت.. توت" ضحكت أم حياة ودفعت العربة به، فراح يحرّك رجليه سعيداً، مشى ماهر ممسكاً ركبتي والده جيداً على كتفيه، خطتْ سلاف بعينين براقتين، وتبعهما الجميع.

ياسمين

t.me/yasmeenbook